المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (٠٣٢)
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية
(البرنامج المسائي)

حادثة الإفْك

(دراسة دعوية)

مشروع رسالة علمية مقدم لنيل درجة العالمية (الماجستير)

إعداد الطالب

عبد الغني بن عبد ربه بن ناجي الرحيلي

إشراف

أ. د / حمود بن أحمد الرحيلي

العام الجامعي

١٤٣١ - ١٤٣٢هـ

كلمة شكر وتقدير

أحمد الله تبارك وتعالى وأشكره، وأثني عليه الخير كله على ما يسر من إتمام هذه الرسالة، ومن ثمَّ أرى واجباً عليَّ أن أتقدم بجزيل الشكر والدعاء لوالديّ الكريمين، كما أتوجه بالشكر الجزيل للقائمين على الجامعة الإسلامية المباركة -أدامها الله حصناً منيعاً للإسلام وللمسلمين- وعلى رأسهم معالي مديرها فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد بن علي العقلا.

كما أتقدم بالشكر والتقدير لكلية الدعوة وأصول الدين ممثلة في عميدها، ووكيل الدراسات العليا بالكلية، ورئيس قسم الدعوة.

وكما أخص بالشكر الجزيل شيخي وأستاذي فضيلة الأستاذ الدكتور/ حمود بن أحمد الرحيلي -حفظه الله ورعاه وجعل الجنة مأوانا ومأواه-، نظير إحسانه إليّ بقبول الإشراف على هذا الرسالة فلم يبخل عليّ -وفقه الله- بتوجيهاته المنهجية وملحوظاته الموضوعية. التي كان لها الأثر الطيب في إنارة الطريق إلى إنجاز هذه الرسالة.

والشكر ممتد ومقترن بصاحبي الفضيلة الشيخ الدكتور غازي بن غزاي المطيري والشيخ الدكتور سلطان بن عمر الحصين حفظهما الله تعالى اللذين تفضلا وتكرما علي بقبول مناقشة الرسالة رغم مشاغلهما الجمة وأعمالهما المتعددة وارتباطاهما الكثيرة.

وهذا الشكر عملاً بقوله r: ((من لا يشكر الناس لا يشكر الله))[1].

وفي الختام فإني لا أدّعي أني وفيت الرسالة حقها، ولكن حسبي أنني بذلت جهدي طلباً للحق وسعياً للصواب، فما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان وأستغفر الله من ذلك.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً

وصلاته وسلامه على نبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/٢٩٩) حديث رقم (١٩٥٤) وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وأبو داود (٥/١٥٧) حديث رقم (٤٨١١)، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود حديث رقم (٤٨١١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

O 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? N[1]، O ! " # $ %

& ' ( ) * + , - . / 0 1 3 4 5 6 7 8 : ; <

= > N[2]، O u v w x y z { | } ~ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ © فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا N[3]، أما بعد:

فإنَّ حادثة الإفك مِنْ أعظم ما ابتُليَ به النبي r وزوجه الطاهرة العفيفة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، حيث أراد المنافقون من الإفك اتهام عرض النبيِّ r بالفاحشة التي لَمْ يُــبتَلَ بها نبيٌّ مِنَ الأنبياء، قال ابن عباس t ((ما بغت زوجة نبي قط، ولا ابتلي الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في نسائهم بهذا))[4]، ولقد عانى النبي r وزوجته أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- مِنْ أذى المنافقين في الإفك شهرًا كاملاً حتى أنزل الله U على نبيّه r قوله تعالى: O! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 2 3 4 5

6 7 8 : ; < = > ? @ N[5]، وختم الآيات بقوله تعالى: O ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ ´ ¶ ¸ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ N[6]، فهذه الآيات تضمّنت خيرًا كثيرًا كما بيّن المولى U، فقد برأت ساحة أم

---

(١) سورة آل عمران، آية رقم (١٠٢)

(٢) سورة النساء، آية رقم (١)

(٣) سورة الأحزاب، آية رقم (٧٠، ٧١).

(٤) المحرر الوجيز (٨/ ٣٤٨).

(٥) سورة النور، آية رقم (١١).

(٦) سورة النور، آية رقم (٢٦).

المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- مما أُفكَ به عليها، وفضحت مكر المنافقين، وطرق كيدهم للمؤمنين، وبيّنت كيف يتصدّى المؤمنون لشرورهم، وعاتبت مَنْ أخطأ من المؤمنين، وبيّنت السنّةُ الصحيحةُ ما أُجمِلَ ذِكره في القرآن الكريم، فشرحتْ تفاصيل الإفك، وأظهرتْ لنا حكمة النبي r وزوجته الطاهرة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- في تعاملهما مع حادثة الإفك، فكان لزامًا أنْ نبيّنَ هذه الفوائد العظيمة التي تضمنتها هذه الحادثة المحزنة بأحداثها، المفرحة بنتائجها وما آلات إليه، ليستنير من خلالها الدعاة إلى الله تعالى، فالخير كله في اتباع النبي r ، والشرُّ كلّه في التخلّف عن نهجه وسُنَنه، قال تعالى: O لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا N[١]، خاصة ونحن في زمن أحوج ما نكون فيه تأسيًا بمنهج الأنبياء في دعوتهم، فيكون الداعية على بصيرة في دعوته، فيقوّم دعوته بمقومات الدعوة، ويتجنب معوقاتها، ويعرف كيف يتعامل مع المناوئين له ولدعوته، ويتخذ الوسائل والأساليب المشروعة في التصدي لهم، كل ذلك من خلال الدليل القاطع، والحجة البينة، وهذا ما أروم الوصول إليه من خلال البحث في هذا الموضوع إلا وهو (**حادثة الإفك: دراسة دعوية**).

- **أهمية الموضوع:**

أولاً: أهمية تأسي الدعاة بالنبي صلى الله عليه وسلم من خلال حادثة الإفك.

ثانيًا: بيان الآثار النفسية والاجتماعية على الداعية في ضوء حادثة الإفك.

ثالثًا: حاجة الدعاة والواقع الدعوي إلى معرفة مقومات الداعية بناء على ما ورد في حادثة الإفك.

رابعًا: حاجة الدعاة والواقع الدعوي إلى معرفة معوقات الداعية استنادًا إلى ما ورد في حادثة الإفك.

خامسًا: أهمية معرفة الوسائل والأساليب الدعوية المشروعة على إثر دراسة حادثة الإفك.

---

(١) سورة الأحزاب، آية رقم (٢١).

سادسًا: عدم تناول هذا الموضوع بدراسة دعوية علمية مستقلة.

سابعًا: معرفة كيفية التعامل مع المنافقين حال كيدهم للدعاة في ضوء هذه الحادثة

ثامنًا: وفرة المادة العلمية في الآيات والأحاديث بما يتناسب مع دراستها دراسة دعوية تحليلية.

• أهداف البحث:

تنطلق أهداف الدراسة مما يلي:

١. التوصل للأسباب والأهداف التي دعت المنافقين للخوض في حادثة الإفك.
٢. بيان الأثر النفسي على الداعية من خلال حادثة الإفك.
٣. بيان الأثر الاجتماعي على الداعية على ضوء حادثة الإفك.
٤. معرفة معوقات الداعية إلى الله تعالى استنادًا على حادثة الإفك.
٥. معرفة مقومات الداعية إلى الله تعالى بناءً على حادثة الإفك.
٦. التوصل للوسائل والأساليب الدعوية المشروعة من خلال حادثة الإفك.

• تساؤلات البحث

تنطلق تساؤلات هذه الدراسة مما يلي:

١. ما مفهوم الإفك لغة واصطلاحًا.
٢. ما أسباب وأهداف خوض المنافقين في حادثة الإفك.
٣. ما أهمية بيان الأثر النفسي على الداعية على ضوء حادثة الإفك.
٤. ما أهمية بيان الأثر الاجتماعي على الداعية من خلال حادثة الإفك.
٥. ما مقومات الداعية إلى الله عز وجل استنادًا على حادثة الإفك.
٦. ما معوقات الداعية إلى الله عز وجل بناءً على حادثة الإفك.
٧. ما هي الوسائل والأساليب الدعوية المشروعة من خلال حادثة الإفك.

• حدود البحث:

تنحصر حدود البحث من خلال الآيات القرآنية وما ورد في الكتب التسعة من أحاديث في قصة الإفك.

• الدراسات السابقة:

بعد البحث والاستقصاء لم أقف على رسالة علمية تناولت هذا الموضوع دعويًّا، فقد بحثت في مركز الملك فيصل للبحوث العلمية، ومكتبة الملك فهد، وفي الجامعات السعودية، فلم أجد أي بحث دعوي علمي يتعلق به، إلا أنني وجدتُ بحوثاً لحادثة الإفك، وهي على النحو التالي:

١. **حادثة الإفك دراسة عقدية**، للباحثة عفاف مختار، إلا أن هذه الدراسة اقتصرت الباحثة فيها على الجانب العقدي؛ و لم تتطرق للجانب الدعوي الذي أنا بصدد البحث فيه.

٢. **حادثة الإفك في ضوء الحديث النبوي دراسة تحليلية**، للباحث عبدالسميع الأنيس، إلا أن هذه الدراسة لم تبحث الجوانب الدعوية في قصة الإفك، مما يدلل على أهمية البحث فيه دعويًا.

٣. **حديث الإفك دروس وعبر**، للباحث عامر حسين سلامه، حيث قام بدراسة حديث الإفك دراسة حديثية مع استقرائه واستباطه لبعض الفوائد والعبر، والحديث يزخر بالفوائد الدعوية التي لم يسلط الباحث الضوء عليها، وهذا يبين أهمية دراسته دعويًا.

٤. **مرويات غزوة بني المصطلق**، للباحث إبراهيم بن إبراهيم قريبي، وهي رسالة علمية مقدمة لنيل العالمية (الماجستير) من قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية، وقد جمع الباحث فيها الطرق والمرويات في غزوة بني المصطلق، و لم يتصل بحثه بما أسعى للبحث فيه.

٥. **حديث الإفك كما جاء في سورة النور وأثر المنافقين فيه**، للباحث عبد الحليم بن إبراهيم العبد اللطيف، وهي رسالة علمية مقدمة لنيل العالمية (الماجستير) من قسم الدراسات العليا بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد درس الباحث الموضوع دراسة تفسيرية، و لم يتطرق إليه بدراسة دعوية، وهذا سأعى إليه بإذن الله تعالى في هذا الموضوع.

• خطة البحث:

اشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وستة فصول وخاتمة وفهارس علمية.

أما **المقدمة** فتضمنت ما يلي:

١. موضوع البحث.
٢. أسباب اختيار الموضوع.
٣. أهداف البحث.
٤. تساؤلات البحث.

٥. حدود البحث.

٦. الدراسات السابقة.

٧. خطة البحث.

٨. منهج البحث.

التمهيد: وفيه مبحثان:

المبحث الأول. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الإفك لغة.

المطلب الثاني: تعريف الإفك اصطلاحًا.

المبحث الثاني: التعريف بأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-. وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: اسمها ونسبها ومولدها ووفاتها وزواج النبي r بها وألقابها.

المطلب الثاني: فضل أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-.

المطلب الثالث: ما تميّزت به، وعظيم أنس النبي r بقربها.

المطلب الرابع: بعض صفاتها الخُلُقيّة.

المطلب الخامس: حكم سب أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها-.

الفصل الأول: حادثة الإفك الوقائع والأحداث. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإفك كما ورد في نصوص القرآن والسنة.

المبحث الثاني: أسباب خوض المنافقين في الإفك.

المبحث الثالث: أهداف المنافقين في قصة الإفك.

الفصل الثاني: الآثار النفسية على الداعية من خلال حادثة الإفك.

• منهج البحث :

سيكون منهجي في البحث قائمًا على المنهج الوصفي والتحليلي ويقصد به: ((دراسة وتحليل ما حصل عليه الباحث من معلومات تحليلاً كميًا أو تحليلاً كيفيًا))[١].

وبناءً على ذلك فسيقوم الباحث بالإجراءات التالية:

(١) عزو الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ورقم الآية مع كتابتها بالرسم العثماني.

(٢) جمع روايات حديث الإفك من الكتب التسعة، ورأيت أن يكون عرض هذه الروايات حسب المنهجية الآتية:

١ - الاعتماد على رواية الإمام مسلم بن الحَجَّاج -رحمه الله- في صحيحه، بحيث تكون أصلاً في سياق القصة وعرضها وسردها؛ وذلك: ((لما اختص به من جمع الطرق وجودة السياق والمحافظة على أداء الألفاظ كما هي من غير تقطيع ولا رواية بمعنى))[٢].

٢ - أَثْبَتُّ زيادات باقي الكتب التسعة على رواية مسلم بين قوسين معقوفين [ ].

٣ - دمجت بين رواية مسلم والزيادات عليها في سياقٍ واحدٍ.

٤ - أثبتُّ فروق الألفاظ (المؤثِّرة أو المهمة) بين رواية مسلم وبقية ألفاظ روايات أصحاب الكتب التسعة في الحاشية السفلية.

٥ - لم أهتمَّ بإثبات موافقة ألفاظ روايات أصحاب الكتب التسعة لِلَّفظ المسوق من رواية الإمام مسلم؛ لأنه بذكر ألفاظ رواية الإمام مسلم يثبت المراد (وهو: صحة ذلك اللفظ في الحديث)، كما أن ذكر الموافقين للإمام مسلم في جميع ألفاظ القصة يؤدي لإطالة لا داعي لها.

ويحسن أن أُنبِّه هاهنا أن ما سأذكره من الروايات في هذا المبحث فإنني لا أعيد تخريجه إذا ذكرته مرة أخرى في ثنايا ما يأتي من مباحث الرسالة، وذلك اكتفاءً بالتخريج الذي سأورده.

---

(١) المدخل إلى لبحث في علوم السلوكيّة، صالح العساف، ص٢٠٦.

(٢) تهذيب التهذيب (١٠/١١٤).

(٣) عزو الأحاديث النبوية إلى مظانها، عدا حديث الإفك، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت به وإلا عزوته إلى مظانه من الكتب التسعة مع ذكر كلام العلماء في بيان درجته.

(٤) عزو الآثار إلى مظانها.

(٥) توثيق النصوص والأقوال من مصادرها.

(٦) الاقتصار في جمع المادة العلمية على المصادر التالية وذلك نظرًا لطول البحث:

١ - القرآن.

٢ - الكتب التسعة.

(٦) توضيح المسألة المدروسة بالأمثلة الكافية في ذلك.

(٧) ترجمة الأعلام غير المشهورين الوارد ذكرهم في البحث ترجمة موجزة.

(٨) التعريف الموجز بالأماكن والبلدان والقبائل والفرق وكل ما يحتاج إلى تعريف.

(٩) شرح الألفاظ الغريبة والمصطلحات العلمية.

(١٠) الالتزام بعلامات الترقيم وضبط ما يحتاج إلى ضبط.

(١١) وضع فهارس علمية في آخر الرسالة على النحو المبين في الخطة.

— — —

تمهيد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول:

وفيه مطلبان

المطلب الأول: تعريف الإفك لغةً.

المطلب الثاني: تعريف الإفك اصطلاحًا.

المبحث الثاني: التعريف بأم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - :

وفيه خمسة مطالب

المطلب الأول: اسمها ونسبها ومولدها ووفاتها وزواج النبي r بها وألقابها

المطلب الثاني: فضل أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-

المطلب الثالث: ما تميّزت به، وعظيم أنس النبي r بقربها

المطلب الرابع: بعض صفاتها الخُلُقيّة

المطلب الخامس: حكم سب أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها-

المبحث الأول

المطلب الأول

تعريف الإفْك لغةً

(الإِفْك):

• إما: مصدر الفعلَين (أَفَكَ) و(أَفِكَ) الثلاثيَين المجرَّدَين، يقال: (أَفَكَ - يأفِكُ، وأفِكَ - يأفَكُ، إِفْكًا، وأَفْكًا، وأَفَكًا، وأُفُوكًا)[١]، و(الإِفْك) مخفف من (الأَفِك)؛ كالكِذْب واللِّعْب؛ وأصلهما: الكَذِب واللَّعِب[٢]، وقد قُرئ قوله تعالى: O = > N[٣]: (أَفِكًا) -بفتح الهمزة وكسر الفاء-[٤].

• وإما: بمعنى اسم المفعول؛ كما في قوله تعالى: Oوَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡN[٥]، والمعنى: وهذه الآلهة مأفوكهم[٦].

وأصل مادته (الهمزة، والفاء، والكاف)، وهو أصل واحد يدلُّ على قَلْب الشيء وصرفه وتحوله عن جهته ووجهه الذي يحق أن يكون عليه[٧].

ولذلك كان من معاني (الإِفْك): الكَذِب -مطلقًا-[٨]، والكذب المصنوع المموه[٩]،

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم (٩٥/٧)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥٦/١)، لسان العرب (٣٩٠/١٠)، القاموس المحيط ص (١٢٠٣).

(٢) الكشاف (٤٥١/٣)، الجامع لأحكام القرآن (٣٣٥/١٣)، الدر المصون (١٤/٩).

(٣) سورة العنكبوت، آية رقم (١٧).

(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب (٣٢٨/١٥).

(٥) سورة الأحقاف، آية رقم (٢٨).

(٦) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦٨٦١/١١)، مفردات ألفاظ القرآن (٣٤/١).

(٧) معجم مقاييس اللغة (١١٨/١)، مفردات ألفاظ القرآن الكريم (٣٤/١).

(٨) العين (٤١٦/٥)، تهذيب اللغة (٣٩٦/١٠)، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) (١٥٧٢/٤)، مفردات ألفاظ القرآن (٣٤/١)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥٦/١)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥٥٠/٤)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١١١/١٨).

(٩) التحرير والتنوير (٤٩/٩).

وأسوأ الكذب وأشدُّه وأقبحه[١]، وأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء[٢]، والبهتان الذي لا تشعر به حتى يفجأك[٣]، والزُّور[٤]؛ سُمِّي بذلك لأنه قولٌ مأفوكٌ عن وجهه وسَنَنه[٥]، ومصروفٌ عن الصدق ومقلوبٌ عنه[٦]، ولأنَّه صرفٌ وقلبٌ للأمر عن حقيقته وعن الوجه الذي يَحِقُّ بالكذب والافتراء، وقَلْبٌ للكلام عن الحق إلى الباطل والكذب[٧]، فالكاذب يصرف السامع عن الصِّدق[٨].

ومن التصريفات اللغوية لهذه الكلمة:

- (أَفَكَ فلانًا عن الشيء، والأمرَ عن وجهه، يأفِكُه، أَفْكًا -بفتح الهمزة فقط-): صرفَه عنه وقلبه بالكذب والباطل[٩]، و(أُفِكَ فلان عن الخير والحق والصِّدق)؛ فهو (مأفوك): قُلب

---

(١) غريب القرآن ص (١٠٨)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٩/٦١٢٣)، عمدة الحفاظ (١/٩٧)، معالم التنزيل (٦/٢٢) (٧/٤٤)، الجامع لأحكام القرآن (١٥/٩٢، ١٣٣)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير (٤/١٨، ٥٧٠)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/٣٠٥) (٧/٣٦٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/٣٤٢)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/١٠٠)، البحر المحيط (٦/٤٠٠)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦/١٦٠)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٨/١١١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/٣٤٢)، البحر المحيط (٦/٤٠٠)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦/١٦٠)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٨/١١١)، التحرير والتنوير (٩/٤٩).

(٤) التحرير والتنوير (٩/٤٩).

(٥) مفاتيخ الغيب (٢٣/٣٤٢)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/١٠٠)، الفائق في غريب الحديث والأثر (١/٤٩)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦/١٦٠).

(٦) معاني القرآن للنحاس (٤/٥٠٧)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٣٠٦٥/٤).

(٧) مفردات ألفظ القرآن (١/٣٤)، معالم التنزيل (٦/٢٢)، المحرر الوجيز (٤/٣٦٠)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٨/١١١)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/٥٥٠) (٦/٣٠٥)، التحرير والتنوير (١٨/ ١٦٩).

(٨) التحرير والتنوير (١٠/١٦٩).

(٩) العين (٥/٤١٦)، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) (٤/١٥٧٢)، معجم مقاييس اللغة =

عنه ومُنِعَ وصُرِفَ إلى الباطل[١]، و(أُفِكْتُ أنْ أفعل كذا): صُدِدتُ عن أن أفعلَه[٢]، وكل أمر صُرِف عن وجهه فقد أُفِكَ[٣].

- و(أَفَكَ): كذبَ وافترى، و(أفكَ الناسَ): كذبَهم، وكذب عليهم، وحدَّثهم بالباطل، وخدعهم، فيكون الفعل (أفكَ) لازمًا ومتعديًا، مثل: كذبَ وكذَبتُه[٤]، وهو (أَفُوك) و(آفِك) و(أَفيك): كذَّاب[٥]. وهو (أَفِك) و(أفَّاك)، وهي (أفَّاكة)[٦]: على صيغة المبالغة؛ أي: كثير الكذب[٧].

ومن استعمالاتها القرآنية:

- قوله جل وعلا: O * + , - N[٨]؛ أي: يُصرَف عن الإيمان بهذا القرآن مَن صُرِفَ في سابق علم الله تعالى، ويُدفَع عنه مَن يُدفع؛ فيُحْرَمه[٩].

=

(١/١١٨)، المحكم والمحيط الأعظم (٧/٩٥)، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٥٦)، البحر المحيط (٣/٥١٩)، الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢١٠)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١١/١١٣)، المعجم الوسيط (١/٢١).

(١) معاني القرآن للنحاس (٥/٢٧٢)، أساس البلاغة (١/٣٠)، النهاية في غريب الحديث والاثر (١/٥٦).

(٢) المحيط في اللغة (٦/٣٤١)، أساس البلاغة (١/٣٠).

(٣) المصباح المنير (١/١٧).

(٤) انظر: لسان العرب (١٠/٣٩٠)، تاج العروس (٢٧/٤٦) وانظر أيضًا: النكت والعيون للماوردي (٥/٣٦٣)، الجامع لأحكام القرآن (١٧/٣٣)، المعجم الوسيط (١/٢١).

(٥) المحكم والمحيط الأعظم (٧/٩٥)، المخصص (١/٢٩٤)، المصباح المنير (١/١٧)، القاموس المحيط ص (١٢٠٣).

(٦) المصباح المنير (١/١٧).

(٧) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) (٤/١٥٧٢)، المحكم والمحيط الأعظم (٧/٩٥)، المخصص (١/٢٩٤)، المصباح المنير (١/١٧)، عمدة الحفاظ (١/٩٨)، القاموس المحيط (١٢٠٣).

(٨) سورة الذاريات، آية رقم (٩).

(٩) معاني القرآن (٣/٥٦، ٨٣)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٤٩١)، النكت والعيون (٥/٣٦٣)، الجامع لأحكام القرآن (١٧/٣٣)، تهذيب اللغة (١٠/٣٩٥)، جمهرة اللغة (١/ ٥٦)، عمدة الحفاظ (١/٩٧).

- وقوله U: O قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ N[١] أي: يُصرَفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[٢].

وفي ضوء ما تقدم:

فمادة (الإِفْك) تدور حول: الصَّرْف، والتصرُّف، والقَلْب، والتحوُّل، والكذب مطلقًا، والافتراء والبهتان.

" " "

(١) سورة التوبة، آية رقم (٣٠).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (٣٤/١).

المطلب الثاني

تعريف الإفْك اصطلاحاً

من خلال بحثي في الكتب المعنية بالتعريفات الاصطلاحية لم أجد للإفْك تعريفًا خاصًّا يتميَّزُ به وينفردُ عن المعنى اللُّغوي، أو يقيِّدُ أصلَه وعُمومَه؛ ولذا عرَّفه بعض أهل العلم بنفس تعريفه لغةً؛ فقال: ((الإفْك: كلُّ مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه))، و لم يذكر غيرَه[١]، فالإفْك في الاصطلاح يرجع معناه إلى المعنى اللُّغوي، مثلاً بمثل؛ فهو: الصَّرْف وقَلْب الشيء عن وجهه[٢]، والكَذِب[٣].

إلا أنَّ كلمة (الإفْك) صارَت في عُرف أهل التفسير والسِّيَر مُنصَرِفةً إلى: ما أُفِكَ به وكُذِبَ وافتُري على أم المؤمنين الصِّديقَة عائشة -رضي الله عنها- مما رُمِيَت به، وإليه الإشارة بقوله تعالى: O! " # $ % & N[٤]؛ فاللام في كلمة (الإفْك) للعَهد، وجوَّز بعض أهل العلم أن تكون للجنس؛ فيفيد القَصْر؛ كأنَّه لا إفكَ إلا ذلك الإفْكَ!، فالتعريف فيه زيادة تبشيع لهذا القول في هذا المقام[٥]؛ فصار (الإفْك) منصرفًا ومتعلِّقًا بقصتها -رضي الله عنها-.

وسُمِّي إِفْكًا لأنَّ عائشة -رضي الله عنها- كانت من أحقِّ الناس بالثناء والمدح لِما كانت عليه من الحَصَانَة والشَّرَف والعِفَّة والكَرَم، كما أن الواقعة التي رُمِيت بسببها بالإفك

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف ص (٨١). وانظر: مفردات ألفاظ القرآن (٣٤/١)، عمدة الحفاظ (٩٧/١)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١٣٨/٧)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١١١/١٨)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥٥٠/٤)، التحرير والتنوير (١٦٩/١٨).

(٢) الكليات ص (٩٩٠).

(٣) المصدر السابق ص (١٥٣).

(٤) سورة النور، آية رقم (١١).

(٥) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١١١/١٨)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٣٩/٥).

-وهي مجيئها إلى الجيش في نحر الظهيرة يقودها صفوان بن المعطل t على بعيره- واقعة لا تحتمل أي ريبة أو شك؛ فمَن رماها بالسوء فقد أَفَكَ؛ أي: أتى بأقبح الكذب وأسوئه، وببهتان شديد فَجَأَ الناس به، فقلبَ الأمر وصرفه عَن أحسن وجوهه وعن حقيقته وصوابه إلى أقبح أقفائه؛ ليُضِلّ الناس فيعتقدوا خلافَ الحق والصواب![(١)].

وبذلك تظهر العلاقةُ واضحةً بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكلمة (الإِفْك).

" " "

(١) انظر: معالم التنزيل (٦/٢٢)، مفاتيح الغيب (٢٣/٣٤٢)، نظم الدرر (٥/٢٣٩).

المبحث الثاني

التعريف بأم المؤمنين عائشة - رضي اللّه عنها -

المطلب الأول

اسمها ونسبها ومولدها ووفاتها

وزواج النبي r بها وألقابها

اسمها ونسبها: عائشة بنت أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي؛ القرشية التيمية المكية النبوية، وأمها هي أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب ابن أذينة الكنانية[١].

مولدها ووفاتها: ولدت في الإسلام، وكانت تقول: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين[٢]، وكانت ولادتها بعد المبعث بأربع سنين أو خمس[٣].

توفيت أم المؤمنين -رضي الله عنها- سنة ثمان وخمسين في ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان عند الأكثر، وقيل سنة سبع، ودفنت بالبقيع[٤].

زواج النبي r بها: لما توفيت خديجة[٥] قالت خَوْلَة[٦] بِنْت حكيم بن الأوقص امْرَأَة

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/١٣٥).

(٢) المصدر السابق (٢/١٣٩).

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة (٨/١٦).

(٤) المصدر السابق (٨/٢٠).

(٥) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشية الأسدية، زوج النبي r ، وأول من صدقت ببعثته مطلقا، وكان تزويج النبي r خديجة قبل البعثة بخمس عشرة سنة وقيل أكثر من ذلك، توفيت لعشر خلون من رمضان سنة عشر من البعثة وهي بنت خمس وستين سنة، ودفنت بالحجون، ونزل النبي r في حفرتها. المصدر السابق (٧/٦٠٠).

(٦) خولة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص بن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة بن سليم السلمية، امرأة عثمان بن مظعون، يقال كنيتها أم شريك ويقال لها خويلة بالتصغير، وكانت صالحة فاضلة، روت عن النبي r ، روى عنها سعد بن أبي وقاص وسعيد بن المسيب وبشر بن سعيد وعروة. المصدر السابق (٧/٦٢١).

عُثْمان[١] بن مَظْعون، وذلك بمَكَّة: أي رسول الله، ألا تزوج؟ قال: "ومن؟" قلت: إن شئت بِكْرًا، وإن شئت ثَيِّبًا. قال: "فمن البكر؟" قلت: ابنة أحب خلق الله إليك: عائشة بِنْت أبي بكر[٢].

قال لها رسول الله r : ((أريتك في المنام ثلاث ليال جاءني بك الملك في سرقة من حريرٍ فيقول هذه امرأتك. فأكشف عن وجهك فإذا أنت هي فأقول إن يك هذا من عند الله يمضه))[٣].

تزوجها رسول الله r قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث سنين. وقيل: بأربع سنين. وقيل: بخمس سنين. وكان عُمرها لما تزوجها رسول الله r ست سنين، وقيل: سبع سنين. وبنى بها وهي بنت تسع سنين في المدينة في شوال سنة اثنتين من الهجرة منصرفه عليه الصلاة والسلام من غزوة بدر[٤].

ألقابها: أم المؤمنين، زوجة النبي r ، أفقه نساء الأمة على الإطلاق[٥]، كناها رسول الله r بأم عَبْد الله[٦]، الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله المبرّأة[٧].

" " "

---

(١) عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح الجمحي، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر إلى الحبشة هو وابنه السائب الهجرة الأولى، توفي بعد شهوده بدرًا في السنة الثانية من الهجرة، وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين، وأول من دفن بالبقيع منهم. المصدر السابق (٤٦١/٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٠/٦)، رقم (٢٥٨١٠)، المعجم الكبير (٣٢٩/١٦)، رقم (١٨٥٨٨)، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: إسناده حسن.

(٣) أخرجه البخاري (٧١/٥) رقم (٣٨٩٥) ومسلم واللفظ له (١٣٤/٧) رقم (٦٤٣٦).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (١٣٥/٢)، الإصابة في تمييز الصحابة (٣٨٣/٣).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٣٥/٢).

(٦) انظر: أسد الغابة (٧/ ١٨٦).

(٧) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٨١).

المطلب الثاني

فضل أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-

بلغت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- من الفضل أعلى المراتب، ومن المجد أعلى المناقب، فــ((أهل السنة مجمعون على تعظيم عائشة ومحبتها، وأن نساءه أمهات المؤمنين اللاتي مات عنهن كانت عائشة أحبهن إليه، وأعلمهن وأعظمهن حرمة عند المسلمين))[١]، قال النبي r مبينًا للأمة فضلها: ((كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام))[٢]، وهذا يعني: ((أن الثريد من كل الطعام أفضل من المرق، فثريد اللحم أفضل من مرقه بلا ثريد، وثريد ما لا لحم فيه أفضل من مرقه، والمراد بالفضيلة نفعه، والشبع منه، وسهولة مساغه، والالتذاذ به، وتيسر تناوله، وتمكن الإنسان من أخذ كفايته منه بسرعة، وغير ذلك، فهو أفضل من المرق كله، ومن سائر الأطعمة، وفضل عائشة على النساء زائد كزيادة فضل الثريد على غيره من الأطعمة))[٣]، وما يؤكدُه:

أولاً: الحبُّ العظيم الذي كانت تحظى به مِنَ النبي r ، فحين سأل عــمرو بن العاص t النبي r : ((أي الناس أحب إليك قال عائشة))[٤].

ولصدق هذا الحبِّ شواهدُ عديدة منها:

- أمرُ النبي r سيدةَ نساء الجنّة، فاطمة -رضي الله عنها- أنْ تُحِبَّها، حين قالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، فقال لها الرسول r : ((أي بنية ألست تحبين ما أحب. فقالت بلى. قال فأحبي هذه))[٥].

---

(١) منهاج السنّة النبوية (٤/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٢/٧) رقم (٦٤٢٥).

(٣) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٥/ ١٩٩).

(٤) أخرجه البخاري (٦/٥) رقم (٣٦٦٢)، ومسلم (١٠٩/٧) رقم (٦٣٢٨).

(٥) أخرجه مسلم (١٣٥/٧) رقم (٦٤٤٣).

- مسابقته لها[١]، ووقوفه على باب حجرتها؛ لتنظر للأحباش وهم يلعبون[٢]، وانبساطه لحديثها[٣]، وضحكه حتى تبدوا نواجذه[٤]، وقد فطِنتْ لذلك أم المؤمنين سودة بنت زمعة، فوهبت يومها لعائشة -رضي الله عنهما-؛ ليبقيها رسول الله r في عصمته[٥].
- شهادة أم سلمة لعظيم حُبِّ رسول الله r لعائشة -رضي الله عنهما- فتقول: ((والذي نفسي بيده لقد كانت أحبَّ الناس إلى رسول الله r إلا أباها))[٦].
- دفاع الصحابة عنها، وتوبيخ مَنْ يتكلّمُ في شأنها بما لايجوز؛ لما لها مِنْ مكانة عند رسول الله r ؛ ولذلك عنف عمار t مَنْ تعرض لأذيّتها -رضي الله عنها- فقال له: ((اسكت مقبوحًا، منبوحًا[٧]، أتؤذي حبيبة رسول الله r))[٨].

ثانيًا: نزل بسببها تخفيف للأمة، فعندما فقدت عقدها وهي مع رسول الله r في بعض أسفاره، أقام النبي r على التماسه، وأقام الصحابة y معه، ولم يكونوا على ماء، فأنزل الله آية التيمم فتيمموا، فقال أسيد بن حضير t : ((...ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر...))[٩]، وعرف هذا الفضل أبوها t فقال لها: ((والله ما علمت يا بنية، إنك لمباركة، ماذا جعل الله للمسلمين في حبسك إياهم من البركة واليسر))[١٠].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٦٤)، رقم (٢٦٣٢٠) أبوداود (٢/٣٣٤) رقم (٢٥٨٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/٢٥٤) رقم (١٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٣/٢٢)، رقم (٢١٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٧/٣٥) رقم (٥١٨٩)، ومسلم (٧/١٣٩)، رقم (٦٤٥٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٤/٤٣٨)، رقم (٤٩٣٤)، وصححه الألباني في غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام (١٢٩).

(٥) أخرجه البخاري (٧/٤٢)، رقم (٥٢١٢)، ومسلم (٤/١٧٤)، رقم (٣٧٠٢).

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/١٣، ١٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٧) المنبوح: الذي يُضْرَبُ له مَثَلُ الكلب. لسان العرب (٢/٥٥٢).

(٨) أخرجه الترمذي (٥/٧٠٧)، رقم (٣٨٨٨)، المعجم الكبير (٢٣/٤٠)، رقم (١٠٢).

(٩) أخرجه البخاري (١/٩١) رقم (٣٣٤)، ومسلم في صحيحه (١/١٩١) رقم (٨٤٢).

(١٠) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٧٢)، رقم (٢٦٣٨٤)، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: حديث صحيح.

ثالثًا: الخير العظيم الذي حصل بسببها من خلال قصة الإفك، حيث بيّنَه المولى U في كتابه الكريم بقوله: O! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 N[١].

رابعًا: العلم الوافر الذي حفظته من مشكاة النبوّة، حين حَمَلتْ للأمة ألفي ومائتين وعشرة أحاديث للنبي r[٢]، وهي تحظى بعظيم امتنان الله U لها وهي في كنف النبوة، تنهل من معين العلم، وتتربى فيه على أعلى درجات الأخلاق، وكان الصحابة y والتابعون -رحمهم الله- يأخذون من فقهها وعلمها، فكانوا ((يسألونها عن الفرائض، وقال عطاء بن أبي رباح -رحمه الله-: كانت عائشة من أفقه الناس وأحسن الناس رأيا في العامة، وقال عروة -رحمه الله-: ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة، ولو لم يكن لعائشة من الفضائل إلا قصة الإفك لكفى بها فضلاً وعلوَّ مجدٍ؛ فإنها نزل فيها من القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة))[٣]، كما أنها صَحِبَت النبي r في آخر حياته عند كمال الدين، فحصل لها من العلم والإيمان ما لم يحصل لمن لم يدرك أول زمن النبوة، فكانت أفضل بهذه الزيادة؛ فإن الأمة انتفعت بها أكثر مما انتفعت بغيرها، وبلغت من العلم والسنة ما لم يبلغه غيرها[٤]، قال الذهبي[٥] -رحمه الله تعالى-: ((ولا أعلم في أمة محمد r، بل ولا في النساء مطلقا، امرأة أعلم منها))[٦].

" " "

---

(١) سورة النور، آية رقم (١١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٩).

(٣) أسد الغابة (٧/ ١٨٦).

(٤) انظر: منهاج السنة النبوية (٤/ ٣٠٤).

(٥) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبدالله التركماني الأصل، الفارقي، الدمشقي، أبو عبدالله شمس الدين الدمشقي، ولد في دمشق، في الثالث من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وستمائة من الهجرة، الزاهد الورع، صنف التصانيف الكثيرة المشهورة، توفي ثالث ذي القعدة سنة ٧٤٨هـ. انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ١٠٠)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٥/ ٦٦).

(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٤٠).

المطلب الثالث

ما تميّزت به، وعظيم أنس النبي r بقربها

تذكر أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- ما تميّزت به عن غيرها مِنْ نساء الأمّةِ فتقول: ((لقد أعطيت تسعًا ما أعطيتها امرأة بعد مريم بنت عمران: لقد نزل جبريل بصورتي في راحته حتى أمر رسول الله r أن يتزوجني، ولقد تزوجني بكرا وما تزوج بكرًا غيري، ولقد قبض ورأسه في حجري، ولقد قَبَرتُه في بيتي، ولقد حفت الملائكة ببيتي وإن كان الوحي ليترل عليه وإني لمعه في لحافه، وإني لابنة خليفة وصديقه، ولقد نزل عذري من السماء، ولقد خُلِّقْتُ طيبةً عند طيبٍ، ولقد وُعِدْتُ مغفرةً ورزقًا كريما))(١).

ومَنْ تتبع الأحاديث الصحيحة التي تصف حال النبي r مع زوجاته -رضي الله عنهن- وجد أنَّ رسول الله r يتكرر نومه ووضع رأسه على فَخِذِ أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، مما يبيّنُ شِدّةَ أنس رسول الله r وهو في حجرها، والأحاديث التالية تبيّن ذلك.

الحديث الأول: في قصة سقوط القلادة حين نزلتْ آية التيمم، قالت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: ((فجاء أبو بكر ورسول الله r واضع رأسه على فخذي قد نام فقال حبست رسول الله r والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فقالت عائشة فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يطعنني بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله r على فخذي))(٢).

الحديث الثاني: عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: ((أن النبي r كان يتكئ في حجري وأنا حائض ثم يقرأ القرآن))(٣).

الحديث الثالث: عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: ((كان النبي r يقول وهو صحيح: إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير فلما نزل به ورأسه

---

(١) أخرجه إسحاق ابن راهوية (٢٢/٢)، وأبو يعلى (٩٠/٨)، رقم (٤٦٢٦).
(٢) أخرجه البخاري (٩١/١) رقم (٣٣٤)، ومسلم (١٩١/١) رقم (٨٤٢).
(٣) أخرجه البخاري (٨٢/١) رقم (٢٩٧)، ومسلم (١٦٩/١) رقم (٧١٩).

على فخذي غشي عليه ثم أفاق فأشخص[١] بصره إلى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الأعلى فقلت إذًا لا يختارنا وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح قالت فكانت آخر كلمة تكلم بها اللهم الرفيق الأعلى))[٢].

الحديث الرابع: في بيتها توفى رسول الله r ، بين سحرها[٣] ونحرها، فتقول -رضي الله عنها-: ((إنَّ من نعم الله علي أن رسول الله r توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، دخل علي عبد الرحمن وبيده السواك وأنا مسندة رسول الله r ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت آخذه لك، فأشار برأسه أن نعم، فتناولته، فاشتد عليه وقلت ألينه لك، فأشار برأسه أن نعم، فلينته فأمَرَّهُ))[٤].

" " "

(١) أَيْ: رفعه إلى السماء و لم يطرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٥/ ٢٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦/١٥) رقم (٤٤٦٣)، ومسلم (١٣٧/٧) رقم (٦٤٥٠).

(٣) السَّحْر: الرّئة أي أنه مات وهو مستند إلى صدرها وما يحاذى سحرها منه. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٤٦/٢).

(٤) أخرجه مسلم (١٣/٦) رقم (٤٤٤٩).

المطلب الرابع

بعض صفاتها الخُلُقيّة

تَرَبتْ أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- منذُ نعومة أظفارها في أعظم بيتين في هذه الأمّة، بيتِ أبيها الصديق أبي بكر t ، وزوجها رسول الله r ، فنَهَلَتْ أعظم الخصال الحميدة، الكريمة، وتحلّتْ بها في مسيرة حياتها العَطِرة، وكان مِنْها ما يلي:

١- **الحياء:** ويتضح في قولها -رضي الله عنها-: ((كنت أدخل بيتي الذي دُفِنَ فيه رسول الله r وأبي، فأضع ثوبي فأقول إنما هو زوجي وأبي، فلما دفن عمر معهم؛ فوالله ما دخلت إلا وأنا مشدودة على ثيابي، حياءً من عمر))[١].

كذلك: ((كانت تطوف حَجْرَةً[٢] مِنْ الرِّجَالِ، لا تخالطهم))[٣].

٢- **الكرم:** حيث كان يشغلها عَنْ نفسها، فكانتْ تأتيها العطايا العظيمة فلا تمضي عليها الساعات إلا وقد ذهبت لمستحقيها من الفقراء والمساكين، فحين اشترى معاوية بن أبي سفيان t دار أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بمائة وثمانين ألف درهم، وقيل بمائتي ألف درهم، وشرط لها سكناها حياتها، حمل إليها المال فما رامت من مجلسها حتى قسمته، ويقال اشتراه ابن الزبير من عائشة بعث إليها يقال خمسة أجمال بخت[٤] تحمل المال فشرط لها سكناها حياتها فما برحت حتى قسمت ذلك. فقيل لها: لو خبأت لنا منه درهمًا. فقالت عائشة: لو ذكرتموني لفعلت[٥].

" " "

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٠٢)، وقال الألباني: صحيح كما في تخريج مشكاة المصابيح (١٧٧١).

(٢) أي ناحية منفردة غير بعيدة. فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/١٠٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢/١٨٧)، رقم (١٦١٨).

(٤) أجمال بخت: أي: الإبل الخراسانية. لسان العرب (٢/٩).

(٥) انظر الطبقات الكبرى (٨/١٦٤).

المطلب الخامس

حكم سب أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-

بين القرآن الكريم خطورة التعرّض لسبِّ أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، ولذلك قال مالك بن أنس[١] -رحمه الله تعالى-: ((من سبَّ أبا بكرٍ وعمر جلد، ومن سبَّ عائشة قتل، قيل له: لم يقتل في عائشة؟، قال: لأنَّ الله تعالى يقول في عائشة -رضي الله عنها-: O يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن ´ µ ¶ ¸ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ N[٢]، قال مالك: فمن رماها فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قتل. وقول مالك هاهنا صحيح، وهي رِدّةٌ تامّةٌ، وتكذيب لله تعالى في قطعه ببرائتها))[٣].

واتفقت الأمة على كفر قَاذِفها[٤]؛ لأن الذي يشتمها رد القرآن، وعلى هذا مضت سيرة أهل الفقه والعلم من أهل البيت وغيرهم[٥]، ومن رماها بما برأها الله منه فقد مرق من الدين، ولم ينعقد له نكاح على مسلمة[٦].

وهذه الأقوال من أعيان العلماء -رحمهم الله تعالى- مبنيّةٌ على: ((براءة عائشة -رضي الله عنها- من الإفك، وهي براءةٌ قطعية بنص القرآن العزيز، فلو تشكك فيها إنسان -والعياذ بالله- صار كافرا مرتدًا بإجماع المسلمين))[٧].

^ ^ ^

---

(١) مالك بن أنس بن مالك، الأصبحي المدني، أبو عبدالله، شيخ الإسلام، وإمام دار الهجرة، أحد الأئمة الأعلام. توفي سنة ١٧٩ هـ. انظر: وفيات الأعيان (٤/ ١٣٥)، وسير أعلام النبلاء (٤٨/٨)، تهذيب التهذيب (١٠/ ٥).

(٢) سورة النور، آية رقم (١٧).

(٣) انظر: المحلى (٥٠٤/١٣)، وأحكام القرآن (١٣٥٦/٣)، والشفا (٣٠٩/٢).

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (١٠٦/١).

(٥) انظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول (١٠٥١/٣).

(٦) المصدر السابق (١٠٥٨/٣).

(٧) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١١٧/١٧).

الفصل الأول

حادثة الإفك: الوقائع والأحداث

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإفك كما ورد في نصوص القرآن والسنة.

المبحث الثاني: أسباب خوض المنافقين في الإفك.

المبحث الثالث: أهداف المنافقين في قصة الإفك.

المبحث الأول

الإفك كما ورد في نصوص القرآن والسنة

القرآن والسنة هما اللذان يجب الرجوع إليهما حفظاً وتعلماً وتفقهاً واستنباطاً وإفادة.

وحادثة الإفك وردت في القرآن والسنة، فكان الواجب -قبل تناول الحادثة بالدراسة الدعوية- الرجوع إلى ما ورد في القرآن والسنة من أحداث قصة الإفك؛ لتكون الدراسة مبنية على:

- الكتاب والسنة الصحيحة؛ فهما الخير كله؛ إذ فيهما الهدى والنور والبيان.
- الاستناد على الأصول الصحيحة؛ إذ لا قيمة لدراسة تعتمد على الضعيف والواهي، أو على ما لا قيمة له في نفسه.
- التصوّر الصحيح التامّ لأحداث قصة الإفك ووقائعها كما حصلت؛ فالحكم على الشيء فرعٌ عن تصوّره، والاطلاع على الدليل سابق لمعرفة المدلول وأدعى لفقهه ومعرفة الفوائد التي تضمنها.

في ضوء ما تقدم؛ أشرع في بيان ما ورد في القرآن والسنة عن حادثة الإفك كما يأتي:

أولاً: الإفك كما ورد في نصوص القرآن:

أورد القرآن الكريم حادثة الإفك في سورة النور، وقد اختلف أهل العلم من أهل التفسير وغيرهم في تعيين تلك الآيات على وجه التحديد وعددها، وذلك بناءً على اختلافهم في الموضع الذي تنتهي فيه، وذكر الألوسي[1] أن اختلافهم في عدد الآيات كأنه ((مبني على الخلاف في رؤوس الآي))[2].

---

(١) محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، شهاب الدين، أبو الثناء: مفسر، محدث، أديب، من المجددين، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها. كان سلفي الاعتقاد في الجملة، مجتهدا. ولد سنة ١٢١٧ هـ، وتوفي سنة ١٢٧٠ هـ. الأعلام (١٧٦/٧).

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٨/ ١١٥).

وقد وقفت على قولين لأهل العلم في ذلك:

الأول- أنَّ الآيات الواردة في قصة الإفك تبدأ من آية: O! " # $ % & N،

وتنتهي بآية: HO I J K L M N:

وذلك استنادًا إلى الرواية المشهورة الواردة عن عائشة-رضي الله عنها-، والتي سيأتي سردها لاحقًا في هذا المبحث، وفيها: قالت عائشة -رضي الله عنها-: ((وأنزل الله تعالى: O! " # $ N[١] العشر الآيات، ثم أنزل الله هذا في براءتي. قال أبو بكر الصديق -وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره-: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: HO I J K LN إلى قوله O c d N[٢]، قال أبو بكر الصِّديق: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبدا....)).

وتوضح هذه الروايةَ رواياتٌ أخرى بيّنت أن المقصود: هو مجموع الآيات بدءًا من قوله تعالى: O! " # N إلى قوله O[^ _ ` b c d N، رواها البخاري في مواضع عِدّة من صحيحه بلفظ: (العشر آيات) مع إيراد الآيات التي نزلت في أبي بكر الصديق t والتي أمره الله U بها أنْ يُحسِن لابن خالته مسطح t[٣]، وكذلك في الرواية الأخرى عن الزهري[٤]: فأنزل الله تعالى: O! " # N إلى قوله O[ ^ _ ` b c d N[٥].

فعلى هذا: تبدأ الآيات من قوله تعالى: O! " # $ % & ') (* + , -

(١) سورة النور، آية رقم (١١).

(٢) سورة النور، آية رقم (٢٢).

(٣) أخرجه البخاري، حديث رقم (٤٦٩٠)(٤٧٥٠)(٤٧٥٧)(٦٦٧٩)(٧٥٠٠)(٧٥٤٥).

(٤) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، أبو بكر، الزهري، أحد الأئمة الأعلام، المتفق على جلالته وإتقانه، توفي سنة ١٢٤هـ. انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٩٠)، سير أعلام النبلاء (٥/٣٢٦)، تهذيب التهذيب (٩/ ٣٩٥).

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٧).

. / 0 2 3 4 5 6 7 8 : ; < = > ? @ N وهي الآية رقم (١١) في سورة النور، وتنتهي بالآية: O H I J K L M N O P Q R S T U V X Y [\ ] ^ _ ` b c d N وهي الآية رقم (٢٢)، وعدد الآيات على ضوء ذلك: (١٢) آية، لكن قال الحافظ ابن حجر[(١)]: ((وعدد الآي إلى هذا الموضع: ثلاث عشرة آية، فلعل في قولها: (العشر الآيات) مجازا بطريق إلغاء الكسر))[(٢)].

الثاني- أنَّ الآيات الواردة في قصة الإفك تبدأ من آية: O! " # $ % & N، وتنتهي بآية: O ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ N:

وذلك بناء على الروايات الآتية:

١- روى الطبري[(٣)] عن عائشة قالت: رُميت بما رُميت به وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك، قالت: فبينما رسول الله r عندي جالس، إذ أوحي إليه، وكان إذا أوحي إليه أخذه كهيئة السبات، وأنه أُوحي إليه وهو جالس عندي، ثم استوى جالسا يمسح عن وجهه، وقال: ((يا عائشة، أبشري))، قالت: فقلت: بحمد الله لا بحمدك، فقرأ: O f g h i j k N حتى بلغ: O ¶ مِمَّا يَقُولُونَ N))[(٤)].

٢- وأخرج أيضًا عن ابن زيد[(٥)] في قوله: O ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ N قال: ((نزلت في عائشة حين رماها المنافق بالبهتان والفرية، فبرأها الله من ذلك، وكان عبدالله بن أبي هو الخبيث، فكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة

---

(١) أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، المشهور بابن حجر، من أئمة العلم والتاريخ توفي سنة ٨٥٢. الأعلام (١٧٨/١).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٧/٨).

(٣) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، أبو جعفر، الإمام، الحافظ، المقرئ، المفسر، الفقيه، المؤرخ توفي سنة ٣١٠هـ ببغداد. انظر: تاريخ بغداد (١٦٢/٢)، تهذيب الأسماء واللغات (٧٨/١)، سير أعلام النبلاء (٢٦٧/١٤).

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/ ٢٢٧).

(٥) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، العمري، المدني، صاحب قرآن وتفسير، جمع تفسيرًا في مجلد، وكتابًا في الناسخ والمنسوخ، توفي: سنة اثنتين وثمانين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء (٣٤٩/٨).

ويكون لها، وكان رسول الله r طيبا، وكان أولى أن تكون له الطيبة، وكانت عائشة الطيبة، فكانت أولى أن يكون لها الطيب))، وفي قوله: O ¶ ¸ مِمَّا يَقُولُونَN قال: ههنا برئت عائشة))[١].

٣- أخرج الطبراني[٢]: لما خاض الناس في أمر عائشة -فذكر الحديث مختصرا-، وفي آخره: ((فأنزل الله تعالى خمس عشرة آية من سورة النور حتى بلغ Oٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَN))[٣]. وعلق الحافظ ابن حجر على هذه الرواية بقوله: ((وهذا فيه تجوز، وعدة الآي إلى هذا الموضع ست عشرة))[٤].

٤- روى ابن أبي حاتم[٥][٦]، والحاكم[٧] في الإكليل، عن

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/ ٢٣٧)، وانظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١٠/٧١٥)، ولباب النقول في أسباب النزول ص(١٧١).

(٢) هو: الإمام، الحافظ، الثقة، الرحال، الجوال، محدث الإسلام، علم المعمرين، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي، الشامي، الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة. مولده: بمدينة عكا، في شهر صفر، سنة ٢٦٠هـ، وأمه عكاوية. توفي سنة ٣٦٠هـ. سير أعلام النبلاء (٣١/١٣٥).

(٣) المعجم الكبير (٢٣/ ١٦٠). فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٧)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (١٨/ ١١٥)، لباب النقول في أسباب النزول ص(١٧١)، ونقل عن الطبراني أنه قال عن السّند: ((مرسل، صحيح الإسناد)).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٧)، وتصحَّف فيه ((الطبراني)) إلى: ((الطبري))!

(٥) عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن أدريس بن المنذر بن داود بن مهران، أبو محمد التميمي الحنظلي، الإمام ابن الإمام حافظ الري وابن حافظها قال عنه الخليلي: أخذ علم أبيه وأبي زرعة وكان بحرًا في العلوم ومعرفة الرجال، صنّف في الفقه واختلاف الصحابة. توفي سنة ٣٢٧هـ. طبقات المفسرين ص (٥٢).

(٦) تفسير ابن أبي حاتم (٨/٢٥٤٤)، وانظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٨/ ١١٥).

(٧) محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي النيسابوري، الشهير بالحاكم، الإمام، الحافظ، الناقد، أبو عبدالله، كان من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه، وهو صاحب "المستدرك على الصحيحين"، توفي سنة ٤٠٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٦٢)، الأعلام (٦/ ٢٢٧).

سعيد بن جبير[١] مرسلاً: ((فنزلت ثماني عشرة آية متوالية، كَذَّبَتْ من قذف عائشة: O! " # N إلى قوله: Oوَرِزْقٌ كَرِيمٌN)). وعقّب عليها الحافظ ابن حجر بقوله: ((وفيه ما فيه أيضا، وتحرير العدة سبع عشرة))[٢]. أقول: بل تحرير العدة على هذه الرواية: ست عشرة آية، وهو ما ذكره الحافظ ابن حجر نفسه -كما تقدم آنفًا في الرواية السابقة-. وقد ذكر الألوسي أن ((في كتاب العدد للداني ما يوافق المروي عن ابن جبير))[٣].

ففي هذه الروايات: تبدأ الآيات من قوله تعالى: O! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ N وهي الآية رقم (١١) في سورة النور، وتنتهي بالآية: O ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ ¶ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ N وهي الآية رقم (٢٦)، وعدد الآيات على ضوء ذلك: ست عشرة آية.

وأورد هاهنا الآيات الواردة في قصة الإفك -بناءً على أكثر عددٍ ورد في الروايات-:

O! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ A B C D E F G H I J K L M N O P Q R S U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a b c d e f g h i j k l m n o p q r s t u v w x y z { | } ~ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن © بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن ´ µ ¶ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ à ٱللَّهَ â رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ! " # $ % & ' (* + , - . / 0 1 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ A B D E F G H I J K L M N O P

---

(١) سعيد بن جبيرِ بن هشامٍ الوالبيُّ مولاهم، الإمام، الحافظ، المقرئ، المفسر، الشهيد، أبو محمد -ويقال: أبو عبد الله- الأَسدي، الكوفي، أَحَدُ الأعلام. روى عن ابن عباس -فأكثر وجوّد- قتله الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٩٥هـ. سير أعلام النبلاء (٤/٣٢١).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٧).

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٨/ ١١٥).

g f e d c b ` _ ^] \ [Y X V U T S R Q

y x w v u t s r q p o n m l k j i h

z { | } ~ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ © ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ

لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ ¶ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ N.

ثانيًا: الإفك كما ورد في نصوص السنة:

وردت قصة الإفك في مصادر السنة المتنوعة (الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها)، ولما كنت قد التزمت في خطة البحث بجمع ما يتعلق بقصة الإفك من الكتب التسعة (صحيحا: البخاري[١] ومسلم[٢]، وسنن: أبي داود[٣] والترمذي[٤] والنسائي[٥] وابن ماجه[٦]، ومسند الإمام أحمد[٧]، وموطأ الإمام

---

(١) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، البخاري، أبو عبدالله، صاحب الصحيح الذي هو أصح كتاب بعد كتاب الله، توفي سنة٢٥٦هـ. انظر: تاريخ بغداد (٢/٤)، تذكرة الحفاظ (٢/١٠٤)، تهذيب التهذيب (٩/ ٤١).

(٢) مسلم بن الحجاج بن مسلم، القشيري، أبو الحسين، إمام أهل الحديث، وصاحب الصحيح المعروف بصحيح مسلم، توفي سنة ٢٦١ هـ. انظر: تاريخ بغداد (١٣/١٠٠)، وفيات الأعيان (٥/ ١٩٤).

(٣) سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير، الأزدي السجستاني، أبو داود، الإمام الثبت سيد الحفاظ توفي سنة٢٧٥هـ. انظر: تذكرة الحفاظ (٢/١٢٥)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٤).

(٤) محمد بن عيسى بن سورة بن موسى، الترمذي، أبو عيسى، الإمام الحافظ العلم، صاحب السنن المسماة بسنن الترمذي. توفي سنة ٢٩٧هـ بترمذ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٣/٢٧٠)، تهذيب التهذيب (٩/ ٣٤٤).

(٥) أحمد بن شعيب بن علي، النسائي، أبو عبد الرحمن، الإمام الحافظ الثبت شيخ الإسلام ناقد الحديث، صاحب السنن، توفي سنة٣٠٣هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/١٢٥)، تذكرة الحفاظ (٢/ ١٩٤).

(٦) محمد بن يزيد بن ماجه، القزويني الربعي، أبو عبد الله، الحافظ الكبير المفسر، صاحب السنن والتفسير والتاريخ ومحدث تلك الديار، توفي سنة ٢٧٣هـ. انظر: تذكرة الحفاظ (٢/١٥٥)، سير أعلام النبلاء (١٣/٢٧٧).

(٧) أحمد بن حنبل الشيباني، أبو عبدالله، جبل السنّة، وأحد الأئمة الأربعة المجمع على إمامتهم =

مالك، وسنن الدارمي[(١)]؛ فإنه يحسن هنا أن أنبِّه إلى أنه لم يروِ حديثَ (حادثة الإفك) من أصحاب الكتب التسعة إلا: الإمام البخاريّ، ومسلم، وأبو داود -طرفًا منه-، والإمام أحمد. ولم أجد له ذِكرًا فيما سوى ذلك من الكتب التسعة، اللهم إلا سنن الترمذي من رواية غير الزهرِّي؛ فقد أخرج طرفًا من الحديث عن: هشام بن عروة[(٢)]، عن أبيه[(٣)]، عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-.

وهذا هو سياق رواية حادثة الإفك:

=

وعدالتهم. توفي سنة ٢٤١هـ. انظر: طبقات الحنابلة (٣/١)، سير أعلام النبلاء (١٧٧/١١)، تهذيب التهذيب (٦٢/١).

(١) عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي، أبو محمد الحافظ، صاحب المسند، ثقة فاضل سنة٢٥٥هـ. تقريب التهذيب ص (٣١١).

(٢) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، القرشي الأسدي الزبيري المدني، أبو المنذر، الإمام الثقة شيخ الإسلام، ولد سنة ٦١ هـ، وتوفي سنة١٤٦هـ. سير أعلام النبلاء (٣٤/٦).

(٣) عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي المدني، أبو عبد الله، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، وكان عالمًا بالسيرة حافظًا ثبتًا صالحًا. توفي سنة ٩٤هـ. انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٢٥٥)، سير أعلام النبلاء (٤٢١/٤)، تهذيب التهذيب (٧/ ١٦٣).

قال الإمام مسلم بن الحَجَّاج -رحمه الله- في صحيحه (٢٧٧٠):

حدثنا حبان بن موسى[١]، أخبرنا عبد الله بن المبارك[٢]، أخبرنا يونس بن يزيد الأيلي[٣]. ح: وحدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي[٤] ومحمد بن رافع[٥] وعبد بن حميد[٦]. قال ابن رافع: حدثنا، وقال الآخران: أخبرنا عبد الرزاق[٧]، أخبرنا معمر[٨] -والسياق حديث معمر من رواية عبد وابن رافع-. قال يونس ومعمر جميعًا: عن الزهري: أخبرني سعيد بن المسيب[٩]، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن

---

(١) حبان بن موسى بن سوار، السلمي المروزي الكشميهني، أبو محمد، توفي سنة ٢٣٣هـ. تهذيب التهذيب (٢/ ١٥٢).

(٢) عبد الله بن المبارك بن واضح، الحنظلي -مولاهم- التركي ثم المروزي، أبو عبد الرحمن، الإمام الحافظ الغازي أحد الأعلام، شيخ الإسلام وعالم زمانه وأمير الأتقياء في وقته، ولد سنة ١١٨هـ وتوفي سنة١٨١ هـ. سير أعلام النبلاء (٨/٣٧٨).

(٣) يونس بن يزيد ابن أبي النجاد، الأيلي، أبو يزيد، مولى معاوية بن أبي سفيان الأموي، الإمام الثقة المحدث. توفي سنة ١٥٩هـ على الصحيح. انظر سير أعلام النبلاء (٦/٢٩٧)، تقريب التهذيب ص(٦١٤).

(٤) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه، الحنظلي المروزي، أبو محمد، ثقة حافظ مجتهد، قرين أحمد بن حنبل، مات سنة ٢٣٨هـ. تقريب التهذيب ص (٩٩).

(٥) محمد بن رافع بن أبي زيد (سابور)، القشيري مولاهم النيسابوري، أبو عبد الله، الإمام الحافظ الحجة القدوة، بقية الأعلام، توفي سنة ٢٤٥ هـ. سير أعلام النبلاء (١٢/٢١٤).

(٦) عبد بن حميد بن نصر، يقال: اسمه عبد الحميد، الكَسّي -ويقال له: الكَشّي-، أبو محمد، الإمام الحافظ الحجة الجوال، توفي سنة ٢٤٩هـ. سير أعلام النبلاء (١٢/٢٣٥).

(٧) عبد الرزاق بن همام بن نافع، الحميري -مولاهم- الصنعاني، أبو بكر، ثقة حافظ شهير، عمي في آخر عمره. توفي سنة ٢١١هـ. تهذيب التهذيب (٦/٢٧٨)، تقريب التهذيب ص(٣٥٤).

(٨) معمر بن راشد الأزدي، الحداني البصري، أبو عروة، نزيل اليمن، ثقة ثبت، توفي سنة ١٤٥هـ. تهذيب الكمال (٢٨/٣٠٣)، تهذيب التهذيب (١٠/ ٢١٨).

(٩) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة، القرشي المخزومي، أبو محمد، الإمام العلم، عالم من أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه، توفي سنة ٩٣هـ. سير أعلام النبلاء (٤/٢١٧).

وقاص[١] [الليثي][٢]، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود[٣]، عن حديث عائشة زوج النبي r حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا.

[قال الزهري][٤]: وكلّهم[٥] حدثني [بـ][٦]ـطائفة من حديثها [الذي حدَّثني][٧]، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض، وأثبت [له][٨] اقتصاصًا، وقد وعيت عن كل واحد[٩] منهم الحديث الذي حدثني [عن عائشة][١٠]، وبعض حديثهم يصدق بعضًا، [وإن كان بعضهم أوعى له من بعض][١١]؛ ذكروا[١٢] أن عائشة زوج النبي r قالت:

كان رسول الله r إذا أراد أن يخرج سفرًا؛ أقرع بين نسائه[١٣]؛ فأيتهن [يـ][١٤]ـخرج سهمها خرج بها رسول الله r معه، [وَكَانَ يَقْسِمُ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ يَوْمَهَا

---

(١) علقمة بن وقاص بن محصن بن كلدة، الليثي العتواري المدني، أحد العلماء، حدث عن عمر وعائشة وبلال بن الحارث المزني وعمرو بن العاص وابن عمر y، له أحاديث ليست بالكثيرة، وثّقه ابن سعد والنسائي، توفي في دولة عبدالملك بن مروان. سير أعلام النبلاء (٤/٦١).

(٢) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(٣) عبيدالله بن عبد الله بن عتبة، الهذلي المدني، أبو عبد الله، الأعمى، الإمام الفقيه، مفتي المدينة وعالمها، وأحد الفقهاء السبعة، جده عتبة هو أخو عبد الله بن مسعود t، ولد في خلافة عمر أو بعيدها، وتوفي سنة ٩٤، وقيل ٩٨، وقيل غير ذلك. سير أعلام النبلاء (٤/٤٧٥).

(٤) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(٥) في صحيح البخاري (٤٧٥٠، ٦٦٦٢، ٧٥٠٠، ٧٥٤٥): وكلٌّ.

(٦) مسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٤).

(٧) صحيح البخاري (٧٥٠٠).

(٨) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١)، ومسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٧).

(٩) في صحيح البخاري (٤١٤١)، ومسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٧): رجل.

(١٠) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١)، ومسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٧).

(١١) صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠)، ومسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٧).

(١٢) في صحيح البخاري (٢٦٦١): زعموا، وفي (٤١٤١) ومسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٧): قالوا.

(١٣) في صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠)، ومسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٧): أزواجه.

(١٤) صحيح البخاري (٢٨٧٩).

وَلَيْلَتَهَا، غَيْرَ أَنَّ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ وَهَبَتْ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ r ؛ تَبْتَغِي بِذَلِكَ رضى رَسُولِ اللَّهِ r][١].

قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة[٢] غزاها[٣]؛ فخرج فيها سهمي؛ فخرجت مع رسول الله r ، وذلك بعد ما أنزل الحجاب[٤]، فأنا[٥] أحمل في هَوْدَجي[٦] وأنزل فيه مسيرنا[٧]، حتى إذا فرغ رسول الله r من غزو[ته تلك][٨] وقفل[٩]، ودنونا من المدينة [قافلين][١٠]، آذن[١١] ليلة بالرحيل؛ فقمت حين آذنوا بالرحيل؛ فمشيت حتى جاوزت

---

(١) صحيح البخاري (٢٥٩٣، ٢٦٨٨).

(٢) في صحيح البخاري (٢٦٦١): غزاة. وهي غزوة بني المصطلق، وصرح بذلك محمد بن إسحاق في روايته، وكذا أفلح بن عبد الله عند الطبراني، وعنده في رواية أبي أويس: فخرج سهم عائشة في غزوة بني المصطلق من خزاعة، وعند البزار من حديث أبي هريرة: فأصابت عائشة القرعة في غزوة بني المصطلق. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٥٨).

(٣) بوَّب الإمام البخاري في صحيحه (٧/٤٢٨ – مع فتح الباري-): باب غزوة بني المصطلق من خزاعة وهى غزوة المريسيع... وقال النعمان بن راشد عن الزهرى: كان حديث الإفك في غزوة المريسيع.

(٤) أي: بعد ما نزل الأمر بالحجاب، والمراد: حجاب النساء عن رؤية الرجال لهن، وكن قبل ذلك لا يمنعن. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٥٨).

(٥) في صحيح البخاري (٤١٤١): فكنت.

(٦) الهودج: مركب من مراكب النساء، له قبّة تستر بالثياب ونحوها ليكون أستر لهنَّ، يوضع على ظهر البعير. انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/١٠٤)، فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٥٨).

(٧) في صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠): فسِرْنا.

(٨) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠)، وفي صحيح مسلم: غزوه.

(٩) أي: رجع من غزوته. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٥٨).

(١٠) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠).

(١١) بمعنى: أعلم بالرحيل. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٥٨).

الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل[١]؛ فلمست صدري فإذا عقدي[٢] من جَزْع[٣] ظَفَارِ[٤] قد انقطع! فرجعت فالتمست عقدي؛ فحبسني[٥] ابتغاؤه، وأقبل الرهط[٦] الذين كانوا يرحلون لي؛ فحملوا[٧] هودجي؛ فرحلوه على بعيري الذي كنت أركبه[٨]، وهم يحسبون أني فيه! قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافًا؛ لم يُهَبَّلن[٩] ولم يغشهن[١٠] اللحم؛ إنما يأكلن العُلْقة[١١] من الطعام! فلم يستنكر القوم ثقل[١٢] الهودج حين رحلوه ورفعوه[١٣]؛ [فاحتملوه][١٤]، وكنت جارية حديثة السن؛ فبعثوا[١٥] الجمل وساروا،

(١) في صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠): رحلي.

(٢) في صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠): عقد لي، وفي مسند الإمام أحمد (١٩٤/٦): عقد.

(٣) الجَزْع: الخَرَزُ اليَماني، الواحدة جَزْعة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٦٩/١)، والمنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٠٤/١٧).

(٤) في صحيح البخاري (٢٦٦١): أظفار. و(ظَفَارِ): قرية في اليمن، وهي مبنية على الكسر. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٥٨)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٠٤/١٧).

(٥) في مسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٤): فاحتبسني.

(٦) هو: عدد من ثلاثة إلى عشرة، وقيل غير ذلك. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٥٩/٨).

(٧) في صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠): فاحتملوا.

(٨) في صحيح البخاري (٤١٤١): أركب عليه، وفي (٤٧٥٠): ركبتُ.

(٩) في صحيح البخاري (٢٦٦١): يثقلن، وفي (٤٧٥٠): يثقلهن، وفي مسند الإمام أحمد (١٩٤/٦، ١٩٧، ١٩٨): يهبلهن. ومعنى (لم يُهَبَّلن): لم يكثر عليهن اللحم. النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٣٩/٥).

(١٠) أي: لم يغط اللحم بعضه بعضا. مختار الصحاح ص (٤٧٥، ٦٨٩).

(١١) أي: القليل. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٠٤/١٧).

(١٢) في صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠): خفة.

(١٣) في صحيح البخاري (٤١٤١): رفعوه وحملوه.

(١٤) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(١٥) أي: أثاروه. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٦٠/٨).

ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش؛ فجئت منازلهم وليس بها [منهم][١] داع ولا مجيب[٢]! فتيممت[٣] منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إليَّ! فبينا أنا جالسة في منزلي؛ غلبتني عيني[٤] فنمت! وكان صفوان بن المعطل -السلمي ثم الذكواني[٥]- قد عرس[٦] من وراء الجيش؛ فأدلج[٧] فأصبح عند منزلي؛ فرأى سواد إنسان نائم؛ فأتاني فعرفني حين رآني -وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب عليَّ-؛ فاستيقظتُ باسترجاعه[٨] حين عرفني[٩]؛ فخمرت وجهي[١٠] بجلبابي، ووالله ما يكلمني[١١][١٢] كلمة،

---

(١) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٢) في صحيح البخاري (٢٦٦١): وليس فيه أحد.

(٣) في صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠): فأممت، وفي مسند الإمام أحمد (٦/١٩٤، ١٩٧): فيممت. ومعنى (فتيممت): قَصَدْتُ. النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/٢٩٩)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/١٠٥).

(٤) في صحيح البخاري (٢٦٦١): عيناي.

(٥) صفوان بن المعطل بن رحضة بن المؤمل، السلمي ثم الذكواني، أبو عمرو، سكن المدينة وشهد الخندق والمشاهد -في قول الواقدي-، ويقال: أول مشاهده المريسيع، قتل في غزوة أرمينية شهيدا سنة تسع عشرة في خلافة عمر بن الخطاب. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٧٢٥)، أسد الغابة (٣/ ٣١)، سير أعلام النبلاء (٢/٥٤٥)، الإصابة في تمييز الصحابة (٣/٤٤٠).

(٦) التعريس: النزول آخر الليل في السفر لنوم أو استراحة. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/١٠٥).

(٧) هو سير آخر الليل. المصدر السابق (١٧/١٠٥).

(٨) أي: انتبهت من نومي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون. المصدر السابق (١٧/١٠٥).

(٩) في صحيح البخاري (٢٦٦١): حين أناخ راحلته.

(١٠) أي: غطيته. النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٧٧).

(١١) قال ابن حجر: «عبرت بهذه الصيغة إشارة إلى أنه استمر منه ترك المخاطبة لئلا يفهم لو عبرت بصيغة الماضي اختصاص النفي بحال الاستيقاظ، فعبرت بصيغة المضارعة». فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٦٣).

(١٢) في صحيح البخاري (٤١٤١): تكلمنا بـــ، وفي (٤٧٥٠) ومسند الإمام أحمد (٦/١٩٤): كلمني.

ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه! [وهوى][١] حتى أناخ راحلته؛ فوطىء على يد[يــ][٢]ــها؛ [فقمت إليها][٣] فركبتها؛ فانطلق يقود بي الراحلة؛ حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين[٤][٥] في نحر الظهيرة[٦]، [وهم نزول. قالت][٧]: فهلك من هلك في شأني[٨]. وكان الذي تولى كبر [الإفك][٩]: عبدالله بن أبي بن سلول.

[قال عروة: أُخبِرْتُ أنه كان يُشَاعُ وَيُتَحدث به عنده؛ فَيُقِرُّه ويستمعه ويستوشيه[١٠].

وقال عروة أيضا: لم يسم من أهل الإفك أيضا إلا حسان بن ثابت[١١]، ومسطح بن

---

(١) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٢) صحيح البخاري (٤٧٥٠).

(٣) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٤) الموغر: النازل في وقت الوَغْرة، وهي شدة الحر. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٠٥/١٧).

(٥) في رواية أخرى لمسلم: موعرين -بالعين المهملة-، وفي صحيح البخاري (٢٦٦١): مُعَرِّسين.

(٦) نحر الظهيرة: أولها، وهو وقت شدة الحر. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٦٤/٨).

(٧) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٨) في صحيح البخاري (٤١٤١): فهلك فيَّ مَن هلكَ.

(٩) صحيح البخاري (٤١٤١). وفي (٤٧٥٠): تولى الإفك، وفي صحيح مسلم: تولى كبره.

(١٠) أي يستخرج الحديث بالبحث عنه. لسان العرب (٣٩٢/١٥).

(١١) حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام، الأنصاري الخزرجي ثم النجاري، يكنى أبا الوليد وهي الأشهر، شاعر رسول الله r ، وهو الذي قال له النبي r كما في الصحيحين: "اهجهم أو هاجهم وجبريل معك"، عاش مائة وعشرين سنة، ستون في الجاهليّة، وستون في الإسلام، مات سنة ٤٠، وقيل ٥٠، وقيل ٥٤ هــ. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣٤١/١)، أسد الغابة (٢/ ٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥١٢)، الإصابة في تمييز الصحابة (٦٢/٢).

أثاثة[١]، وحمنة بنت جحش[٢]، في ناس آخرين، لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة -كما قال الله تعالى-، وإن كبر ذلك يقال عبدالله بن أبي ابن سلول.

قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان؛ وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالده وعرضي * * * لعرض محمد منكم وقاء][٣].

[قالت عائشة][٤]: فقدمنا[٥] المدينة؛ فاشتكيت حين قدمنا المدينة[٦] شهرًا، والناس يفيضون في[٧][٨] قول أهل[٩] الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك! وهو يَرِيبني[١٠] في وجعي أني لا أعرف من رسول الله[١١] r اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي[١٢]! إنما يدخل [عليَّ][١٣] رسول الله r فيسلم ثم يقول: "كيف

---

(١) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، كان اسمه عوفًا، وأما مسطح فهو لقبه، وأمه بنت خالة أبي بكر، أسلمت وأسلم أبوها قديما، وكان أبو بكر يمونه لقرابته، مات سنة أربع وثلاثين في خلافة عثمان، ويقال: عاش إلى خلافة علي وشهد معه صفين، مات سنة سبع وثلاثين. انظر: أسد الغابة (٥/ ١٥٠)، سير أعلام النبلاء (١/١٨٧)، الإصابة في تمييز الصحابة (٦/٩٣).

(٢) حمنة بنت جحش الأسدية، أخت أم المؤمنين زينب، وكانت زوج مصعب بن عمير فقتل عنها يوم أحد فتزوجها طلحة بن عبيد الله، كانت من المبايعات، وشهدت أحدا، فكانت تسقي العطشى وتحمل الجرحى وتداويهم. انظر: أسد الغابة (٧/ ٧١)، الإصابة في تمييز الصحابة (٧/٥٨٦).

(٣) صحيح البخاري (٤١٤١)، ومسند الإمام أحمد (٦/١٩٧).

(٤) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٥) في مسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٤): فقدمتُ.

(٦) في صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠): حين قدمتُ.

(٧) أي: يخوضون فيه. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/١٠٦).

(٨) في صحيح البخاري (٢٦٦١): من.

(٩) في صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠): أصحاب.

(١٠) يقال: رابه وأرابه إذا أوهمه وشككه. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/١٠٦).

(١١) في صحيح البخاري (٢٦٦١): لا أرى من النبي.

(١٢) في صحيح البخاري (٢٦٦١): أمرض.

(١٣) صحيح البخاري (٤١٤١).

تيكم[١]؟"، [ثم ينصرف][٢]! فذاك[٣] [الذي][٤] يريبني! ولا أشعر بالشر[٥]!

حتى خرجت بعدما[٦] نقهت[٧]، وخرجت معي أم مسطح[٨] قبل المناصع[٩] -وهو متبرزنا-، و[كنا][١٠] لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف[١١] قريبًا من بيوتنا. [قالت][١٢]: وأمرنا أمر العرب الأول في [البرية أو في][١٣]

---

(١) تيكم: إشارة إلى المؤنثة. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/١٠٦).

(٢) صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠).

(٣) في صحيح البخاري (٤١٤١): فذلك.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٥٠).

(٥) في صحيح البخاري (٢٦٦١): بشيءٍ من ذلك.

(٦) في صحيح البخاري (٤١٤١): حين.

(٧) نَقِه المريض ونَقَه: برأ وأفاق وكان قريب العهد بالمرض، ولم يرجع إليه كمال صحته وقوته. النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/١١٠)، والقاموس المحيط ص(١٦١٩)، ومختار الصحاح ص (٦٨٨).

(٨) سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، وهي ابنة خالة أبي بكر الصديق، وقيل أم مسطح: اسمها ريطة بنت صخر بن عامر بن سعد بن تيم. وقال ابن حجر: رائطة. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ١٢٢٤) و(٤/ ١٤٧٢)، وطبقات ابن سعد (٨/٢٢٨) و(٥٣/١٦٩)، وأسد الغابة (٤/ ٢٩٦) و(٧/ ٣٨٣)، وفتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٦٥).

(٩) هي المَواضع التي يُتَخَلَّى فيها لِقضاء الحاجةِ، واحدُها: مَنْصَع، لأنه يُبْرَزُ إليها ويُظْهر، وهي مواضع خارج المدينة. النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/٦٤)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/١٠٦).

(١٠) صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠).

(١١) الكُنُف: جمع كنيف، وهو الساتر، والمراد به هنا: المكان المتخذ لقضاء الحاجة. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٦٥).

(١٢) صحيح البخاري (٤١٤١).

(١٣) صحيح البخاري (٢٦٦١). وفي مسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٨): في البرية.

التنزه[١][٢]، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا!

[قالت][٣]: فانطلقت[٤] أنا وأم مسطح -وهى: بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها: ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها: مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب-؛ فأقبلتُ أنا وبنت أبي رهم[٥] قبل بيتي حين[٦] فرغنا من شأننا [نمشي][٧]؛ فعثرت أم مسطح في مِرْطها[٨]؛ فقالت: تَعِس[٩] مسطح! فقلت لها: بئس ما قلتِ! أتسبين رجلا قد شهد بدرًا؟! [فـ][١٠]ـقالت: أي[١١] هنتاه[١٢]؛ أو لم تسمعي ما قالـ[ـوا][١٣]؟! [قالت][١٤]: [و][١٥]قلت: وماذا قال؟! قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك! [قالت][١٦]:

(١) التّنَزه: طلب النزاهة، والمراد: البعد عن البيوت. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٤٦٥).

(٢) في صحيح البخاري (٤١٤١): في البرية قبل الغائط، وفي (٤٧٥٠): في التبرز قبل الغائط.

(٣) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٤) في صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٠٢٥): فأقبلتُ.

(٥) في صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠): أنا وأم مسطح.

(٦) في صحيح البخاري (٤٧٥٠): قد.

(٧) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(٨) المرط: كساء من صوف وقد يكون من غيره. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٠٧/١٧).

(٩) تَعِس: أي عثر فسقط على وجهه، وقيل معناه: بَعُد، وقيل: هلك أو لزمه الشر. هدي الساري مقدمة فتح الباري (ص ٩٣).

(١٠) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١).

(١١) في صحيح البخاري (٢٦٦١): يا.

(١٢) هذه اللفظة تختص بالنداء، ومعناها: يا هذه، وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء -كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم-. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٠٧/١٧).

(١٣) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(١٤) صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠).

(١٥) صحيح البخاري (٤١٤١).

(١٦) صحيح البخاري (٤١٤١).

فازددتُ مرضًا إلى[١] مرضي! فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله r فسلَّم[٢]، ثم قال: "كيف تيكم؟"؛ [فـ]ـ[٣]ـقلت [له][٤]: أتأذن لي أن آتي أبويَّ[٥] ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن[٦] الخبر من قبلهما! [قالت][٧]: فأذن لي رسول الله r ؛ فجئت[٨] أبوي؛ فقلت لأمي؛ يا أمتاه ما[ذا][٩] يتحدث [به][١٠] الناس؟ فقالت: يا[١١] بنية؛ هوني عليك[١٢] [الشأن][١٣]! فوالله؛ لقلما كانت امرأة قط وضيئة[١٤] عند رجل يحبها ولها ضرائر[١٥] إلا [أ][١٦]كثرن عليها! قالت: [فـ]ـ[١٧]ـقلت: سبحان الله!

---

(١) في صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠): على.

(٢) في صحيح البخاري (٤٧٥٠): تعني: فسلَّمَ.

(٣) صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠).

(٤) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٥) في صحيح البخاري (٢٦٦١): ائذن لي إلى أبويَّ.

(٦) في صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠): أستيقن.

(٧) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٨) في صحيح البخاري (٢٦٦١): فأتيتُ.

(٩) صحيح البخاري (٤١٤١).

(١٠) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(١١) في مسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٤): أي.

(١٢) في صحيح البخاري (٢٦٦١): على نفسكِ.

(١٣) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(١٤) الوضاءة: الحسن والبهجة، أي: حسنة جميلة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٩٤)، وفتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٦٧).

(١٥) جمع ضرة، هن: زوجات الرجل؛ لأن كل واحدة تتضرر بالأخرى بالغيرة والقسم وغيره. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/١٠٦).

(١٦) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(١٧) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠).

[أ][١]و[لـ][٢]ـقد [يـ][٣]ـتحدث الناس بهذا ؟! قالت: فبكيت[٤] تلك الليلة؛ حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع[٥]، ولا أكتحل بنوم[٦]، ثم[٧] أصبحت أبكي!

[قالت][٨]: ودعا رسول الله r علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد[٩] -حين استلبث[١٠] الوحي-؛ [يسألهما وهو][١١] يستشيرهما[١٢] في فراق أهله! قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله r بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال [أسامة][١٣]: يا رسول الله؛ هم أهلك، ولا نعلم [والله][١٤] إلا خيرًا. وأما علي بن أبي طالب فقال: [يا رسول الله][١٥] لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير! وإن

---

(١) صحيح البخاري (٤١٤١)، ومسند الإمام أحمد (١٩٤/٦).

(٢) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠).

(٣) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(٤) في صحيح البخاري (٢٦٦١): فبِتُّ.

(٥) لا يرقأ لي دمع: أي لاينقطع. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٠٨/١٧).

(٦) لا أكتحل بنوم استعارة للسهر، أي لا أنام. انظر المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٠٨/١٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٦٧/٨).

(٧) في صحيح البخاري (٤٧٥٠): حتى.

(٨) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٩) أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل، المولى الأمير الكبير الحبُّ ابن الحب، صحابي جليل، مات في المدينة سنة ٥٤هـ. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٧٥/١)، الإصابة في تمييز الصحابة (٥٣/٨).

(١٠) أي: أبطأ ولبث ولم يتزل. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٠٨/١٧).

(١١) صحيح البخاري (٧٣٦٩). وفي (٤١٤١): يسألهما و، وفي مسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٤): لـ.

(١٢) في صحيح البخاري (٢٦٣٧، ٤٧٥٠): يستأمرهما.

(١٣) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(١٤) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(١٥) صحيح البخاري (٢٦٦١).

تسأل[١] الجارية تصدقك.

قالت: فدعا رسول الله r بريرة[٢]؛ فقال: "أي[٣] بريرة؛ هل رأيتِ من شيء يريبك[٤] من عائشة؟"[٥]؛ قالت له بريرة: [لا][٦] - والذي بعثك بالحق-! إن[٧] رأيت عليها[٨] أمرًا قط[٩] أغمصه[١٠] عليها أكثر من أنها[١١] جارية حديثة[١٢] السن؛ تنام عن عجين أهلها[١٣]؛ فتأتي الداجن[١٤] فتأكله!

قالت: فقام رسول الله r [من يومه][١٥] على المنبر؛

---

(١) في صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٧٣٦٩): وسَل.

(٢) بريرة: مولاة عائشة بِنْت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، وكانت مولاة لبعض بني هلال. وقيل: كانت مولاة لأبي أحمد بن جحش. وقيل: كانت مولاة أناس من الأنصار، فكاتبوها ثم باعوها من عائشة، فأعتقتها، واسم زوجها مغيث وكان مولى فخيرها رسول الله r فاختارت فراقه. انظر: أسد الغابة (٧/ ٣٧)، الإصابة في تمييز الصحابة (٥٣٥/٧).

(٣) في صحيح البخاري (٢٦٦١): يا.

(٤) الريب: بمعنى الشَّكّ. النهاية في غريب الحديث والأثر: (٢/ ٢٨٦).

(٥) في صحيح البخاري (٤١٤١): هل رأيتِ فيها شيئًا يريبك، وفي (٤٧٥٠): هل رأيتِ عليها من شيء يريبك.

(٦) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠).

(٧) في صحيح البخاري (٤١٤١): ما.

(٨) في صحيح البخاري (٢٦٦١): منها.

(٩) في صحيح البخاري (٧٣٦٩): ما رأيتُ أمرًا.

(١٠) أي: أعيبها به وأطعن به عليها. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٨٦/٣).

(١١) في صحيح البخاري (٤١٤١): غير أنها.

(١٢) أي: صغيرة السن. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٦٠/٨).

(١٣) في صحيح البخاري (٢٦٦١): العجين.

(١٤) هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم، وقد يقع على غير الشاة من كل ما يألف البيوت من الطير وغيرها، النهاية في غريب الحديث والأثر (١٠٢/٢).

(١٥) صحيح البخاري (٢٦٦١).

فاستعذر[١] [يومئذ][٢] من عبدالله بن أبي بن سلول؛ [فـ][٣]ـقالت: فقال رسول الله r -وهو على المنبر-: يا معشر المسلمين؛ مَن يعذرني[٤] من رجل قد بلغـ[ـني][٥] [عنه] أذاه[٦] في أهل بيتي[٧]؟ فوالله[٨] ما علمت على[٩] أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي!

[قالت][١٠]: فقام سعد بن معاذ[١١] الأنصاري [أخو بني عبد الأشهل][١٢] فقال: أنا [والله][١٣] أعذرك منه -يا رسول الله-! [فـ][١٤]ـإن كان من الأوس ضربنا[١٥] عنقه،

---

(١) أي: أنه قال: من يعذرني فيمن آذاني في أهلي. كما بينه في هذا الحديث، ومعنى (من يعذرني): من يقوم بعذري إن كافأته على قبيح فعاله ولا يلومني، وقيل معناه: من ينصرني. انظر المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/١٠٩).

(٢) صحيح البخاري (٤٧٥٠).

(٣) مسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٤).

(٤) في صحيح البخاري (٢٦٣٧): يعذرنا.

(٥) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٢٦٣٧، ٤١٤١، ٤٧٥٠، ٧٣٦٩)، ومسند الإمام أحمد (٦/١٩٤).

(٦) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٧) في صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٧٣٦٩): في أهلي.

(٨) في صحيح البخاري (٤١٤١، ٧٣٦٩): واللهِ.

(٩) في صحيح البخاري (٢٦٣٧): مِن.

(١٠) صحيح البخاري (٤١٤١).

(١١) سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، الأنصاري، سيد الأوس، شهد بدرًا باتفاق، ورمي بسهم يوم الخندق فعاش بعد ذلك شهرًا حتى حكم في بني قريظة، توفي سنة ٥ هـ. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/٦٠٢) ، الإصابة في تمييز الصحابة (٣/٨٤).

(١٢) صحيح البخاري (٤١٤١).

(١٣) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(١٤) صحيح البخاري (٤١٤١).

(١٥) في صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠): ضربتُ.

وإن كان [من][1] إخواننا [من][2] الخزرج أمرتنا ففعلنا [فيه][3] أمرك!

قالت: فقام [رجل من الخزرج -وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه-، وهو] سعد بن عبادة[4]، وهو سيد الخزرج. [قالت][5]: وكان [قبل ذلك][6] رجلا صالحا[7]، ولكن اجتهلته[8] الحمية[9]! فقال لسعد بن معاذ: كذبت -لعَمْرُ[10] الله-! لا تقتله، ولا تقدر على قتله! [وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ[11] مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ][12]! فقام أسيد بن حضير[13] -وهو ابن عم سعد بن معاذ- فقال لسعد بن عبادة: كذبت -لعمر الله-! [والله][14]

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠)، مسند الإمام أحمد (١٩٤/٦).

(٢) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠)، مسند الإمام أحمد (١٩٤/٦).

(٣) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(٤) سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة، الأنصاري الخزرجي، ممن شهد العقبتين وكان أحد النقباء، مات سنة ١٥ هـ وقيل هـ ١٦. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٥٩٤/٢)، والإصابة في تمييز الصحابة (٦٥/٣).

(٥) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٦) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠)، مسند الإمام أحمد (١٩٧/٦).

(٧) أي: كامل الصلاح. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٢/٨).

(٨) في صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠)، ورواية أخرى لمسلم، ومسند الإمام أحمد (١٩٧/٦): احتملته.

(٩) حَمَلَتْه الأَنَفَة والغضب على الجهل. النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٢٢).

(١٠) العمر: هو البقاء، وهو العُمُر، لكن لا يستعمل في القسم إلا بالفتح. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٢/٨).

(١١) الرَّهط: العدد من الثلاثة إلى عشرة. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٥٩/٨).

(١٢) صحيح البخاري (٤١٤١).

(١٣) أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك، الأوسي الأنصاري، شهد العقبة الثانية والمشاهد كلها إلا بدرًا فاختلف في شهودها توفي سنة ٢٠هـ وقيل: ٢١هـ. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٩٢/١)، الإصابة في تمييز الصحابة (٨٣/١).

(١٤) صحيح البخاري (٢٦٦١).

لنقتلنه! فإنك منافق تجادل عن المنافقين! [قالت][١]: فثار[٢][٣] الحيان الأوس[٤] والخزرج[٥]؛ حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله r قائم على المنبر! [قالت][٦]: فلم يزل رسول الله r يخفضهم[٧][٨]؛ حتى سكتوا وسكتَ!

قالت: وبكيت[٩] يومي ذلك [كلّه][١٠]؛ لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم! ثم بكيت ليلتي المقبلة؛ لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم! وأبواي يظنان أن البكاء فالق[١١] كبدي[١٢]!

---

(١) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٢) أي: تناهضوا للنزاع والعصبية. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/١١٠).

(٣) في صحيح البخاري (٤٧٥٠): فتثاورَ.

(٤) بنو الأوس بن حارثة بن تغلب بن مزيقيا، وهم أحد قبيلتي الأنصار، وكان لهم ملك يثرب، نزلوها عند خروجهم من اليمن وجاء الإسلام وهم بها فكانوا أنصارًا للنبي r . انظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (١/٣٣).

(٥) بنو الخزرج: بطن من مزيقيا من الأزد، غلب عليهم اسم أبيهم فقيل لهم: الخزرج، وهؤلاء هم المراد بالخزرج عند الإطلاق، وهم إحدى قبيلتي الأنصار إخوة الأوس، ويقال لكليهما بنو قيلة. انظر: المصدر السابق (١/١٩).

(٦) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٧) أي: يُسكِّنهم ويُهَوِّن عليهم الأمر، مِن الخَفْض: الدَّعة والسُّكون. النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٥٤).

(٨) في صحيح البخاري (٢٦٦١): فنزلَ فخفضهم.

(٩) في صحيح البخاري (٤٧٥٠): فمكثتُ.

(١٠) صحيح البخاري (٤١٤١).

(١١) الفَلْق: الشق. انظر: لسان العرب (١٠/٣٠٩).

(١٢) وفي رواية أخرى للبخاري (٢٦٦١): [قالت]: فأصبح عندي أبواي ، قد بكيت ليلتين ويومًا [لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم]، حتى [إني لــ] أظن (وفي رواية: يظنان) أَن البكاء فالقٌ كبدي. والزيادة الأولى والثانية له برقم (٤١٤١، ٤٧٥٠)، والثالثة برقم (٤١٤١)، والرواية الرابعة برقم (٤٧٥٠).

[قالت][١]: فبينما هما[٢] جالسان عندي وأنا أبكي؛ [إذ][٣] استأذنت [علي][٤] امرأة [من][٥] الأنصار[٦]؛ فأذنت لها؛ فجلست تبكي [معي][٧]!

قالت: فبينا نحن على ذلك؛ [إذ][٨] دخل علينا رسول الله r ؛ فسلَّمَ، ثم جلس.

قالت: و لم يجلس عندي منذ[٩] قيل لي[١٠] ما قيل [قبلها][١١]، وقد لبث[١٢] شهرًا لا يُوحَى إليه في شأني بشيء[١٣]!

قالت: فتشهد رسول الله r حين جلس، ثم قال: "أما بعد؛ يا عائشة؛ فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا[١٤]، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كنتِ ألممت[١٥] بذنب؛ فاستغفري الله وتوبي[١٦] إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبـ[ـه][١٧] ثم تاب؛ تاب الله

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠)، مسند الإمام أحمد (١٩٤/٦).

(٢) في صحيح البخاري (٤١٤١): أبوايَ.

(٣) في صحيح البخاري (٢٦٦١)، وفي (٤١٤١، ٤٧٥٠): فـ.

(٤) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠)، مسند الإمام أحمد (١٩٤/٦).

(٥) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠)، مسند الإمام أحمد (١٩٤/٦).

(٦) قال ابن حجر: ((لم أقف على اسمها)). فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٤/٨).

(٧) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠).

(٨) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(٩) في صحيح البخاري (٢٦٦١): مِن يوم.

(١٠) في صحيح البخاري (٢٦٦١): فيَّ.

(١١) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠).

(١٢) في صحيح البخاري (٢٦٦١): مكثَ.

(١٣) في صحيح البخاري (٢٦٦١)، ومسند الإمام أحمد (١٩٤/٦): شيءٌ.

(١٤) قال ابن حجر: ((هو كناية عما رميت به من الإفك، و لم أر في شيء من الطرق التصريح، فلعل الكناية من لفظ النبي r)). فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٥/٨).

(١٥) أي: قارَبْتِ. النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٧٢).

(١٦) في مسند الإمام أحمد (١٩٤/٦): ثم توبي.

(١٧) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠).

عليه"[١]!

قالت: فلما قضى رسول الله r مقالته قلص دمعي[٢]، حتى ما أحس منه قطرة! فقلت لأبي: أجب عني رسول الله r فيما قال! فقال [أبي][٣]: والله ما أدري ما أقول لرسول الله r ! فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله r [فيما قال][٤]! فقالت [أمي][٥]: والله ما أدري ما أقول لرسول الله r ! [قالت][٦]: فقلت -وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن[٧]-: إني والله لقد عرفت[٨] أنكم قد سمعتم بهذا [الحديث][٩]؛ حتى استقر في نفوسكم[١٠] وصدقتم به! فإن[١١] قلت لكم إني بريئة -والله [عز وجل][١٢] يعلم أني [لـــ][١٣]ـــبريئة-؛ لا تصدقوني بذلك! ولئن اعترفت لكم بأمر -والله [عز وجل][١٤] يعلم

---

(١) جاء في إحدى روايات مسند الإمام أحمد (٦/٢٦٤): فاستغفري الله؛ فإن التوبة من الذنب: الندم والاستغفار. وأخرج هذه الروايةَ - أيضًا -: الحميديُّ في مسنده (٢٨٤)، قال: وربما قال سفيان... فذكره، وأكثر ذلك يقول على الأول [يعني: الرواية الأولى]، وضعَّفه الأرناؤوط في تحقيقه لـــ المسند (٤٣/٣١٤).

(٢) أي: ارتفع وذهب. النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/١٠٠).

(٣) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٤) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(٥) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٦) صحيح البخاري (٤٧٥٠).

(٧) في صحيح البخاري (٤١٤١): لا أقرأ من القرآن كثيرًا.

(٨) في صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠): علمتُ.

(٩) صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠). وفي (٢٦٦١): سمعتُم ما يتحدَّث به الناس.

(١٠) في صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠): أنفسكم، وفي (٢٦٦١):... ووقرَ في أنفسكم.

(١١) في صحيح البخاري (٢٦٦١)، ومسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٤): ولئن، وفي صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠): فلئن.

(١٢) مسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٤).

(١٣) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(١٤) مسند الإمام أحمد (٦/١٩٤).

أني [منه][(١)] بريئة-؛ لتصدقونني[(٢)]! وإني والله ما[(٣)] أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف[(٤)]: (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون)!

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي! قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة[(٥)]، وأن الله مبرئي ببراءتي[(٦)]، ولكن والله ما كنت أظن[(٧)] أن [الله][(٨)] ينزل[(٩)] في شأني[(١٠)] وحيـ[ـاً] [(١١)] يتلى! ولشأني كان أحقر[(١٢)] في نفسي[(١٣)] مِن أن يتكلم الله عز وجل فيَّ بأمر يتلى[(١٤)]! ولكني[(١٥)] كنت أرجو أن يرى رسول الله r في النوم رؤيا يبرئني الله [عز وجل][(١٦)] بها.

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٥٠).

(٢) في صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠): لتصدقني.

(٣) في صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٦٩٠): لا.

(٤) في صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٦٩٠): إلا أبا يوسف؛ إذ (وفي رواية: حين) قال، وفي (٤٧٥٠): إلا قول أبي يوسف؛ قال.

(٥) في صحيح البخاري (٤١٤١): والله يعلم أني حينئذ بريئة.

(٦) في صحيح البخاري (٧٥٤٥): وأنَّ الله يبرئني، وفي (٢٦٦١): وأنا أرجو أن يبرئني الله.

(٧) في صحيح البخاري (٢٦٦١): ما ظننتُ.

(٨) صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠، ٧٥٠٠، ٧٥٤٥).

(٩) في صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠): منزِل.

(١٠) في صحيح البخاري (٧٥٠٠): براءتي.

(١١) صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠، ٧٥٠٠، ٧٥٤٥). وفي (٢٦٦١): أن يُنزِل في شأني وحيًا.

(١٢) في صحيح البخاري (٢٦٦١): ولأنا أحقر.

(١٣) في صحيح البخاري (٧٥٠٠، ٧٥٤٥، ٤١٤١، ٤٧٥٠)، وسنن أبي داود (٤٧٣٥): ولشأني في نفسي كان أحقر.

(١٤) في صحيح البخاري (٢٦٦١): مِن أن يُتكلَّم بالقرآن في أمري.

(١٥) في صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠)، ومسند الإمام أحمد (٦/١٩٤): ولكن.

(١٦) مسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٤).

قالت: فوالله؛ ما رام[١] رسول الله r [من][٢] مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد؛ حتى أنزل الله عز وجل على نبيه r ؛ فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[٣] عند الوحي؛ حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان[٤] من العرق، [وهو][٥] في اليوم الشاتـ[ـي][٦]؛ من ثقل القول الذي أنزل[٧] عليه!

قالت: فلما سرى[٨] عن رسول الله r ؛ [سري عنه][٩] وهو يضحك! فكانـ[ـت][١٠] أول كلمة تكلم بها أن قال [لي][١١]: "أبشري -يا عائشة-! أما الله [عز وجل][١٢] فقد برأك"[١٣].

(١) أي: ما برح وما فارق مجلسه. النهاية في غريب الحديث والأثر: (٢/٢٩٠).

(٢) مسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٤).

(٣) البرحاء: شدة الحمى، وقيل: شدة الكرب، وقيل: شدة الحر. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٦).

(٤) الجمان: هو اللؤلؤ الصغار، وقيل: حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ. النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٣٠١).

(٥) صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠).

(٦) مسند الإمام أحمد (٦/ ١٩٤). وفي صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠): في يومٍ شات.

(٧) في صحيح البخاري (٤٧٥٠): يُنزَل.

(٨) أي: كُشِف. انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٧).

(٩) صحيح البخاري (٤٧٥٠).

(١٠) صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠).

(١١) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(١٢) صحيح البخاري (٤٧٥٠).

(١٣) في صحيح البخاري (٢٦٦١): يَا عَائِشَةُ، احْمَدِي اللَّهَ فَقَدْ بَرَّأَكِ اللَّهُ.

[قالت][١]: فقالت لي أمي: قومي إليه! [قالت][٢]: فقلت: [لا][٣] -والله-! لا أقوم إليه، ولا[٤] أحمد إلا الله [عز وجل][٥]؛ هو الذي أنزل براءتي!

قالت: فأنزل الله عز وجل: (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم [لا تحسبوه][٦]) [الـ][٧]ـعشر [الـ][٨]ـآيات [كلها][٩]؛ فأنزل الله عز وجل هؤلاء[١٠] [العشر][١١] الآيات [كلّها في][١٢] براءتي[١٣].

---

(١) صحيح البخاري (٤١٤١).

(٢) صحيح البخاري (٤٧٥٠).

(٣) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(٤) في صحيح البخاري (٤١٤١): فإني لا.

(٥) صحيح البخاري (٤٧٥٠).

(٦) صحيح البخاري (٤٧٥٠).

(٧) صحيح البخاري (٤٦٩٠، ٧٥٠٠، ٤١٤١، ٤٧٥٠، ٧٥٤٥).

(٨) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٦٩٠، ٧٥٠٠، ٤١٤١، ٤٧٥٠، ٧٥٤٥).

(٩) صحيح البخاري (٤٧٥٠، ٧٥٤٥).

(١٠) في مسند الإمام أحمد (٦/١٩٤): هذه.

(١١) صحيح البخاري (٦٦٧٩).

(١٢) صحيح البخاري (٦٦٧٩).

(١٣) وفي رواية لأبي داود (٧٨٥): جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكشف عن وجهه، وقال: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم: (إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم) الآية.

قال الإمام أبو داود - رحمه الله - عقب روايته: وهذا حديث منكر؛ قد روى هذا الحديث جماعة عن الزهري لم يذكروا هذا الكلام على هذا الشرح، وأخاف أن يكون أمر الاستعاذة من كلام حُمَيد.

فتعقَّبه الإمام ابن القيم -رحمه الله- في تهذيب السنن (١/ ٣٧٩)؛ بقوله: قال ابن القطان: حميد بن قيس أحد الثقات؛ وإنما علَّته: أنه من رواية قطن بن نسير عن جعفر بن سليمان، عن حميد، وقطن -وإن كان روى عنه مسلم- فكان أبو زرعة يحمل عليه ويقول: روى عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس أحاديث مما أنكر عليه، وجعفر أيضًا مختلف فيه؛ فليس ينبغي أن يحمل على حميد -وهو ثقة بلا خلاف- في شيء جاء به عنه من يختلف فيه. وضعَّفه العلامة الألباني -رحمه الله- في ضعيف أبي داود (٧٨٥)، وانظر: إرواء الغليل (٢/٥٨).

قالت: فـ[ـلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي][١] قال أبو بكر [الصديق رضي الله عنه][٢] -وكان ينفق على مسطح [بن أثاثة][٣] لقرابته منه وفقره-: والله؛ لا أنفق [على مسطح][٤] شيئًا أبدا بعد الذي قال لعائشة [ما قال][٥]! فأنزل الله عز وجل: (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى [وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا][٦] أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ [وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ][٧])- قال حبان بن موسى: قال عبد الله بن المبارك هذه أرجى آية في كتاب الله-؛ فقال أبو بكر: [بلى][٨] والله؛ إني لأحب أن يغفر الله لي! فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه[٩]؛ وقال: [والله][١٠]؛ لا أنزعها منه[١١] أبدًا!

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ [يـ][١٢]ـسأل زينب بنت جحش[١٣] زوج

(١) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠).

(٢) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠).

(٣) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠).

(٤) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠، ٦٦٧٩)، وفي صحيح مسلم: عليه.

(٥) صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠).

(٦) صحيح البخاري (٤٧٥٠).

(٧) صحيح البخاري (٤١٤١، ٤٧٥٠، ٤٧٥٧).

(٨) صحيح البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠، ٦٦٧٩).

(٩) في صحيح البخاري (٢٦٦١): فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه.

(١٠) صحيح البخاري (٤١٤١، ٦٦٧٩).

(١١) في صحيح البخاري (٦٦٧٩): عنه.

(١٢) صحيح البخاري (٢٦٦١).

(١٣) زينب بنت جحش بن رياب، أم المؤمنين، وابنة عمة رسول الله ﷺ، أمها: أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، وهي أخت حمنة، من المهاجرات الأول، تزوجها النبي ﷺ سنة ثلاث وقيل سنة خمس، ونزلت بسببها آية الحجاب، وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة، توفيت سنة ٢٠هـ، وقيل: كانت أول نسائه لحوقًا به. سير أعلام النبلاء (٢/٢١١)، الإصابة في تمييز الصحابة (٧/٦٦٧).

النبي r عن أمري؛ [فقال: يا زينب][١] ما[ذا][٢] علمتِ أو ما رأيت[٣] [أو ما بلغكِ][٤] ؟! فقالت: يا رسول الله؛ أحمي سمعي وبصري[٥]! واللهِ؛ ما علمت [عليها][٦] إلا خيرًا! قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني[٧] من أزواج النبي r ؛ فعصمها الله بالورع!

[قالت][٨]: وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها[٩]؛ فهلكت فيمَن هلك!

قال الزهري[١٠]: فهذا ما انتهى إلينا[١١] من أمر[١٢] هؤلاء الرهط.

قال عروة: كانت عائشة تكره أن يُسَبّ عندها حسان؛ وتقول: فإنه قال:

فإن أبي ووالده وعرضي *** لعرض محمد منكم وقاء

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٦١). وفي (٤١٤١): فقال لزينب.
(٢) صحيح البخاري (٤١٤١).
(٣) في صحيح البخاري (٢٦١٦): ما علمتِ ما رأيتِ.
(٤) مسند الإمام أحمد (٦/١٩٤).
(٥) أي: أمنعهما من أن أنسب إليهما ما لم يدركاه، ومن العذاب لو كذبت عليهما. النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٤٤٨).
(٦) صحيح البخاري (٢٦٦١).
(٧) أي: تعاليني وتفاخرني، وهو مفاعلة من السمو، أي: تطاولني عنده r . النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٤٠٥).
(٨) صحيح البخاري (٤١٤١).
(٩) من الحرب. وبالزاي: أي تَتَعَصَّب وتَسْعى سَعْي جماعَتِها الذين يَتَحَزَّبون لها. النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٣٧٧).
(١٠) في صحيح البخاري (٤١٤١)، ومسند الإمام أحمد (٦/١٩٤): ابن شهاب.
(١١) في صحيح البخاري (٤١٤١): فهذا الذي بلغني.
(١٢) في صحيح البخاري (٤١٤١): حديث.

وزاد أيضًا: قال عروة: قالت عائشة: والله؛ إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله! فوالذي نفسي بيده؛ ما كشفت عن[١] كنف[٢] أنثى قط!

قالت: ثم قُتِلَ بعد ذلك شهيدًا في سبيل الله.

" " "

(١) في صحيح البخاري (٤١٤١): مِن.

(٢) أي: ثوبها الذي يسترها، وهو كناية عن عدم جماع النساء جميعهن ومخالطتهن. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١١٤/١٧).

المبحث الثاني

أسباب خوض المنافقين في الإفك

إذا كان الخوض في عرض المسلم بغير حق من أكبر المعاصي جرماً، وأعظمها إثماً، والاتصاف به لا يكون إلا لأسباب داخلَت نفس الخائض؛ فكانت حاملاً ودافعاً له على ارتكابه؛ فلا شك في أن الخوض في عرض أفضل الخلق، وأحبهم إلى الله تبارك وتعالى وفي عرض أحب الناس إليه r (صاحبه الصدّيق أبي بكر، وزوجه الطاهرة عائشة -رضي الله عنهما-) هو من أكبر الكبائر وأعظمها، وأن مرتكبه له أسباب خبيثة دفعته إلى الوقوع في هذا المنكر العظيم، وإلا فإن مجرد عِظَم هذا الذنب وشناعة الوقوع فيه من أكبر الدوافع لاجتنابه، ومن ثمّ فإن معرفة هذه الأسباب لها أهمية بالغة للمسلمين عامة وللدعاة خاصة.

ومعرفة تلك الأسباب وتصوّرها تصوّراً صحيحاً تقتضي الوقوف عند نقطتين مهمتين:

الأولى- موقف المجتمع المدني عامة تجاه خبر الإفك:

بالنظر فيما ورد في الكتاب والسنة في حادثة الإفك نجد المجتمع المدني انقسم تجاه خبر الإفك على أربعة أقسام:

القسم الأول- فئة من المؤمنين بادروا بتكذيب شائعة الإفك، وهؤلاء هم خيرة الصحابة وأفضلهم، ومنهم: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب[١]، وأبو أيوب الأنصاري[٢]

(١) أورد ذلك عنهم: النسفي في تفسيره (٣/ ٢٠٠).

(٢) الصحابي الجليل خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، الخزرجي النجاري البدري، أبو أيوب، السيد الكبير الذي خصه النبي r بالنزول عليه في بني النجار توفي سنة٥٠هـ. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤/١٦٠٦)، سير أعلام النبلاء (٢/٤٠٢)، الإصابة في تمييز الصحابة (٢/٢٣٤).

وأم أيوب[(١)][(٢)]، وأسامة بن زيد، وأم مسطح، وبريرة، وأم أيمن[(٣)] y، فقد برّؤوا ساحة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- من الإفك بمجرد سماعه، ووصفوه بالإفك المبين، وسبّحوا الله تعظيمًا أن يقّدر الله هذا الأمر على زوجة نبيه r .

وهؤلاء هم الممدوحون على ما بادروا به من تكذيب الإفك، فقد كانوا هم الذين فعلوا ما أمر الله به بقوله: O J K L M N[(٤)].

القسم الثاني- وهم أكثر الناس، حموا أسماعهم وألسنتهم فسكتوا، ولم يصدقوا ولم يكذبوا.

القسم الثالث- فئة من المؤمنين خاضوا في الإفك بالأفواه، لا بالقلوب، لشدة مكر المنافقين في إشاعة الإفك، فخاضت الألسن بقول أهل الإفك، على غلبة ظنّهم أنَّ هذا الأمر ليس فيه لائمة، ولا يعُرِّض لسخط الله تعالى، ومن هؤلاء: حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش y[(٥)].

وهؤلاء مخطئون في الفعل الذي بدر منهم، مغفورٌ لهم بتوبة الله عليهم وتكفير خطيئتهم بالحد الذي أقيم عليهم، وهم المعنيّون بقوله تعالى: Oo p q r s t

---

(١) أم أيوب الأنْصارِيَّة، امرأَة أبي أيوب، وهي: بِنْت قَيْس بن عَمْرو بن امرئ القَيْس من الخزرج. انظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤/ ١٩٢٥)، أسد الغابة (٧/ ٢٩١)، الإصابة في تمييز الصحابة (١٧٤/٨).

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١٢/١٧).

(٣) أم أيمن مولاة رسول الله r وحاضنته، واسمها بركة، أسلمت قديمًا أول الإسلام، وهاجرت إلى الحبشة وإلى المدينة، وبايعت رسول الله r، تزوجها زيد ابن حارثة t وأنجب منها أسامة ابن زيد t حِبُّ رسول الله r، توفيت بعد وفاة رسول الله r بخمسة أشهر، وقيل بستة أشهر. انظر: أسد الغابة (٧/ ٢٩٠)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣)، الإصابة في تمييز الصحابة (١٧٩/٨،١٦٩).

(٤) سورة النور، آية رقم (١٢).

(٥) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩٥/١٧، ١٩٦، ٢٠٩).

وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ[(١)].

وقد أثبت الله U لأهل هذا القسم فضائلهم التي عملوها حيث أثبت لمسطح هجرته وإيمانه عندما حلف أبو بكر t أنه لن ينفق على مسطح t ، ولن يتصدق عليه وهو من ذوي قرابته، فقال U: O H I J K L M N O P Q R S T U V X Y [\ ] ^ _ ` b c d N[(٢)].

القسم الرابع- أرباب الإفك الذين اختلقوه ثم كانوا يستوشونه ويذيعونه، وهؤلاء هم المنافقون المرجفون في المدينة، وعلى رأسهم: عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس النفاق، وهو الذي تولى كِبْر الإفك، فعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: O : ; < = > ? @ N: ((عبدالله بن أبي ابن سلول))[(٣)].

وهذا القسم هو المتوعد باللعنة والعذاب العظيم الذي ذكره المولى في قوله: O f g h i j k l m n o p q r s t u v w x y z { | N[(٤)]، وهم المعنيون بقوله تبارك وتعالى: O إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ N[(٥)(٦)].

ومن خلال معرفة هذه المواقف الأربعة للمجتمع المدني تجاه خبر الإفك؛ يظهر أن الخائضين في الإفك فئتان: أصحاب القسم الثالث (وهم فئة قليلة جدًا من الصحابة y)،

---

(١) سورة النور، الآيتان رقم (١٥-١٦).

(٢) سورة النور، آية رقم (٢٢).

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٥٢/٨) أنَّ الروايات بذلك قد تظاهرت عن عائشة -رضي الله عنها-.

(٤) سورة النور، الآيتان رقم (٢٣-٢٤).

(٥) سورة النور، آية رقم (١٩).

(٦) استفدت هذا التقسيم من فضيلة الشيخ عبدالقادر شيبة الحمد، في كتابه فقه الإسلام شرح بلوغ المرام (٩/٥). وزدت على ما ذكره فضيلته بإيراد نصوص القرآن وأقوال أهل العلم التي تدل على صحة هذا التقسيم.

وأصحاب القسم الرابع (وهم المنافقون)، وكما أن هاتين الفئتين لا تستويان البتة من حيث الأفراد والحقيقة والحكم؛ فهما كذلك لا تستويان البتة من حيث أسبابِ ودوافعِ خوضهما في الإفك؛ ومن ثمّ كان ذكر أسباب خوض أصحاب القسم الثالث في الإفك مضمَّنًا في المعوّقات التي سيأتي ذكرها في الفصل الخامس من هذا البحث، وخُصَّ أصحاب القسم الرابع بالحديث في هذا الموضع؛ إذ إنهم كانوا هم الذين أحدثوا الإفك واختلقوه وأشاعوه.

وهذا التصوّر السابق يقود إلى النقطة الهامة الثانية، وذلك أن تصوّر أسباب خوض المنافقين في الإفك يقتضي أن نتصوّر قبل ذلك:

الثانية- أسباب نشوء النفاق في المدينة النبوية:

حين كان النبي r وصحابته y في مكة لم يكن الناس إلا قسمين: مؤمناً ظاهراً وباطناً وكافراً ظاهراً وباطناً، ولما اشتد الأذى على المؤمنين أتباعِ الدعوة الإسلامية يسّر الله لهم مكانًا يلتجئون إليه (وهو المدينة)، فهاجر إليها النبي r والمؤمنون، وبعد هذه الهجرة العظيمة استمر حال المجتمع المدني -من حيث الجملة- على الوضع الذي كان عليه المجتمع المكي قبل الهجرة: (مؤمنون، وكافرون مظهرون للكفر: إما من عَبَدَةِ الأوثان الذين لم يدخلوا في الإسلام بعد، وإما من اليهود)، وكان كل فريق يبوح بدينه سرًا وعلانية، فعن أسامة بن زيد -رضي الله عنهما-: أن رسول الله r ركب على حمار على قَطِيفة[(١)] فَدَكِية[(٢)] وأردف[(٣)] أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر. قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول -وذلك قبل أن يسلم عبدالله

(١) القطيفة: هي كِساء له خَمْل، وهو دثار مخمل، جمعها قطائف وقطف. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٨١، ٤/ ٨٤)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٢/ ١٥٧)، فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢٣١/٨)(١٢٢/١٠).

(٢) فدكية: نسبة إلى فدك، بلدة معروفة على مرحلتين أو ثلاث من المدينة، كأنها صنعت فيها. انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٢/ ١٥٧)، فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢٣١/٨)(١٢٢/١٠).

(٣) أردفه: أرْكَبَه خَلْفَه على الدابة. انظر: لسان العرب (١١٦/٩).

بن أبي-، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة[(١)]، فلما غشيت المجلس عجاجة[(٢)] الدابة خَمَّر[(٣)] عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبّروا علينا. فسلَّم رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن. فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقًا فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلى -يا رسول الله- فاغشُنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك. فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: ((يا سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب[(٤)] -يريد عبد الله بن أبي-؟، قال كذا وكذا)). قال سعد بن عبادة: يا رسول الله، اعفُ عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة[(٥)] على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق[(٦)] بذلك، فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه رسول الله ﷺ[(٧)].

---

(١) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس، الأنصاري، الخزرجي، الشاعر المشهور، يكنى أبا محمد، ليس له عقب من السابقين الأولين من الأنصار، وكان أحد النقباء ليلة العقبة، وشهد بدرًا وما بعدها إلى أن استشهد بمؤتة. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٨٢/٤).

(٢) هي: ما ارتفع من غبار حوافرها الذي تثيره. انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٥٨/١٢)، هدي الساري مقدمة فتح الباري (ص ١٥٣).

(٣) خمّر أنفه: أي غطاه. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٥٨/١٢).

(٤) أبو حُبَاب: كنية عبد الله بن أبي، وكناه النبي ﷺ في تلك الحالة لكونه كان مشهورا بها أو لمصلحة التألف. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢٣٢/٨).

(٥) البُحَيْرَة: مدينة الرسول ﷺ وهو تصغير البَحْرة. النهاية في غريب الحديث والأثر (١٠٠/١).

(٦) شَرِق: أي غصَّ، ومعناه: حسد النبي ﷺ، وكان ذلك بسبب نفاقه. انظر المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٥٩/١٢)، فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢٣٢/٨).

(٧) صحيح البخاري (٢٣٠/٨، ٢٣١) رقم (٤٥٦٦).

وكان مبدأ ظهور النفاق في المجتمع المدني -وفي التاريخ الإسلامي بعامة- بعد أن أظهر اللهُ دينَه على المشركين من أهل مكة في غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة، فحين انتصر الجيش المؤمن على جيش الكفر أرسل النبي r كلاً من عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة -رضي الله عنهما-، فقاما ينادیان -كلٌّ على راحلته- يبشران الأنصار بنصر المسلمين على مشركي قريش ويذكران قتلى صناديد قريش، فجعل المؤمنون يستوثقون منهما الخبر لما أشاع المنافقون من تشويش في صحة كلامهما، وهما يؤكدان صدق ما أخبرا به، فلما استبان الأمر بإتيان النبي r والمؤمنين ومعهم الأسرى والغنائم[١]؛ قال عبدالله بن أبيّ بن سلول ومن معه من المشركين عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجَّه[٢]. فبايعوا الرسول r على الإسلام فأسلموا[٣].

فكان سبب نشوء النفاق في المجتمع المدني اجتماع عاملين هما:

١. أنه صار للمؤمنين في المدينة عِزٌّ وأنصارٌ بعد دخول جمهور أهلها في الإسلام طوعًا واختيارًا.

٢. ظهور الإسلام على أهل الشرك من أهل مكة الذين كانوا أشد وأظهر وأول المناوئين له[٤].

فلجأت فئة من أهل الشرك من أهل المدينة إلى إظهار الإسلام وإبطان الكفر؛ فنشأ بذلك النفاق في التاريخ الإسلامي.

ومنذ نشأ النفاق كان أهله أخطر على أهل الإسلام من الكفار المعلنين للكفر، وذلك لعموم الابتلاء بهم، وشدة إفسادهم ومكرهم، وفتنتهم للإسلام وأهله، ولاتفاقهم واجتماعهم على حرب الإسلام، وللتربص والترصد والاستعداد بالكمائن لأي فرصة تحين في أي وقت وأي مكان لإيذاء المؤمنين، ولأن رأس مالهم الخديعة والمكر والكذب، ولسعيهم

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/٣٧١).

(٢) توجه: أي ظهر وجهه. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٢٣٣).

(٣) صحيح البخاري (٤/١٦٦٣).

(٤) انظر: الإيمان الأوسط ص (٢٩٢).

في تشكيك الناس في دينهم بإلقاء الشبه، وللدادة[١] خصومتهم مستعينين على ذلك بحلاوة القول ولينه، ولفرحهم بنصر الكفار وهزيمة المسلمين، وحزنهم عند نصر المسلمين وهزيمة الكفار[٢].

وبتصوّر النقطتين السابقتين؛ يظهر الترابط بين نشأة النفاق وظهور المنافقين في المجتمع المدني وأسباب ذلك وخطورته، وبين كون المنافقين هم الذين كانوا وراء خبر الإفك اختلاقًا وخوضًا وترويجًا وإشاعةً ونشرًا.

كما تظهر أيضاً الأسباب المعلَنة والخفية التي دفعت المنافقين إلى الخوض في الإفك، وأنها لا تخرج عن محورين رئيسين هما:

الأول- الأسباب الدينية. الثاني- الأسباب الدنيوية.

وفيما يأتي تفصيل ذلك:

أولاً - الأسباب الدينية:

١ - إرادة إسقاط الدين بإسقاط حملته.

من المعلوم أن المنافقين لم يدخلوا في الإسلام رغبةً فيه، وأنهم لما لم يتمكنوا من إظهار كفرهم علانيةً ورَدّ الدين صراحةً -خوفًا من افتضاح أمرهم وانكشاف دخيلة نفوسهم وتعرضهم للقتل بسبب ذلك-، اندسّوا بين صفوف أهل الإسلام، ولجؤوا إلى الحيلة والمكر، وأخفوا تكذيبَهم نصوصَ الكتاب والسنة واستهزاءَهم بها وبأهل الإيمان بها وبغضَهم إياهم وكراهيةَ نصرهم وحبَّ الأذى والهزيمة لهم، كما قال تعالى: O O P Q R S T
U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a b c d e g h i j l l
m n o p q r s t u v w x y z { | } ~ عَلَيْكُمُ
ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ © ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ´ µ ¶ بِهَا
وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ N[٣].

---

(١) اللدادة: شدة الخصومة. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٢١٩/١٦).

(٢) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣٤٧/١-٣٥٩).

(٣) سورة آل عمران، الآيات رقم (١١٨-١٢٠).

ويدرك المنافقون أن قوة هذا الدين بين الناس -داخل المجتمع المسلم وخارجه- إنما تكون بقوة الإيمان به التي تملأ نفوس حمَلته، ولذا؛ فإنهم يتصيّدون الفرص ويترصّدون الوقائع لينفثوا سمومهم، فيوجهون سهامهم لحمَلَة الدين ورافعي رايته وحُماة ساحته من أئمة الدين وأهل التقى والعلم -وفي مقدمتهم: نبي الأمة r وصحابته الكرام y -، فيتهمونهم بفظائع الأمور ومستبشعات الأخلاق وذميم الصفات؛ ليتوصّلوا بذلك إلى إسقاط الدين نفسه، كما قال تعالى: O S T U V W X Y [\ ] ^ _ ` a b c d e f g N[١].

لقد رأى المنافقون في عهده r أن أفضل وسيلة لإسقاط الدين هي: إسقاط أعظم حمَلته وعلى رأسهم النبي r وذلك من خلال تشويه صورته والقدح في نزاهته بأمكر طريقة يتمكنون منها، فما إنْ تسنّت لهم الفرصة حتى أوقدوا نار الفتنة وافتعلوا الإفك المبين، من خلال رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول الذي تكلم في عرض النبي r ، فأراد بذلك الكيد للإسلام في رمزه، وذلك باتهامه في عرضه الشريف؛ ليسقطه من أعين الناس، فيحصل بمكره هذا على مقصده الأسنى وهو ذهاب الدين واضمحلاله، وذلك أنه إذا كانت النفوس السليمة الأبيّة لا ترضى النقائص -خاصة في الأعراض- ولا تقبلها في آحاد الناس؛ فكيف ترضى بها في أهل الريادة والقيادة؟، فإذا تناقلت الألسن في أوساط المجتمع المدني وقوع الفاحشة في عــرض النبي r الذي اتهمه المنافقون بالإفك في أهله، وصَدَّقَتْ ذلك واعتقدته؛ فهذا يعني ضرورةً إسقاط شخص النبي r ، وإذا أُسقِط شخص النبي r -وهو الذي أتــى بهذا الدين مــن عند الله سبحانه ودعا إليه وجاهد في الله من أجل رفع رايته- أسقِطت رسالته ونُسِب إلى الكذب فيها وعدم صحتها.

يجلّي هذا الأمر: قول الله تبارك وتعالى: O ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ ´ ¶ ¸ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ N[٢]، ((فأخبر تعالى أن النساء الخبيثات للرجال الخبيثين، فلا تكون خبيثة لطيب، فإن ذلك خلاف الحصر...،

(١) سورة التوبة، الآيتان رقم (٦٥-٦٦).
(٢) سورة النور، آية رقم (٢٦).

وأخبر أن الطيبين للطيبات، فلا يكون الطيب لامرأة خبيثة، فإن ذلك خلاف الحصر؛ إذ قد ذكر أن جميع الخبيثات للخبيثين، فلا تبقى خبيثة لطيب ولا طيب لخبيثة، وأخبر أن جميع الطيبات للطيبين فلا تبقى طيبة لخبيث))[١]، ((فعُلِم أن الذي رمي أمهات المؤمنين يعيب بذلك رسوله r))[٢].

٢ - مرض قلوب المنافقين:

وصف الله المنافقين بأن في قلوبهم مرضًا فقال: SO T U V W X ׀ Z] \ [^ _ N[٣]، ((والمرضُ الذي ذكر الله جل ثناؤه أنّه في اعتقاد قلوبهم...: هو شكُّهم في أمر محمد r وما جاء به من عند الله، وتحيُّرُهم فيه، فلا هم به موقنون إيقان إيمان، ولا هم له منكرون إنكارَ إشراك، ولكنهم كما وصفهم الله U مُذَبْذَبُونَ بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، يقال: فلانٌ يَمَرِّضُ في هذا الأمر، أي: يُضَعِّف العزمَ ولا يصحِّح الروِيَّة فيه))[٤].

و((مرض القلب: خروج عن صحته واعتداله، فإن صحته أن يكون عارفا بالحق محبا له مؤثرا له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه وإما بإيثار غيره عليه، فمرض المنافقين مرض شك وريب))[٥]، وهذا المرض جعل من ديدنهم وعادتهم: الوقوع فيما حرمه الله ورسوله من الكفر والفساد والإفساد والاستهزاء بالدين وبالمؤمنين وموالاة الكافرين، كما قال تعالى: Oa b c d e f g h i j k l m n o p q r s N[٦]،O " # $ % & ' ( ) + , - . / 0 1 2 3 5 6 7 8 9 : ; <

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٣٢٢).

(٢) المصدر السابق (١٥/٣٦٢).

(٣) سورة البقرة ، آية رقم (١٠).

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١/٢٨٧).

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص (١٧١).

(٦) سورة البقرة، الآيتان رقم (١١-١٢).

q p o n m l kO،[1]N G F E D C B A @ ? > =
.[3]N y x w v u t s r q p o n mO،[2]N t s r

وهو الذي دفعهم إلى اختلاق هذا الإفك المبين في النبي r وزوجه الطاهرة عائشة -رضي الله عنها- والخوض فيه وإشاعته، ابتداءً برأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول الذي اختلق الإفك لما رأى صفوان بن المعطل يقدُم بعائشة، ثم أعانه بقية المنافقين على نشره وإذاعته في المجتمع المسلم، وإلا فإن القلب السليم يعلم من مترلة النبي r عند ربه، ومكانة عائشة عنده وعفتها وطهرها، وأمانة صفوان بن المعطل وصدقه، وغير ذلك من الاعتبارات الصحيحة؛ ما يجعله في كامل الطمأنينة والسكينة والثقة بعدم وقوع ذلك الأمر المشين الذي اختلقه المنافقون وأذاعوه، بل لا يمكن للقلب السليم أن ينقدح فيه ذلك ابتداءً.

٣- التآمر ضد المسلمين والتعاون على معاداقم:

حين نزل النبي r إلى المدينة كانت أخلاطًا من يهود ومشركين، وكانت نار الفتنة تُؤَجج بين قبيلتي الأوس والخزرج من قبل اليهود مابين الفينة والأخرى، وعندما أظهر الله نور الإيمان بين جنبات المدينة النبوية، فاضمحل على إثره سواد الشرك الذي غطى يثرب سابقًا؛ ثارت في نفوس اليهود والمشركين الضغائن والأحقاد، فكان التواطؤ من المنافقين مع أعداء الإسلام على أي ملة كانت يكمن في التآمر ضد الإسلام، قال تعالى: WO X
N Y[4]. قال القرطبي[5]: ((يعني: لا يتركون الجهد في فسادكم، يعني: أهم وإن لم يقاتلوكم في الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد في المكر والخديعة))[6].

---

(١) سورة المائدة، الآيتان رقم (٥١-٥٢).

(٢) سورة الأنفال، آية رقم (٤٩).

(٣) سورة الأحزاب، آية رقم (١٢).

(٤) سورة آل عمران، آية رقم (١١٨).

(٥) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي، أبو عبد الله، من كبار المفسرين، صالح متعبد، من كتبه "الجامع لأحكام القرآن"، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط بمصر)، وتوفي فيها سنة ٦٧١ هـ. انظر: الأعلام (٥/٣٢٢).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٧٩).

وما حصل بالتحديد في حادثة الإفك الذي قالته ألسنتهم وما سبقه ولحقه من أحداث يثبت أن تآمرهم ضد المسلمين كان من أعظم أسباب خوضهم في الإفك، فالتآمر -في أقوالهم وأفعالهم في حادثة الإفك- بيِّنٌ والعداوة بارزة فيما أحدثوه من الإفك وفيما نتج عنه في بعض المواقف من الفتنة التي كادت تثور بين الصحابة y، فحين يتخلخل الصف المسلم وتحدث بينهم الفرقة -كما كاد أن يحصل بين الأوس والخزرج لولا فضل الله U ثم حكمة النبي r في تهدئة تلك الفتنة العظيمة- لحدث ما أراده المنافقون من كيدهم الدفين في سويداء النفوس، ولقدّموا للمشركين فرصة العمر في إضعاف الإسلام وأهله، هم يحبون ذلك وقد استقر في قلوبهم مودة إتعاب المؤمنين والتضييق عليهم، ولذلك قال الله تعالى: O Z] \ N[١] أي: ((تمنَّوْا عَنَتَكم، أي: مشقتَكم وشدةَ ضررِكم))[٢]، وهذا يبيّن خبث ضمائر نفوسهم وما انطوت عليه من تآمر على الدين وأهله، قال تعالى: O] ^ _ ` a b c d e N[٣] يعني: ظهرت العداوة والتكذيب لكم من أفواههم، ويبطنون من البغضاء أكثر مما يظهرون بأفواههم[٤]. فهذه أعمالهم فيها -مما يثبت تآمرهم ضد المسلمين- ما ((قد لاح على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله))[٥].

ثانيًا- الأسباب الدنيوية:

١ - البغض والحقد والحسد:

بيّن الله سبحانه وتعالى لنبيّه الكريم r أنَّ حاله -في تبليغ الرسالة وموقف الناس منه ومن دعوته وترصّد عدد من أكابر المدعووين له بالحقد والبغض الذي يتولّد عنه الأذى والعداوة والمكر- لا يختلف عن حال من سبقه من الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى:

---

(١) سورة آل عمران، آية رقم (١١٨).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (٢/ ٧٦).

(٣) سورة آل عمران، آية رقم (١١٨).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٤ / ١٨٠).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٠٨).

O وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا © فِيهَاۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ N[١]. قال ابن كثير[٢]: ((وكما جعلنا في قريتك -يا محمد- أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة))[٣].

وفي المجتمع المدني الذي وقعت فيه حادثة الإفك كان من أكابر المجرمين فيه: عبدالله بن أبي بن سلول، الذي كان في يثرب -قبل مقدم النبي r إليها- كبيرًا مطاعًا شريفًا مقدَّمًا، حتى اتفق أهلها على أن يملّكوه عليهم، ثم لما أكرم الله عددًا من أعيانها بالإيمان بالنبي r والدخول في دين الإسلام، ثم هجرة النبي r وأكابر صحابته إلى المدينة وازدياد عدد المسلمين فيها؛ زال عن عبدالله بن أبيّ كلّ ما كان يجده في مجتمعه من تبجيل وتقديم وترئيس، فقد اجتمع المؤمنون من أهل المدينة -وهم أكثر أهلها- على توحيد الله واتباع الوحي وطاعة الرسول r والأخوة الدينية التي تزيل الأحقاد وتؤلف القلوب وتوحِّد الصف، وإزاء ذلك أُشرِب قلب عبدالله بن أبيّ البغضاءَ والحقدَ الدفين والحسدَ للنبي r، وصار من أشدّ أهل المدينة عداوة له ولدينه، وترصّدت له جوارحه بالمكر والأذى، وكان مما ينفث به البغضَ والحقد والحسد الذي ملئ به قلبه: أنه كان في بداية أمره ينفِّر الناس عن النبي r وعن دينه، ولكنه لما دخل في الإسلام نفاقًا عظُم خطره واستشرى ضرره بما كان يحيكه من الكيد والمكر في كل فرصة يرى أنها مناسبة له -كما وقع منه في مسير النبي r وصحابته y إلى أحد وغيره من المواقف-، كما أنه كان يمشي في صفوف المسلمين بالتحريض ومقالة السوء ليفرّق الصف والكلمة.

---

(١) سورة الأنعام، آية رقم (١٢٣).

(٢) إسماعيل بن عمر بن كثير، القرشي الدمشقي الشافعي، أبو الفداء، الإمام، المفسر، المحدث، المؤرخ، من أعلام الشافعية. توفي سنة٧٧٤هـ، انظر: طبقات الشافعية (٣/٨٥)، الدرر الكامنة (١/٤٤٥)، شذرات الذهب (٦/٢٣١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٣٣١).

وعند النظر في حادثة الإفك نجد أن الذي اختلق الإفك وتولّى كِبره هو: عبدالله بن أبيّ نفسه، فعندما رأى عدوُّ اللهِ أمَّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- على جمل صفوان بن المعطل t يقود بها في نحر الظهيرة، أخرج حقده الدفين وبغضه الكامن في صدره، مستغلاً موقفًا لا يشك فيه كل منصف للحق أنه خالٍ وعارٍ من التهمة، ليقول كلمة الإفك، ((فقال: من هذه؟، قالوا: عائشة وصفوان، فقال: فَجَرَ بها -ورب الكعبة-))[١]. وفي لفظ: ((ما برئت منه وما برئ منها))[٢]. وفي لفظ: ((والله ما نجت منه ولا نجا منها وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها))[٣]. وصار يقول: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت. ثم أشاع ذلك في المدينة بعد دخولهم لها لشدة عداوته لرسول الله r))[٤].

فرأى عدوّ الله أنه وجد ((متنفسًا، فتنفس من كَرْبِ النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك ويستوشيه ويشيعه ويذيعه ويجمعه ويفرقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه))[٥]، بل ((كان -لعنه اللّه تعالى- يجمع الناس عنده ويذكر لهم ما يذكر من الإفك))[٦].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ١٢٤)، من حديث عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما-. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٠): "فيه إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي؛ وهو كذَّاب" اهـ.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ١٣٨)، من مرسل سعيد بن جبير -رحمه الله- قال: {والذي تولى كبره} يعني: عظمه {منهم} يعني: القذفة، وهو: ابن أُبيٍّ رأس المنافقين، هو الذي قال: ما برئت... فذكره. وهو -إضافة إلى أنه مُرسَل- قال الهيثمي فيه في مجمع الزوائد (٧/ ٧٧): "فيه ابن لهيعة، وفيه ضَعف وقد يُحَسَّن حديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح" اهـ ، وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٤٦٤).

(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره (٧/ ٧٨) -وعنه: البغوي في تفسيره (٦/ ٢٣)- ، من رواية ابن أبي مُليكة عن عروة عن عائشة -رضي الله عنها- قالت في حديث الإفك: ثم ركبتُ، وأخذ صفوان بالزمام، فمررنا بملأ من المنافقين، وكانت عادتهم أن يترلوا منتبذين من الناس، فقال عبدالله بن أُبَيٍّ رئيسهم: من هذه؟ قالوا: عائشة، قال: والله؛ ما نجت... فذكره.

(٤) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون (٢/٦٠٧).

(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٢٦٠).

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٨/ ١١٦).

فكان من أعظم أسباب خوض عبدالله بن أبيّ في الإفك:

أ- بغضه لرسول الله r ومحبته لإيذائه وأن يدنس فراشه![١].

ب- ((إمعانه في عداوة رسول الله r ، وانتهازه الفرص، وطلبه سبيلاً إلى الغميزة))[٢].

٢ - التربص والترصد للمؤمنين:

إن ضرر المنافقين المخالطين للمسلمين ((المعاشرين لهم، وهم في الباطن على خلاف دينهم، أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياما ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحًا ومساء، يدلون العدو على عوراقم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: Oهُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْN[٣] لا على معنى: أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى: أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوا من الكفار المجاهرين))[٤].

لقد كان من أسباب خوض المنافقين في الإفك: التربص والترصد لأي لائحة تتسنى، أو شبهة تتبدى، يمكن من خلالها الوقيعة في المؤمنين، لكي يثيروا بذلك فتنة تفتك بالمجتمع المؤمن.

وتذكر أحداث السيرة النبوية ما يقرِّر ذلك ويدلّ عليه ويبيّنه: وهو ما حصل في غزوة المريسيع[٥] حين كَسَعَ[٦]: ((رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال المهاجري: يا لَلمهاجرين!، وقال الأنصاري: يا للأنصار!، فسمع ذلك النبي r فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟، قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار، فقال رسول الله r : دعوها

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين للشيخ بن عثيمين (٣/ ١٠).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٣/٢٢١).

(٣) سورة المنافقون، آية رقم (٤).

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص(٥٩٦).

(٥) المُرَيْسِيع: ماء لبني خزاعة بينه وبين الفرع مسيرة يوم. واليوم: جزء من وادي (حورة)، أحد روافد (ستارة)، وستارة وقديد واد واحد، وهو بعيد عن الساحل في الداخل بما يقرب من ثمانين كيلاً عن سيف البحر. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/٤٣٠)، معجم المعالم الجغرافية ص(٢٩٠)، المعالم الأثيرة ص(٢٥١).

(٦) الكسع: ضرب الدبر باليد أو بالرجل. انظر: المصدر السابق (٨/٦٤٩).

فإنها منتنة. فسمع ذلك عبد الله بن أبي بن سلول فقال: أَوَقد فعلوها؟، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل))(١).

وفي حادثة الإفك: ترصّد المنافقون -وعلى رأسهم عبدالله بن أبي بن سلول- لذلك الموقف النبيل الشريف الذي كان ملؤه الطهر والنقاء، فعندما رأى صفوان بن المعطل السلمي t أمَّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وحيدةً مفقودةً عن الجيش الإسلامي في مكان قَفرٍ موحشٍ، أدّى أمانته على أكمل الوجوه، ثم جاء بزوج النبي r يقودها على ناقته في نحر الظهيرة حتى أوصلها إلى زوجها r سالمة آمنة، وإن مثل هذا الموقف لا يمكن أن يفسَّر عند كل مؤمن إلا على أنه شهامة ونُبْلٌ وكرم أخلاق وكمال عفة، ولكن لما كان الخبيث عبدالله بن أبيّ يتربص بأي بادرة تلوح في الأفق، ليدس السم الزعاف من خلالها في وسط المجتمع المؤمن؛ قال: ((فَجَرَ بها -ورب الكعبة-))(٢)، وقال: ((امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها))(٣). وهذا ينبئك عما كان عليه رأس النفاق -والمنافقون بعامة- من ترصد للمؤمنين وتربص بهم حتى في المواقف النبيلة الشريفة، فكيف بغيرها مما لو تسنّى لهم أن يجدوا فيه نوع شبهة أو موضع طعن وتجريح؟.

٣- طلب الجاه والمنصب:

اجتمعت كلمة أهل يثرب (الأوس والخزرج) على تسويد عبدالله بن أبي وتتويجه بالملك، وهذا من أعظم ما يناله الإنسان من الدنيا، وأعلى ما يمكن أن يطمح إليه من الجاه.

ولكن أراد الله إكرام تلك القبيلتين بالنبي r ليحتضنوه ويذودوا عن حياض الدين الإسلامي، ولا مردّ لأمره سبحانه، فاجتمع أهل المدينة على الالتفاف حول النبي r يفدونه بالنفس والنفيس، وعلى نسيان أمر عبدالله بن أبيّ والإعراض عنه وعدم الالتفات إليه.

فرأى عبدالله بن أبيّ أنه قد ضاع عليه ملكه الذي كان على مقربة منه، وفقد جاهه بين أهله وعشيرته، فأورثه ذلك رغبة شديدة في أن يسترد ملكه ويسترجع جاهه، فصار يبذل -في سبيل ذلك- كل ما يمكنه من كيد ومكر للنبي r وللإسلام وأهله.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤١٧/٥) رقم (٣٣١٥) وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) سبق تخريجه ص (٧٠).
(٣) سبق تخريجه ص (٧٠).

يثبت ذلك: أنه لما كان في غزوة بني المصطلق، وكاد أن يفرق الصفَّ المؤمن بإيقاد نار الفتنة بإثارة الحميّة القبليّة، استخدم النبي r السُّرَى[١] ليقطع تلك الفتنة، فسار بالجيش في وقت لم يكن يسير فيه من قبل، ((فلقيه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة، ثم قال: والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله r : أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبيّ؟، زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل. قال: فأنت -يا رسول الله- العزيز وهو الذليل، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فإنه ليرى أن قد استلبته ملكا))[٢].

فهذا التعليل من أسيد بن حضير t لما فعله عبدالله بن أبيّ يدلّ على ما وقع فيه ابن أبيّ من الافتتان الشديد بالدنيا من خلال هواه للجاه والسلطان، فكانت الدنيا (الجاه والمنصب) غاية مراده ومنتهى مرامه، وذلك كان يدفعه لارتكاب تلك الأفعال المنكرة التي كانت تصدر منه بين الفينة والأخرى.

وهذا السبب نفسه كان من أعظم أسباب موقفه المشين في حادثة الإفك افتراءً وخوضًا، فافتراؤه الإفك في عائشة -رضي الله عنها- هو في حقيقته افتراء في حق النبي r الذي يرى (ابن أبيّ) أنه قد سلبه ملكه وجاهه، فكان يرى أنه بإساءته لسمعة النبي r بين صحابته وزعزعته لمكانته في قلوبهم سينفضّون عنه أو لا يكون نظرهم له إجلالاً وإكبارًا كما كان من ذي قبل، فتكون لديه الفرصة سانحة للعودة إلى جاهه في قومه وملكه عليهم.

٤ - الفشل الذريع في الحرب الميدانيّة العلَنيّة والخفيّة:

منذ أن بدأ النفاق في المدينة وأهله في كمد وغيظ من عزّ المسلمين وقوتهم ومنعتهم، فهم لذلك لا يجدون سبيلاً إلى قتالهم ظاهرًا وعداوتهم علَنًا، فكان تنفيسهم عن كمدهم وغيظهم من خلال طريقين:

أولهما- محاربة المسلمين سرًا من خلال موالاة الكافرين من اليهود والمشركين ومعاونتهم على المسلمين، كما قال تعالى: O ! " # $ % & ') (* + ,

---

(١) السُّرَى: سير عامة الليل، وقيل: سير الليل كله. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٤٩/١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٢٨/٨).

- . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 N[١]، وقال سبحانه: O : ; <
= > ? @ A B C D E F G H I J K L M N
O P Q R S T U N[٢]، وقد فشلوا في ذلك فشلاً ذريعًا، حيث كان النصر دائمًا لأهل الإسلام على أعوان المنافقين.

وثانيهما- الكيد والمكر بالأراجيف والأقاويل الزائفة والإشاعات الكاذبة.

وقد كانت هذه الطريقة الثانية -التي ينفس بها المنافقون عن غيظهم من فشلهم في حرب المسلمين ميدانيًا- من أسباب خوضهم في الإفك، فإن ((من طبيعة اللئام أنهم إذا رأوا محاسن غيرهم ومساوئ أنفسهم واضحة، وعلموا أنَّ محاسنه هي السر في تقدمه ورقيّه وأنَّ مساوئهم ومواضع الضعف والانحلال فيهم هي التي تضع من شأنهم وتخسرهم المعركة؛ يأخذهم الهمُّ بأن يخلقوا فيه -بأي حيلة من الحيل- ما في أنفسهم من المساوئ ومواضع الضعف والفوضى، أو يرموه بما ليس فيه ويدنسوا ذيله ويشوهوا سمعته حتى لا ترى الدنيا محاسنه بدون عيب على الأقل. فهذه العقلية الدنيئة هي التي حولت مساعي الكفار وأعداء الإسلام في هذه المرحلة من الأعمال الحربية الظاهرة إلى الحملات الرذيلة وإحداث الفتن في داخل نظام المسلمين ومجتمعهم خفيّة))[٣].

٥- التقليد المذموم للكبراء:

لئن كان رأس المنافقين عبدالله بن أبيّ هو الذي تولى كبر الإفك يستحكيه ويستوشيه ويشيعه ويذيعه ويجمعه ويفرقه، فقد كان إخوانه في الكفر من المنافقين على شاكلته في بغض النبي r وصحابته y وحبهم شياع الفاحشة في المؤمنين -وإن لم يكونوا على درجة واحدة في ذلك-، فجاء خوضهم في الإفك تقليدًا لكبيرهم وسيّدهم ومشاكلةً لأخلاقه الفاسدة وصفاته الذميمة وموافقةً لمبادئه الرذيلة وتقربًا منهم بذلك إليه، فأطاعوه ومضوا في نشر قالته

---

(١) سورة النساء، آية رقم (١٤١).

(٢) سورة الحشر، آية رقم (١١).

(٣) تفسير سورة النور ص (١٢٠).

السيئة في أوساط المجتمع المؤمن، فكانوا عونًا له على الشر[١].

إن معرفة الداعية لهذه الأسباب التي دفعت المنافقين إلى الخوض في الإفك والطعن في عرض النبي r بما يشتمل عليه ذلك من الأمور التي لا يقبلها الدين الصحيح والعقل السليم والفطرة المستقيمة؛ لتحدوه إلى أن يستنبط من ذلك الفوائد والعبر التي تفيده في نفسه وفي دعوته، ومنها:

- كان النفاق هو السبب الرئيس في الخوض في الإفك، فأول من افترى الإفك هو: رأس المنافقين عبدالله بن أبيّ، ومن نشره وأذاعه وخاض فيه -حقيقة وعمدًا- هم المنافقون، فعلى الداعية أن يحذر كل الحذر من الوقوع في النفاق، قال ابن أبي مليكة[٢]: ((أدركت ثلاثين من أصحاب النبي r كلهم يخاف النفاق على نفسه))[٣]، ولن يصح حذره من النفاق ويكمل حتى يزداد إيمانًا بالازدياد من العلم النافع والعمل الصالح.
- عصر النبي r هو خير عصور هذه الأمة وأفضلها وأشرفها، ولم يكن ذلك مانعًا من وجود النفاق فيه، فيتنبّه الداعية إلى ذلك، ويعلم أن المنافقين موجودون في كل عصر وجيل، وأنهم يَتَسَمَّون ويتشكّلون في كل زمان بما يرون أنه يحقق أهدافهم السيئة، وينوّعون في أساليب التشكيك وبث الشبه والأراجيف بحسب ذلك، ولا يكلون ولا يملون من بذر الفتن في صفوف المؤمنين، فيحمله ذلك على أمرين:

الأول- التمسُّك بالحق المبين اتباعًا ودعوةً، والثبات على ذلك، في نفسه وفي دعوته.

الثاني- الحذر الشديد من كل ما يخالف أمر الله ورسوله وما أجمع عليه أهل العلم -بعامة- أو في ذلك العصر الذي يعيشه الداعية -بخاصة-، ولزوم أهل العلم والسير في

---

(١) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٦/ ٣٦٠)، زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٢٦٠).

(٢) عبد الله بن عبيدالله بن أبي مليكة (زهير) بن عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، القرشي التيمي المكي، أبو بكر وأبو محمد، القاضي الأحول المؤذن الإمام الحجة الحافظ، ولد في خلافة علي أو قبلها، وحدث عن عائشة -رضي الله عنها-، مات سنة سبع عشرة ومائة. انظر سير أعلام النبلاء (٥/٨٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/٢٦) تعليقًا بصيغة الجزم.

ركابهم والرجوع إليهم في الملمّات والصدور عن أقوالهم.

- تجلَّت في حادثة الإفك خطورة أهل النفاق على أهل الإسلام، حيث دسوا سمومهم فيما لا يمكن لمسلمٍ أن يتصوّره، وهو: الخوض في عرض النبي r ، ومع ذلك أحدثوا البلبلة والفرقة في صفوف المسلمين، ووُجِد في المسلمين من اغترّ بشبههم في ذلك، بل كادوا يعصفوا بالوحدة الإسلامية في ذلك المجتمع الذي لا يوجد له مثيل، وهذا يورث الداعية أن يكون على درجة عالية من التفطّن للأساليب الماكرة التي يسلكها المنافقون في كل عصر وجيل، وعدم الاغترار بظاهر أصحابها وزخرف قولهم والظاهر المحتِمِل لأقوالهم وأساليبهم.

- أولو الأمر من أهلِ الولاية وأهلِ العلم الداعين إلى الحق هم الذين ينصر الله بهم دينه ويعلي كلمته، كما قال تعالى: O < = > ? @ A B C D E F G H I J K L M N O P Q RS T U W X Y Z [N[1]؛ ولذا يحرص المنافقون على زعزعة الصف المسلم من خلال الطعن فيهم، فينبغي أن يكونوا على قدر المترلة التي أنزلهم الله إياها حتى لا يؤتى الإسلام من قبلهم، والداعية إلى الله ينبغي له أن يحرص على أن يحفظ نفسه مما حرم الله عليه، ويكون من أهل الطاعات الظاهرة والباطنة، ويتجنّب المشتبهات قدر استطاعته، فإن فعل ذلك لم يجد المنافقون سبيلاً إلى النيل منه، لكنه -مع ذلك- يعلم أنه قد يبتلى في عرضه كما ابتليت عائشة -رضي الله عنها- وصفوان بن المعطل t الطاهران اللذان لم يرتكبا ذنبًا ولا قارفا شبهة، فيسلِّم لقضاء الله وقدره، ويكون فيما حصل في حادثة الإفك نعم التسلية له.

- مرض القلب من أعظم أدواء النفوس الحاملة لها على ما يحرم وما لا يليق، والقائدة لها إلى المهالك، فيتعاهد الداعية قلبَه بكل ما يثبّته على الحق ويزيده قوة من أنواع العبادات القلبية والبدنية من حب الله ومراقبته ورجائه والخوف منه وحسن الظن به والذكر والتفكّر وغير ذلك، كما يحرص على أن يجنبها نقيض ذلك من الأخلاق القلبية والبدنية، ويكثر من محاسبتها.

- عدم صفاء القلب تجاه أهل الإسلام بالبغض أو الحسد أو الحقد -فضلاً عن

---

(١) سورة النور، آية رقم (٥٥).

التربّص بهم، والتآمر ضدهم، ومعونة الأعداء عليهم- من أعظم ما يدخل به الشيطان على العبد، فتكون له السيطرة عليه وتوجيهه إلى ما يخرجه عن كمال الإيمان أو عن الإسلام بعامة، وهذا مما يوصى الداعية بالتنبّه له في كل خطوة من مسيره في الدعوة، فهو داعية إلى دين الله ورضاه وجنته، فينبغي أن يكون قلبه صافيًا تجاه أهل الإسلام عمومًا: بمحبة الخير لهم والصفح عن زلاتهم والدعاء لهم بالهداية والستر عليهم، كما ينبغي عليه أن يكون قلبه صافيًا تجاه المدعووين خصوصًا: فيرفق بهم ويتأنى، ويحسن معاملتهم، ويتحيّن الفرص لدعوتهم، ويكون هدفه هو هدايتهم للحصول على محبة الله ورضوانه.

- الافتتان بالدنيا، والانغماس في ملذاتها، وطلب المنصب والجاه والسعي في ذلك بغير الطرق المشروعة؛ من أعظم الصوارف عن الحق، والموقعات في الموبقات، وهي أيضًا من أعظم أسباب وجود الشطط في نفس الداعية إلى الله تعالى ودعوته، فعليه أن يلزم طريق الدعاة العاملين الذين أخلصوا نياتهم لله، و لم يطلبوا من الدنيا إلا الحلال الذي يعينهم على الحفاظ على عزتهم ومواصلتهم لدعوتهم.

- التقليد المذموم أوقع أهله في الشرك والكفر والكبائر والخوض في عرض النبي r ، وذلك مما يدل على عظيم ضرره وبالغ خطورته، فعلى الداعية أن يتزوّد من العلم النافع الذي يفيده في نفسه وفي دعوته، وأن يتجنب التقليد المذموم بكل صوره وأشكاله، مع إفادته الدائمة من أهل العلم الراسخين، فيرجع إلى فتاواهم وينهل من علومهم ويعرض عليهم ما يُلِمُّ به من حوادث ووقائع يرى أنه لا يحيط بعلمها، فيكون بذلك ممتثلاً قول الله تبارك وتعالى: O * + , - . / 0 N[1].

" " "

(١) سورة النحل، آية رقم (٤٣)، وسورة الأنبياء، آية رقم (٧).

المبحث الثالث

أهداف المنافقين في قصة الإفك

من المعلوم أن المنافقين في عهد النبي r -منذ أن رأوا قوة المسلمين وانتصارهم في غزوة بدر الكبرى(١)(٢)- لم يدخلوا الإسلام عن إيمان ورغبة فيه، بل كان لهم من وراء ذلك أهداف سيئة ومآرب خبيثة، يجمعها: محاربة الإسلام وأهله من داخل صفوفهم، ويتفرع عن هذا الهدف أهداف أخرى يبرز بعضها في موقف، ويبرز بعضها الآخر في مواقف أخرى، إلا أننا من خلال حادثة الإفك يمكن أن نرى أن أهم أهداف المنافقين -إن لم تكن كلها- قد تجلَّت في هذا الخطب الجلل الذي عصف بأهل الإسلام -في ذلك المجتمع- عامة.

ومن خلال بيان أهداف المنافقين في الإفك سيُلحَظ أنها واضحةٌ جليّة لا لَبس فيها، في عصر النبي r وفي كل عصر وجيلٍ بعده، وتلك الأهداف هي:

أولاً- إيذاء النبي r في عرضه الشريف:

بعث الله نبيَّه محمدًا r بالإسلام، وجَعلَ على يديه تبليغ الدين ونصره وجهاد الكافرين باللسان والسنان ودحرهم؛ ولذلك كان من الطرق التي ينفِّس بها أعداء الله عن حقدهم على النبي r ، ومن الأهداف التي يسعَون إليها: إيذاؤه r في نفسه، وهذا الإيذاء قد يقع على الجسد -كما كان يفعله المشركون في مكة-، وقد يقع على النفس بالقدح والطعن في العرض -كما هو الحال هنا في حادثة الإفك، وهو المراد بالحديث هنا-.

وقد بيّن الله في كتابه أنواعًا من الأذى التي كان يتعرض لها النبي r في أثناء دعوته،

---

(١) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء، ينسب إلى بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة، بين بدر والمدينة سبعة برد. انظر: معجم ما استعجم (١/٢٣١)، معجم البلدان (١/٣٥٧). واليوم هي بلدة كبيرة عامرة بأسفل وادي الصفراء تبعد عن المدينة (١٥٥) كيلاً. معجم المعالم الجغرافية ص (٤١-٤٢)، المعالم الأثيرة ص (٤٤-٤٦).

(٢) سبق بيان ذلك في ص(٦١).

ومن ذلك: قوله تعالى: O 5 6 7 N[١]، ((يقول تعالى ذكره لنبيه محمد r: إنا كفيناك المستهزئين يا محمد، الذين يستهزئون بك ويسخرون منك))[٢]، كما توعَّد سبحانه من يتعرض لنبيه r بالإيذاء فقال: Oوَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ N[٣].

وحين نتأمل في حادثة الإفك واختلاق قالة السوء من أهل النفاق نجد أن من أهم أهدافهم فيها: إيذاء النبي r في نفسه، وذلك من خلال اتهامه في عرضه الشريف، والمتمثل في الفرية والبهتان على زوجه أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، وهذا مما بيّنه أهل العلم وقرروه ومن ذلك:

١. قول شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]: ((ومن المعلوم أنه من أعظم أنواع الأذى للإنسان: أن يكذب على امرأته رجل ويقول: إنها بغي، ويجعل الزوج زوج قحبة[٥]، فإن هذا من أعظم ما يشتم به الناس بعضهم بعضا، حتى أنهم يقولون -في المبالغة-: شتمه بالزاي والقاف؛ مبالغة في شتمه هذا))[٦].

٢. وقوله أيضًا: ((كان المنافقون يقصدون بالكلام فيها: الطعن في الرسول r، ولو جاز التزوج ببغي لقال: هذا لا حرج علي فيه، كما كان النساء أحيانًا يؤذينه حتى يهجرهن، فليس ذنوب المرأة طعنًا؛ بخلاف بغائها، فإنه طعن فيه عند الناس قاطبة، ليس أحد يدفع الذم عمن تزوج بمن يعلم أنها بغية مقيمة على البغاء، ولهذا توسل المنافقون إلى الطعن

(١) سورة الحجر، آية رقم (٩٥).
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/ ١٤٥).
(٣) سورة التوبة، آية رقم (٦١).
(٤) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، الحراني، أبو العباس، المشهور بابن تيمية، تقي الدين، شيخ الإسلام، قدوة الأنام، الإمام العلم، ناصر السنة، وقامع البدعة، ذاع صيته وعم الآفاق ذكره، توفي سنة ٧٢٨ هـ. انظر: البداية والنهاية (١٤/١٥٦)، العقود الدرية في مناقب ابن تيمية.
(٥) هي: الفاجرة، وقيل للبغي قحبة لأنها كانت في الجاهلية تُؤْذِن طُلاَبَها بقُحَابِها وهو سعالها. انظر: المحكم والمحيط الأعظم (٣/٢١)، القاموس المحيط ص (١٥٧)، تاج العروس من جواهر القاموس (٣/٥١٨)، لسان العرب (١/٦٦١).
(٦) منهاج السنة النبوية (٤/ ٣٤٥).

حتى أنزل الله براءها من السماء))[١].

٣. والمنافقون إنما قصدوا بالإفك أذيةَ النبي r ، قال السبكي[٢]: ((الأذى على قسمين:

أحدهما- يكون فاعله قاصدا لأذى النبي r ، ولا شك أن هذا يقتضي القتل، وهذا كأذى عبدالله بن أبيّ في قصة الإفك.

والآخر- أن لا يكون فاعله قاصدا لأذى النبي r ، مثل كلام مسطح وحمنة في الإفك، فهذا لا يقتضي قتلا))[٣].

((وقد أسقط المجرمون من أعداء الله من نفسياهم الهابطة في هذا الخبر الكاذب، ومن تصورهم المريض على المؤمنين الأبرار الأطهار؛ ما يستحيل أن يقع مطلقًا، وغاب عنهم أن من عصمة الرسول r أنْ يعصم في عرضه وشرفه وأهله؛ لأن هذا من مكملات التبليغ والأهلية للرسالة؛ إذ إن أي طعن أو قدح في هذا الجانب مخل بشخصيّة الداعية، ومعرض له للجرح الاجتماعي والنبذ. وحاشا لله أن يدور من حول البيت النبوي مثل هذه الرِّيَب، ولكنها نفوس المنافقين المريضة، المملوءة غيظًا وحنقًا على الدين، وجدت في أسلوب الإشاعة الرخيص وسيلة لتوهين قوة الصف الإسلامي وزعزعته))[٤].

ثانيًا- تشويه سمعة النبي r في نفوس أتباعه:

دأب أعداء الله من أهل الكفر على مرّ التاريخ على الوقيعة في رسل الله والاستهزاء بهم بهدف تشويه سمعتهم في نفوس أتباعهم المؤمنين بنبوتهم وبما أرسلهم الله به؛ لعلمهم بخطورة

---

(١) الفتاوى الكبرى (١٨٢/٣).

(٢) علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام، السبكي الأنصاري الخزرجي، أبو الحسن، تقي الدين، شيخ الشافعية في عصره، وأحد الحفاظ المفسرين المناظرين، وهو والد التاج السبكي صاحب الطبقات، ولد في سبك (من أعمال المنوفيه بمصر)، وانتقل إلى القاهرة ثم إلى الشام، وولي قضاء الشام سنة ٧٣٩ هـ، واعتل فعاد إلى القاهرة، فتوفي فيها. الأعلام (٣٠٢/٤).

(٣) فتاوى السبكي (٥٩١/٢).

(٤) الإشاعة ص (٤٥).

ذلك وقوة فتكه؛ فإن من أهم أركان الإيمان بالرسل: الإيمان الجازم المطلق بعلوّ منزلتهم وشرفهم وديانتهم، وتشويهُ ذلك في نفوس أتباع الرسل والأنبياء يؤدي إلى انعدام الثقة بهم، وضعف أو اضمحلال الإيمان بما جاءوا به عن الله تعالى، وهذا هو الهدف الأسمى لأهل النفاق والكفر.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك لنبيّه محمد r فقال: O + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 N[١]. فَـ((هذه تسلية لرسوله محمد r في تكذيب من كذبه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة، في الدنيا والآخرة))[٢]، وبيّن سبحانه في آيات أخرى كيفية استهزائهم[٣]، فمن استهزائهم بنوح: ما ذكره الله عنهم فقال: O ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 N[٤]، ومن استهزائهم بهود ما ذكره الله عنهم من قولهم: O ! " # $ % & ' N[٥]، ومن استهزائهم بصالح: قولهم فيما ذكر الله عنهم: O ^ _ ` a b c d e f g h i j k l N[٦].

وسار المنافقون في عهده r على طريق إخوانهم من الكفرة، فعمدوا إلى أساليب ماكرة؛ لتحقيق ذلك الهدف نفسه، ومن ذلك: ما فعلوه في قصة الإفك، فقد كان من أهدافهم الرئيسة في ذلك: تشويه سمعة النبي r لدى أتباعه من الصحابة y؛ فإنه لا شك في أن ((فجور الزوجة وصمة في الزوج تنفر عنه القلوب وتمنع عن اتباعه النفوس))[٧].

قال ابن القيم: ((فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها؟، لا نصيحة منهم

---

(١) سورة الأنعام، آية رقم (١٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٤٢).

(٣) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ٢١٨).

(٤) سورة هود، آية رقم (٣٨).

(٥) سورة هود، آية رقم (٥٤).

(٦) سورة الأعراف، آية رقم (٧٧).

(٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٨/ ١٢٠).

ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به))[١].

ثالثًا- ارتياب المؤمنين في عرض النبي r :

مما تتبيّن به خطورة أهل النفاق على أهل الإسلام: أنهم قد يسعون -من خلال مكيدة واحدة- إلى تحقيق أكثر من هدف في الوقت نفسه، وقد تكون أهدافهم في ذلك على دركاتٍ بعضها أشدّ من بعض، حيث يسعون إلى أنه إذا لم يتحقق الهدف الأعلى تحقق ما هو دونه -كما هو الحال هنا في قصة الإفك-، وهذا الهدف قد أخبرنا الله في كتابه أنه من أهم أهداف اليهود والنصارى -أيضًا- في حربهم للإسلام فقال تعالى: O ! " # $ % & ' ( ) N[٢] فأخبر سبحانه في هذه الآية أن هذا هو تمام ما يأملونه ويرضون عنه، وقال في آيةٍ أخرى: O ^ _ ` a b c d e f g h N[٣]، فأخبر سبحانه أنهم يودّون لو يردون أهل الإسلام عن الإيمان إلى أي ملل الكفر.

وبيان ذلك: أن تشويه المنافقين لسمعة النبي r بين أتباعه هو من أهم أهدافهم في قصة الإفك -كما تقدم-، لكن لأنهم يعلمون أنهم قد لا يصلون إلى هذا الهدف الأعلى جعلوا دونه هدفًا، وهو: أن يوقعوا الريبة والشك في قلوب المؤمنين تجاه عرض النبي r من خلال زوجه عائشة -رضي الله عنها-، وذلك ظاهر من خلال العبارات السيئة التي استخدمها عبدالله بن أبيّ، حيث دسّ فيها عددًا من الشُّبَه التي تعلَق في القلب وتؤثّر فيه وتوقع فيه الشك والريبة على أقل الأحوال، ومن ذلك: قوله: ((امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت)) [٤]، هذا مع أن المتأمل يرى أن ((الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله r بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا -لو قدر-

---

(١) بدائع الفوائد (٤٨٤/٢).

(٢) سورة البقرة، آية رقم (١٢٠).

(٣) سورة البقرة، آية رقم (١٠٩).

(٤) سبق تخريجه ص (٧٠).

خفية مستورا، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة))[١]، ((فأنى يمكن صدق ما قيل في حق حرم من اصطفاه الله لرسالته وبعثه إلى كافة الخلق ليرشدهم إلى الحق ويزكيهم ويطهرهم تطهيرا !))[٢].

ولا شك أنَّ فتنة الإفك كانت خطيرة على المجتمع المدني المؤمن، وكان بسببها وقوع بعض من الصحابة y في الإفك، مع أنَّ خوضهم كان مجرد كلام بألسنتهم دون ضغينة في القلب، كما بيّن الله سبحانه وتعالى ذلك فقال: Oo p q r s t u v w x N[٣]. ((فَوَجْهُ ذكر Oبأفواهكم N -مَعَ أن القول لا يكون بغير الأفواه-: أنه أريد التمهيد لقوله: Ot u v w x N ، أي: هو قول غير موافق لما في العلم، ولكنّه عن مجرد تصور؛ لأن أدلة العلم قائمة بنقيض مدلول هذا القول، فصار الكلام مجرد ألفاظ تجري على الأفواه))[٤].

ومما يُستشهَد به في هذا المقام -إضافة إلى ما تقدم- ما يلي:

١- قوله تعالى: OB C D E F G H I J K L M N[٥]، فَـــ((هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة -رضي الله عنها- حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيّئ، وما ذكر من شأن الإفك فقال تعالى: OB N يعني: هلا OC D N أي: ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين -رضي الله عنها- OE F G H I N أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى))[٦].

٢- موقف أبي أيوب الأنصاري t مع زوجه أم أيوب -رضي الله عنها-،

(١) تفسير القرآن العظيم (٢٧/٦).
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٨/ ١٢٢).
(٣) سورة النور، آية رقم (١٥).
(٤) التحرير والتنوير (١٨/١٧٨).
(٥) سورة النور، آية رقم (١٢).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٧).

وهو: أن أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري t قالت له امرأته أم أيوب -رضي الله عنها-: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة -رضي الله عنها-؟، قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟، قالت: لا -والله- ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك.

فتلك الآية الكريمة، وهذا الموقف بين هذين الصحابيين الجليلين؛ يظهِران ما أحدثه المنافقون من الريبة في صفوف المسلمين تجاه عرض النبي r ؛ حتى إن الله عاتب أهل الإيمان على عدم مبادرهم إلى إنكار الإفك، كما فعل أبو أيوب الأنصاري وزوجه -رضي الله عنهما-.

رابعًا- صدّ الناس عن الخير الذي أتى به النبي r :

عاش النبي r بين أظهر المشركين أربعين سنة قبل اصطفاء الله إياه بالرسالة، فما رأوا منه إلا الأخلاق الحميدة، فلما أمره الله أن يصدع بالدعوة إلى توحيده U ((صعد الصَّفَا فهتف: يا صباحاه![1]، فقالوا: من هذا؟، فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أنَّ خيلاً تخرج مِنْ سَفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ؟، قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد...))[2]. فبدأ المشركون بعد إعلان كلمة التوحيد والدعوة إليها يُجْرُونَ على النبي r سيلاً من التهم فقالوا عنه إنّه: ساحر، وكاهن، وكذاب، ويعلمه بشر، كل ذلك لوأد دعوته بصد الناس عنها.

وهذا الهدف كان من أهداف اليهود -أيضًا- في عهده r ، لكنهم استخدموه في الجانب الآخر، وهو ردّ من آمن بالنبي r عن الإسلام، كما ذكره الله عنهم في قوله: O , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < N[3]، فَــ((هذه مكيدة أرادوها؛ ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء النهار

---

(١) يا صباحاه: يعني: ينذر قومه. فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٠٣/٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٩/٦)، رقم (٤٩٧١).

(٣) سورة آل عمران، آية رقم (٧٢).

ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيضة وعيب في دين المسلمين))[١].

ولا شك أن من أعظم أهداف ابن أبيّ -لعنه الله- في الإفك الذي اختلقه: حصول الأمرين السابقين كليهما:

١- صرف الناس عن الخير العظيم الذي جاء به محمد r (دين الإسلام).

٢- ردة المؤمنين عن الإسلام.

وهذا -مع ظهوره- يدلّ عليه ويقرِّره جميع ما تقدم ذكره في هذا المبحث، فالنيل من عرض النبي r في أهل بيته، وتشويه سمعته بين أتباعه، وإيقاع الريبة والشك في قلوبهم تجاه عرض نبيهم r ؛ كل ذلك له نتيجتان، وهما:

١- أن من أراد الدخول في الإسلام فإنما يدخل فيه لما يجده من كمال التوحيد والتشريع والأخلاق، وما يتميز به أهله من الشرف والنزاهة والطهر ظاهرًا وباطنًا، فإذا قيل له: إن زوج نبيهم بغيٌّ -وحاشاها- كان ذلك كافيًا في انصرافه عن الإسلام؛ لأنه إذا كان أهل نبي المسلمين كذلك -وحاشاهم- فكيف ببقية المسلمين؟!.

٢- وأن من كان من أهل الإسلام ولم يتمكن الإسلام في قلبه فقد يقع في قلبه تصديق ما قاله أهل النفاق من الإفك في عرض النبي r ؛ فيفقد الثقة في عصمة الله لنبيه r وفيما يبلغه النبي r عن ربه تبارك وتعالى، ويدفعه ذلك إلى الارتداد عن الدين.

خامسًا- التشكيك في أخلاق الإسلام:

كان المجتمع الجاهلي يزخر بأخلاق سيئة لا ترضاها الفِطَر المستقيمة ولا العقول السليمة، ومن ذلك: وأد البنات، وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والميسر، وشرب الخمر، وقطع الأرحام، واحتقار المرأة، والخيانة، والكذب، والغدر، وغير ذلك، ومما يتعلق بالأعراض: طواف بعض الرجال والنساء بالبيت عراة، وانتشار الفاحشة التي كان لها دُور ورُوّاد وكانت مصدرًا من مصادر الاكتساب، وسبي النساء الأحرار بالغزو عدوانًا وظلمًا.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٩).

فبعث الله نبيه محمدًا r بهذا الدين العظيم الذي أزال جميع المظاهر والأخلاق الرديئة، وهدى الناس أفرادًا وجماعاتٍ إلى أحسن الأخلاق وأطيبها وأزكاها، ومنها: الطهر والعفاف والنقاء، وكان ذلك من أعظم أسباب دخول بعض أهل الشرك والكفر في الإسلام عن قناعة ورغبة.

ولذا؛ كان من الأهداف الهامة لأعداء الإسلام من الكفرة والمشركين والمنافقين: إسقاط محاسنه، ونقد مناقبه، وتشويه مزاياه، وإبرازها على نقيض ما هي عليه من الحُسن والطِّيب، كما قال تعالى عن قوم نوح: O فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ © قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ ´ µ ¶ ¸ بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ N[1]، فهذا الاعتراض من الكافرين على نوح u مكابرة وعناد ومكرٌ منهم، بل هو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنهم أتوا إلى بعض محاسن دعوة نوح u فتعرّضوا لها بالنقد والإساءة، فإنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف وأهل العقول ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء، فهم الذين اتبعوا كل شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر، يتقربون إليها ويسجدون لها، فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس؟، وكذلك دعواهم أن أتباع نوح u إنما اتبعوه من غير تفكر وروية، يعنون بذلك: أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، والحق: أن الحق المبين تدعو إليه بدائه العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولي الألباب يعرفونه ويتحققونه، لا كالأمور الخفية التي تحتاج إلى تأمل، وفكر طويل[٢].

وهذا هو عين ما أراده المنافقون من إفكهم في النبي r وزوجه عائشة -رضي الله عنها-، فإن من أهدافهم في ذلك: التشكيك في الأخلاق التي جاء بها الإسلام أو أقرّها، ومنها:

١- الصدق: وذلك أن الطعن في عائشة -رضي الله عنها- وصفوان بن المعطل t بالإفك فيه تكذيب لهما من كونهما ما أتيا إلى الجيش في نحر الظهيرة إلا بعدما

---

(١) سورة هود، آية رقم (٢٧).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣١٦)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (٣٨٠).

وجد صفوانُ أمَّ المؤمنين وحيدة متخلِّفةً عن الجيش.

٢- الأمانة: وذلك من خلال الطعن في أمانة صفوان بن المعطل t ، واتهامه بخيانة النبي r في زوجه وأهله.

٣- إعانة المحتاج: فإن الإفك في عائشة -رضي الله عنها- وصفوان بن المعطل t فيه مدعاة إلى عدم إعانة من كان في حاجة إلى المعونة -خاصة في مثل هذا الموقف الذي كانت فيه عائشة رضي الله عنها-؛ خشيةً من الطعن في العرض بسبب ذلك -كما وقع من المنافقين تجاه صفوان بن المعطل t -.

٤- الوفاء وحفظ الحقوق: فإن الإفك في حق عائشة -رضي الله عنها- يتضمن رميها بعدم الوفاء لزوجها وحفظ حقه عليها، وكذلك رمي صفوان بن المعطل t بالإفك فيه طعنٌ له بعدم الوفاء للنبي r وحفظ حقه في أهله.

٥- حسن الظن بالمؤمن: فإن المجتمع المدني لم يكن يعرف عائشة -رضي الله عنها- وصفوان بن المعطل t إلا بالإيمان والخير والخلق، ومجيئهما إلى الجيش بتلك الحال لم يكن أحدٌ ليحمله إلا على حسن الظن بهما، وأنه ما وقع منهما ذلك إلا لسبب يقتضيه، دون أن يكون في الأمر أي ريبة، لكن المنافقين أرادوا الإخلال بهذا الخلق الرفيع بين المسلمين، من خلال إساءة الظن في عائشة -رضي الله عنها- وصفوان بن المعطل t ، ولذلك قال الله تعالى: O B C D E F G H I J K L M N[1].

٦- دفع الغيبة عن المؤمن: فإن من مظاهر الأخوة الإيمانية أن لا يذكر بعضهم بعضًا في غيبتهم بما يكرهون، والمنافقون أرادوا إفساد ذلك بنشر مقالة السوء بين المسلمين الذين صار بعضهم يتناقلها دون دفاعٍ عن عرض أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وصفوان بن المعطل t ، ولذلك قال تعالى: O o p q r s t u v w x y z { | } ~ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن © بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ N[2].

(١) سورة النور، آية رقم (١٢).

(٢) سورة النور، الآيتان رقم (١٥-١٦).

سادسًا- إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا:

إنَّ من أهم ما يقوم عليه المجتمع المسلم، ويكون من أسباب شرفه وعلوّ شأنه وارتقائه بين الأمم: تمسك أفراده بالأخلاق الحميدة الموافقة للعقل والفطرة والدين.

ومن أهم تلك الأخلاق الحميدة: ما يكون منها متعلقًا بالأعراض كالحياء والشرف والعفة، فبمحافظة المجتمع على هذه الأخلاق يحفظ الله له قوته وتماسكه وترابطه وأمنه ودينه، وقد عُنِي الإسلام بهذا الجانب أَيَّما عناية، فجاء الأمر بغض البصر، وسؤال المرأة المتاع من وراء حجاب، وعدم خضوع المرأة بالقول للرجال الأجانب، وخروجها من بيتها متحجبة محتشمة، وشرع الله أعظم العقوبات لمنتهكي الأعراض من أصحاب الزنا واللواط.

وفي المقابل: نجد أنه ما من أمة من الأمم تخلّت عن جانب العفة والحياء والشرف إلا انتشرت فيها الأمراض وكرهها الناس من أصحاب الفطر السليمة وكان ذلك من أسباب ذهاب دينها وأمنها وقوتها، يدلّ على ذلك: ما قصَّه النبي r من أحوال بني إسرائيل التي كانت من أسباب ذهاب دينهم وأمنهم، ومن ذلك: قوله r : ((إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن الله تعالى أعطى بني إسرائيل ومكنهم وخولهم، حتى عمدت امرأة قصيرة فاتخذت قالبا من خشب، ثم مشت إلى جنب امرأة طويلة، واتخذت خاتما وجعلت له غلقا وطبقا وحشته مسكا))، وفي رواية: ((كان في بني إسرائيل امرأة قصيرة فصنعت رجلين من خشب فكانت تسير بين امرأتين قصيرتين واتخذت خاتما من ذهب وحشت تحت فصه أطيب الطيب المسك فكانت إذا مرت بالمجلس حركته فنفخ ريحه))[١]، وأصرح منه: الرواية الأخرى: ((فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))[٢].

لذلك؛ فقد كان المنافقون في المجتمع المدني حريصين أشدَّ الحرص على إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، فقد كان من صفاتهم المتأصِّلة في نفوسهم ((السرور بأذى المسلمين، والشماتة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٤٠)، وابن حبان في صحيحه (١٢/٤٠٥)، وابن الجعد في مسنده (١٥٦٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/٤٨٥) رقم (٤٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٠٩٨)، (٢٧٤٢).

بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريما من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة))[١]، ((ولقد كان أولئك الأعداء في موقف المتربص المنتظر، يتصيدون المناسبات، ويتحينون الأحايين الملائمة لبث حقدهم الدفين على الإسلام ورسول الإسلام -عليه الصلاة والسلام-، وكلما وقعوا على خبر سيء أذاعوه ونشروه وأشاعوه...، وإذا لم يقعوا على بغيتهم لفقوا خبرًا، قلبوا الحقيقة، أو فسروها على هواهم، وكما يحلوا لهم وتملي شياطينهم)[٢].

وكان من أبرز وسائلهم للوصول إلى ذلك الهدف: الإفك الذي اختلقوه في حق أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وصفوان بن المعطل t ، ولا أدلَّ على ذلك من كتاب الله تعالى، وذلك في قوله سبحانه: O إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ N[٣]، فتضمنت هذه الآية الكريمة عدة دلائل وفوائد في هدف المنافقين من الإفك وطريقتهم في الوصول إلى ذلك:

١- أن من أهداف المنافقين من الإفك: انتشار الفاحشة في الذين آمنوا، وليس مجرد الطعن في أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وصفوان بن المعطل t ، وذلك: أن ((معنى الإشاعة: الانتشار، يقال: "في هذا العقار سهم شائع": إذا كان في الجميع ولم يكن منفصلا، و"شاع الحديث": إذا ظهر في العامة))[٤].

٢- أن الذين اختلقوا الإفك من المنافقين، وتجرؤوا ((على رمي بيت النبوة الكريم، إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المسلمة بالخير والعفة، وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها، وبذلك تشيع الفاحشة في النفوس، ثم تشيع بعد ذلك في الواقع))[٥].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/١١٣).
(٢) الإشاعة، ص (٤٣).
(٣) سورة النور، آية رقم (١٩).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٣/٣٤٧).
(٥) أيسر التفاسير (١/٢٦٩٢).

٣- أن ((هذا ذمٌّ لمن يحب ذلك، وذلك يكون بالقلب فقط، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح، وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة أو يخبر بها محبة لوقوعها في المؤمنين: إما حسدًا أو بغضًا وإما محبة للفاحشة وإرادة لها، وكلاهما محبة للفاحشة وبغضًا للذين آمنوا، فكل من أحب فعلها ذكرها))(١).

٤- ((أن من أحب ذلك فقد شارك في هذا الذم كما شارك فيه من فعله ومن لم ينكره، وليعلم أن أهل الإفك كما عليهم العقوبة فيما أظهروه، فكذلك يستحقون العقاب بما أسروه من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين))(٢)، وأن ((على الإنسان أن يبغض ما أبغضه الله من فعل الفاحشة والقذف بها وإشاعتها في الذين آمنوا، ومن رضي عملَ قوم حشر معهم، كما حشرت امرأة لوط معهم ولم تكن تعمل فاحشة اللواط، فإن ذلك لا يقع من المرأة، لكنها لما رضيت فعلهم عمَّها العذاب معهم))(٣).

سابعًا- إيغار صدور المؤمنين، وإثارة العداوة بينهم، وإيجاد التنازع في صفوفهم، والتفريق بينهم، وزعزعة أمنهم:

أعظم ما كانت تتميز به الجماعة المؤمنة في عهد النبي r: الاجتماع على اتباع الكتاب وطاعة الرسول r، ومِنْ نتائجه، التآلف والترابط والتراحم، وكان ذلك أهم سبب في قوتها وعزتها ومنعتها، وبين الله تعالى تلك النتائج التي امتن بها عليهم فقال: I H O
/ . - , + *) O،(٤)N T S R Q P O N M L K J
،(٥)N D C B @ ? > = < ; : 9 8 7 6 5 4 3 1 0
وكان من حكمة النبي r حين هاجر إلى المدينة أنه آخى بين المهاجرين والأنصار، فأطفأ بتلك الخطوة الرشيدة نار العصبية القبلية والحميّة الجاهلية في مهدها.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٣٣٢).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/٣٤٧).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/٣٤٤).
(٤) سورة آل عمران، آية رقم (١٠٣).
(٥) سورة الأنفال، الآيتان رقم (٦٢-٦٣).

والإسلام يحرص في تشريعه الحكيم على وحدة الكلمة والصف؛ لما في ذلك من مصلحة عظيمة لأمن المجتمع المؤمن بين أفراده أنفسهم ومن فتك أعدائه به، وهذا ما بيّنه الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم فقال تعالى: O A B C D N[(١)]، أي: ((وتمسَّكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عَهده إليكم في كتابه إليكم، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله))[(٢)]. ويؤكد الأمرَ الإلهيَّ تبيينُ النبي r حين قال: ((إنّه ستكون هناتٌ وهناتٌ[(٣)]، فمن أراد أنْ يُفَرِّق أمر هذه الأمَّة وهي جميعٌ فاضربوه بالسيف كائنا من كان))[(٤)]. فهذه النصوص تبيّن بجلاء خطورة الإخلال بالنظام العام والعبث بأمن المجتمع، كما بيّنَ النص النبوي الحزم في عقوبة العابث بأمن المجتمع المؤمن.

وقد شَرِقَ عدوَّ الله عبدَالله بن أبي بن سلول بما رأى من ود وحب بين المؤمنين، وكيف أزال الله بنبيه تلك الحرب الضروس المتأججة سنين بين قبيلتي الأوس والخزرج، والتي حصدت أرواح كبارهم، وزاد في حقده جمع كلمة الأوس والخزرج تحت راية التوحيد، فسلك عدو الله ومن معه من المنافقين كلَّ ما يرون أنه يمكّنهم من إزالة تلك الأخوة، وإبدال الاختلاف والضغينة والفرقة بها، ومن ذلك: مسلك إيقاد الحمية القبلية، والنعرات الجاهلية؛ للسعي في التفرقة بين المؤمنين، فلما أثار الفتنة في غزوة بني المصطلق بقوله الأَفِن: ((والله ما مَثلنا ومَثَل محمد إلا كما قال القائل: "سمّن كلبك يأكلك"، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ))[(٥)]. تعامل النبي r مع فعل عدو الله برويّة وفطنة حتى هدأت الفتنة، وزال شرها.

---

(١) سورة آل عمران، آية رقم (١٠٣).
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/ ٦٤٣).
(٣) هنات: الفتن والأمور الحادثة. انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٢/٢٤١)، لسان العرب (١٥/٣٦٥).
(٤) أخرجه مسلم (٦/٢٢) رقم (٤٩٠٢).
(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/ ٦٦٤).

و لم تطب نفس عدو الله ومن معه من المنافقين حتى ترصّدوا لتفكيك المجتمع المؤمن بالإفك الذي أشاعوه في حق أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وصفوان بن المعطل t ، فنتج عن ذلك الشرُّ العظيم، والذي كاد يقتتل بسببه فضلاء الصحابة y ، فإننا حين نتأمل في هذا ((الحادث الذي أهم المسلمين، وكاد يوقع الفتنة بينهم، والذي أنزل الله فيه قرآنًا؛ نجد أنه حادث مهم يمس أمن الجماعة ونظامها))[1]، ((فقد قذف جماعةٌ زوجَ النبي r وخاضوا في عرضها؛ وآذوها وآذوا النبي r بالإفك الذي قالوا؛ حتى اضطرب المجتمع الإسلامي اضطرابًا شديدًا؛ وكاد المسلمون يقتتلون))[2]، ((ولولا تماسك البنية الاجتماعية -بعد فضل الله- لكان لمكر هؤلاء شأن آخر، ولكنَّ التهذيب الإسلامي الرفيع للمجتمع وتأكيد الإسلام على وحدة كلمة المؤمنين وطاعة الرسول r فوّتَ على أعداء الله أغراضهم))[3].

ومما يؤكد أن هذا الهدف كان من أهداف المنافقين في قصة الإفك: أن المنافقين في غزوة بني المصطلق لعبوا ((دورين هاميّن كان لهما أثر كبير وهزة شديدة كادت أن تؤدي إلى فتن مستعرة لولا أن الله عصم المسلمين، ومنَّ عليهم، ورد كيد المنافقين إلى نحورهم وفضح الكاذبين:

أما الدور الأول- فهو بذر الفتنة بين المهاجرين والأنصار حتى كادوا يقتتلون، ومحاولة توسيع شقّة الخلاف بينهم لسبب تافه عارض.

الدور الثاني- اتهام السيدة عائشة المبرأة المطهرة زوج الرسول r إفكًا وبهتانًا.

وكان الدوران كلاهما بعد انتهاء الحرب وانتصار المسلمين))[4].

إن هذه الأهداف التي أراد المنافقون الوصول إليها في قصة الإفك لتستوقف الداعية عندها؛ ليتأمل فيها؛ فيستخلص منها الدروس والعبر، فَـ((قد حرص أعداء الإسلام حديثا كما حرص أسلافهم قديما على الكيد للإسلام، فسلكوا في الماضي كل السبل؛ لصد

---

(١) انظر: التشريع الجنائي في الإسلام (١/٢٩٥).

(٢) المصدر السابق (١/٢٩٤).

(٣) الإشاعة، ص (٤٣).

(٤) النفاق والمنافقون في عهد النبي r ص (١٨٣).

المسلمين عن دينهم وإبعادهم عن معينه الصافي وتشريعه الحكيم، وحاولوا أن يصرفوا المسلمين عن دينهم وكتابهم، ويسلكوا تلك السبل التي تستوجب غضب الله وعقابه، حاولوا ذلك بكل ما أوتوا من قوة وخبث، ولكن الله حفظ دينه وكتابه ورد كيد أعداء هذا الدين والمتربصين به من الكفار والمنافقين في نحورهم، وبقيت شريعة الله محفوظة لم يؤثر فيها كيد الكائدين ومكر الماكرين.

وقد سلك هؤلاء الأعداء طرقا أخرى يرون أنها أجدى لبلوغ أهدافهم ونيل مآربهم الخبيثة، واستغلوا كافة الوسائل التي لم تكن موجودة عند أسلافهم، وخططوا ونظموا للدعوة إلى باطلهم وكفرهم وإلحادهم، ووجدوا من ضعاف النفوس وقليلي الإيمان ممن ينتسبون للإسلام من المنافقين والمأجورين من يدعو إلى باطلهم وينفذ مخططاتهم، واتخذوا منهم معاول هدم للإيمان والأخلاق الفاضلة والمثل العليا التي جاءت بها الشريعة السمحة العادلة الكفيلة بمصالح البشرية في معاشها ومعادها))(١).

ومن تلك الدروس الدعوية ما يلي:

- أنَّ من أهداف المنافقين إيذاء الدعاة إلى الكتاب والسنة، وهذا الإيذاء قد يكون في الأجساد، وقد يكون في الأعراض من خلال الطعن في عرض الداعية نفسه بما هو بريء منه، فمما ينبغي للداعية التنبه له في هذا الصدد:

١- أن يحرص على الإخلاص والالتزام بالحق في أقواله وأفعاله ظاهرًا وباطنًا، ويربي أهل بيته على ذلك؛ حتى لا يكون لأهل النفاق إليه ولا إلى أهله سبيل بالطعن والتجريح.

٢- التأسي برسول الله ﷺ في صبره على إيذاء المنافقين له بالطعن في عرضه الشريف.

٣- أن يعلم ويوقن:

أ- أن ما يُؤذى به الداعية إلى الله في عرضه ليس من شرطه أن يكون له وجه أو شبهة، بل قد يكون باطلاً محضًا وكذبًا صرفًا.

ب- أنه قد لا يكون للداعية فيما رُمِي به من الإفك والزور أي تسبُّب، بل يكون

---

(١) شريعة الإسلام وواجب العلماء نحوها، مجلة البحوث الإسلامية، العدد الأول، صفحة ١٢.

محض اعتداء من أهل النفاق.

ج- أن أقلّ ما يريده المنافقون من رمي الداعية بالإفك والزور هو تشكيك الناس في أخلاقه وصدقه ونزاهته وأمانته.

وذلك كله يحدوه إلى:

١) الاستمرار في الثبات على الكتاب والسنة والدعوة إليهما دون تراجع.
٢) الحذر من أن تضعف ثقته بنفسه أو بالحق الذي أكرمه الله به.
٣) الحرص على كسب ثقة الجماعة المؤمنة بالعلم النافع والعمل الصالح والدعوة الصحيحة.
٤) تربية المدعويين على عدم الاغترار والانخداع بما يُرمى به الدعاة إلى الكتاب والسنة من الزور والباطل.

- إذا كان الداعية إلى الكتاب والسنة ممن كتب الله له القبول بين المدعويين، ووُجِد له من يتبعه ويتأثر به؛ فليعلم أنه ربما يصير هدفًا للمنافقين، فقد يتقصّدونه بالإفك والزور والبهتان، لا لقصد الطعن في شخصه، وإنما لصدّ الناس وصرفهم عن الحق الذي معه، فعليه أن يُعِدّ العدة لذلك، فيهيئ نفسه لمثل هذه المواقف بالعلم النافع والإفادة من أهل العلم والخبرة في العلم والدعوة، ثم عليه أن يدافع من أجل رفع راية الحق والذبّ عنه، فلا يكون كل همه هو الدفاع عن نفسه فحسب.

- إذا أدرك الداعية أن من أهم أهداف المنافقين من الإفك: التشكيك في الأخلاق الحميدة التي جاء بها الإسلام، ونشر الفواحش والمنكرات في المجتمع المسلم، وذلك من خلال زعزعة ثقة المؤمنين بأخلاقيات الدين من صدق وأمانة وعفة وغيرها، وإيهام المجتمع المؤمن بأن الفاحشة منتشرة فيه ولا حرج في ارتكابها؛ دعاه ذلك إلى بذل الجهد في تربية المدعويين على الأخلاق الحسنة والتمسك بها والثبات عليها مهما كانت الصوارف عنها، كما يدعوه إلى تحذير المجتمع من كل ما هو على خلاف ذلك من الأخلاق السيئة التي تفسد الأفراد والجماعات مهما كانت المغريات فيها، وخاصة تلك التي تمس جانب العرض والشرف والحياء والعفة.

- إيغار صدور المؤمنين بعضهم على بعض، وتفتيت أو تفكيك المجتمع المسلم والسعي في الإخلال بنظامه العام وأمنه الديني والاجتماعي والاقتصادي، وزرع الفتنة بين

أفراده باستخدام الإعلام والدعاية الكاذبة؛ كل ذلك هو من أهم أهداف المنافقين في الإفك الذين يرمون به الدعاة إلى الكتاب والسنة، وعلم الداعية بذلك يجعله في بناءٍ مستمر متواصل لجانب التأسيس والوقاية والعلاج، من خلال ما يأتي:

١ - أن ينقّي قلبه من الضغائن والأحقاد على إخوانه المؤمنين، ويسعى إلى أن يكون ذلك شعار كل مؤمن.

٢ - أن يحرص على لزوم جماعة المسلمين وولاة أمرهم علماء وولاة، ويغرس في نفوس المدعويين ذلك بأدلة الكتاب والسنة.

٣ - أن يواجه الشائعات الباطلة والدعوات المضللة والأكاذيب المرجِفة بالحكمة مع بيان ما فيها من مخالفة الحق والخروج عنه.

٤ - أن يدافع عن الذين آمنوا، وبخاصة أهل العلم الدعاة إلى الكتاب والسنة الذين رُموا في أعراضهم بالإفك دون وجه حق.

^ ^ ^

الفصل الثاني

الآثار النفسية على الداعية من خلال حادثة الإفك

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أثر المواساة على الحالة النفسية للداعية.

المبحث الثاني: أثر ضبط النفس وعدم الغضب و الرد المنطقي للداعية.

المبحث الثالث: الأثر النفسي على الداعية من شدة البلاء.

المبحث الأول

أثر المواساة على الحالة النفسية للداعية

حرص الإسلام من خلال ما تضمنه من أخلاق رفيعة، وآداب عظيمة على تميّز المجتمع المسلم بالترابط والتكاتف والتكافل والتعاون بين أفراده. يدل على ذلك: قوله تعالى: N e d c b a O[١]، وقوله r: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضا)) وشبّك بين أصابعه[٢].

ومن أظهر معالم إيجاد ذلك الترابط بين أفراد المجتمع المسلم وعلامات وجوده: المواساة بين بعضهم بعضًا وقت الشدائد والمصائب والملمّات.

و(المواساة) في اللغة: مَصدر الفِعلِ الثلاثيِّ المزيد (آسَى)، يقال: (آسى بينهما، يؤاسي ويواسي، مؤاساةً ومواساةً).

وأصل مادته: الهمزة والسين والواو؛ وهو أصل واحد يدل على المداواة والإصلاح، يقال أسَوتُ بين القوم، إذا أصلحتَ بينهم[٣].

و(آسيتُه) بمالي، مواساة: أنلتُه منه، وجعلته إسوتي فيه، وقيل: لا يكون ذلك إلا من كفاف، فإن كان من فضلة فليس بمؤاساة[٤]، و(آسى) فلانًا بمصيبته: عزَّاه وسلاه[٥]. و(تآسوا): آسَى بعضُهم بعضًا[٦]، و(أَسَّيْته)، أُؤَسِّيهِ، تأسيةً: عزَّيته، و(تأسَّى): تَعَزَّى[٧].

---

(١) سورة التوبة، آية رقم (٧١).

(٢) أخرجه البخاري (١/١٨٢) رقم (٤٦٧) وبرقم (٢٣١٤) (٥٦٨٠)، ومسلم (٤/١٩٩٩) رقم (٢٥٨٥).

(٣) معجم مقاييس اللغة (١/١٠٥، ١٠٦)، مفردات ألفاظ القرآن (١/٣١).

(٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/٢٢٦٩)، المحكم والمحيط الأعظم (٨/٦٣٥).

(٥) المعجم الوسيط (١/١٨).

(٦) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/٢٢٦٩)، القاموس المحيط ص (١٦٢٦).

(٧) العين (٧/٣٣٢)، القاموس المحيط ص (١٦٢٦).

و(المواساة) بالمعنى العام هي: "المشاركة والمسَاهَمَة في المعَاش والرزق"[١]، أو: "مشاركة نحو الأصدقاء والأقارب فيما بيده -من نحو مال-"[٢]، ولعلَّ التعريف المختار هو: "المواساة: أن يُترِل غيره مترلة نفسه في النفع له والدفع عنه"[٣].

وقد عُنِي الإسلام بالمواساة أيّما عناية، وحرَص على تحلِّي أفراد المجتمع المسلم بها، حتى جعلها النبي r من ركائز المجتمع المسلم كما في قوله: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى))[٤]، كما جعل r هذا الخلق النبيل من أعظم الصفات التي تميّز بها أبو بكر الصــديق t أفضل هذه الأمة بعد نبيها، وذلك في قوله: ((إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق. وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟))[٥]، وبيّن r لأمته ذلك الثواب العظيم الذي يحصل عليه من واسى مؤمنًا في مُصابه فقال: ((من عزى أخاه المؤمن في مصيبته كساه الله حلة خضراء يُحْبَر بها يوم القيامة))، قيل: يا رسول الله، ما يُحْبَر؟ قال: ((يُغْبَط بها يوم القيامة))[٦].

وإنما كان للمواساة هذه المترلة الرفيعة في الإسلام؛ لما تتضمنه من معاني وأخلاق سامية نبيلة، من أبرزها: الرحمة والإحسان والكرم والتواضع والرفق، هذا بالإضافة إلى ما تحدِثه من أَثَرٍ نفسيٍّ حسَنٍ في نفس المواسِي والمواسَى.

وعند التأمل في أحداث واقعة الإفك نجد أن المواساة قد تجلَّت بين أفراد المجتمع المدني في أبهى الحُلَل وأنصعها، وأجْلى الصُّوَر وأشدّها إشراقًا، وكان لها الأثر الطيّب المبارك العظيم في الحالة النفسية لجميع من أُصِيب بهذا الإفك المبين، سواء من اختُلِق الإفك في حقه أو من

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥٠/١).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص (٦٨٣).

(٣) التعريفات ص (٣٠٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٩٩/٤) رقم (٢٥٨٦).

(٥) أخرجه البخاري (١٣٣٩/٣) رقم (٣٤٦١).

(٦) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٣٩٧/٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢١٨/٥٢)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٢١٧/٣).

كان له تألُّمٌ من وقوعه ولو كان مجرد فرد من أفراد المجتمع.

كما سيظهر من خلال وقائع الحادثة أن المواساة وقعت من أطرافٍ عديدة وبوسائل وكيفيّاتٍ متعددة، كما أننا سنلحظ أن بعض الأطراف المعنيّة بالحادثة كانوا مواسِين في حالٍ ومواسَين في حالٍ أخرى.

ومن ثَمَّ؛ فسيكون عرض أثر المواساة على الحالة النفسية للداعية في هذا المبحث من خلال جانبين:

الأول- أثر المواساة على الحالة النفسية للداعية من خلال الأطراف التي وقعت منها المواساة:

إذا تأملنا في هذه الحادثة سنجد أنَّ الأطراف التي وقعت منها المواساة هم:

أولاً- الزوج:

كان تعامل النبي r مع زوجه عائشة -رضي الله عنها- تعامل المحب مع حبيبه في حال الفرح والألم، فكان معها في حال الألم مواسيًا رفيقًا رحيمًا، فعندما اشتكت ألمًا وقالت: وارأساه!، قال النبي r : ((بل أنا وارأساه))[(١)]، فواساها من جهتين:

الأولى- يقول لها: الوجع القوي بي أنا دونك، فتأسَّي بي فلا تشتكي. فواساها من جهة أنه أخبرها بأن ما فيه من الألم أقوى مما بها منه؛ وذلك من أدعى ما يُحدِث الصبر والرضا في نفس المواسَى.

والثانية- أنها كانت حبيبة رسول الله r ، بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق، فلما اشتكت إليه رأسها أخبرها أن بِمُحِبِّها من الألم مثل الذي بها. فواساها من جهة أنه أخبرها بأنه يوافقها في أحوالها كلها، فيتألم بتألمها ويسر بسرورها، حتى إذا آلمها عضو من أعضائها آلمه ذلك العضو بعينه. وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة، ففيه أنه يُعْلِمها بصدق

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ١٢٣) (١٣/ ٢٠٥) (٥٦٦٦، ٧٢١٧)، من حديث القاسم بن محمد قال: قالت عائشة... فذكره مطوَّلاً.

محبته إياها، أي: انظري قوة محبتي لك كيف واسيتك في ألمك ووجع رأسك، فلم تكوني متوجعة وأنا سليم من الوجع، بل يؤلمني ما يؤلمك كما يسرني ما يسرك[١].

وفي هذا الإفك المفترى تجسَّد معنى المواساة وأثرها النفسي العظيم في رفقه r ولينه مع زوجه عائشة -رضي الله عنها- حبيبته وابنة حبيبه، فتروي لنا أمُّ المؤمنين ما وقع لها من مواساة النبي r لها، لتبيّنَ لنا -بعد ذلك- ما أورثته تلك المواساة من أَثَر حَسَنٍ على نفسها، فتقول: ((وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله r اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي!، إنما يدخل عليَّ رسول الله r فيسلم ثم يقول: "كيف تيكم؟"، ثم ينصرف!، فذاك الذي يريبني!، ولا أشعر بالشر)).

إن المواساة من الزوج في هذا الموقف من أعظم وأنفع ما يكون به الأثر النفسي على الزوجة التي طُعِن في عرضها وهي الطاهرة الشريفة، فكان النبي r -مع ما هو فيه من ألمٍ شديدٍ من جرّاء ذلك الإفك، وصبرٍ عظيمٍ على البلاء- لا يفوته أن يذكر زوجه عائشة -رضي الله عنها- فيدخل عليها وهي مريضة فيسأل عن حالها ويقول: ((كيف تيكم؟))، ولا يتجاوز هذه الكلمة مع شدّة الكرب وهول الحدث، مما أثّر على نفس أم المؤمنين فلم تشعر بما يُقال فيها من الإفك، فضلاً عن أن تجد من زوجها ما يمكن أن يقع من بعض الرجال تجاه زوجاتهم في مثل هذه الحادثة من الخذلان أو التقريع أو المحاسبة على ما لم ترتكبه البتة؛ ولذلك قالت: ((ولا أشعر بالشر)).

ثانيًا- الوالدان:

عندما أتت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- تستيقن الخبر من أهلها أرادت أمها (أم رومان)[٢] -رضي الله عنها- أن تخفف عنها وقع المصيبة، وتواسيها في بلائها العظيم فقالت: ((يا بنيّة، هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قَطُّ وضيئة عند رجل

---

(١) انظر: الروح ص(٢٥٨).

(٢) أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب، امرأة أبي بكر الصديق ووالدة عبد الرحمن وعائشة، اختلف في اسمها، فقيل: زينب، وقيل دعت، واختُلِفَ في سنة موتها فقيل: توفيت في عهد النبي r سنة ٦، وقيل سنة ٤، وقيل ٥ هـ. الإصابة في تمييز الصحابة (٨/٢٠٦).

يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها)).

وهذه المواساة لها أثرها الكبير في نفس البنت الشريفة التي لا تكاد تصدِّق أنها قد رُمِيت بذلك الإفك المبين، فإن البنت في هذا الموقف تجد من والدتها المواساةَ التي تضمّ في طيّاتها مجامع صفات الأمومة الحانية الصادقة، من: تهدأتها، والثناء عليها بما فيها من صفات الكمال، وبيان السبب الذي من أجله رُمِيت بما رُمِيت به. ولا شك أن ذلك سيكون له الأثر البالغ في طمأنينتها وسكينتها وإحساسها بأن والدتها تقف معها في محنتها وتثق في براءتها.

وكان أبو بكر الصديق t يتجلّد مع هذا الحزن والأسى الذي له نصيب عظيم منه، فيترل من أعلى البيت ويعلم من زوجه أم رومان -رضي الله عنها- أن ابنتهما قد عرفت الخبر وتألمت أشدّ الألم من ذلك، فتدمع عيناه.

وفي هذا الموقف مواساة عظيمة من الوالد لابنته، فهو يعلن أمامها ببكائه ودمعته أنه يشاركها حزنها ويتألم لألمها، وهذا من أقوى ما تقوى به نفس المواسَى.

ثالثًا- القريب:

دعا رسول الله r علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد -حين استلبث الوحي-؛ يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، فقال له ابن عمه علي بن أبي طالب t : ((يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير! وإن تسأل الجارية تصدقك)).

فَـــ((هذا الكلام الذي قاله علي t حمله عليه ترجيح جانب النبي r لما رأى عنده من القلق بسبب القول الذي قيل، وكان r شديد الغيرة، فرأى علي t أنه إذا فارقها سكن ما عنده من القلق بسببها إلى أن تتحقق براءتها فيمكن رجعتها...

وقال الثوري[1]: رأى ذلك هو المصلحة في حق النبي r واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه، فبذل جهده في النصيحة لإرادة راحة خاطره r .

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب الثوري، أبو عبد الله، الإمام، العلم، المحدث، الزاهد، أحد الأئمة المجتهدين. توفي سنة ١٦١هـــ. انظر: وفيات الأعيان (٢/٣٨٦)، سير أعلام النبلاء (٧/٢٢٩)، تهذيب التهذيب (٤/ ٩٩).

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة[١]: لم يجزم علي بالإشارة بفراقها؛ لأنه عقَّب ذلك بقوله: "وسل الجارية تصدقك"، ففوض الأمر في ذلك إلى نظر النبي r ، فكأنه قال: إن أردت تعجيل الراحة ففارقها، وإن أردت خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطلع على براءتها؛ لأنه كان يتحقق أن بريرة لا تخبره إلا بما علمته، وهي لم تعلم من عائشة إلا البراءة المحضة))[٢].

وبيّن ابن القيم أن مراد علي t بذلك هو: أن ((يَتَخَلَّصَ رسولُ الله r من الهَمّ وَالغَمّ الذي لَحِقَه من كلام الناس، فَأَشار بِحَسْمِ الدّاء))[٣].

فهذا موقفٌ وقعت فيه المواساة للنبي r من ابن عمه علي بن أبي طالب t ، وهي -كما ذكر أهل العلم- مواساة بليغة جمع فيها علي t بين الرغبة في إراحة النبي r من الغم والهم الذي لحقه، وبين إثبات براءة عائشة عن طريق رجوع النبي r إلى بريرة، وقد كان لها الأثر الحَسَن على نفس النبي r ؛ إذ إنه r بسماعه هذه المواساة من ابن عمه بادر إلى فعل ما أشار عليه به وهو سؤال بريرة عن عائشة -رضي الله عنهما-.

رابعًا- الصَّدِيق:

بينما كانت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- في بيت والديها في حالة من البكاء الشديد -وهما جالسان عندها-، استأذنت عليها امرأة من الأنصار؛ فأذِنَت لها؛ فجلست تبكي معها.

فواست هذه الصحابيةُ الجليلةُ أمَّ المؤمنين بزيارتها والجلوس بجانبها ومشاركتها في البكاء، ولا شك أن هذه المواساة كان لها الأثر النفسي على عائشة -رضي الله عنها-، فبهذه المواساة تشعر أن المُصاب الذي أصابها -رضي الله عنها- لا يعنيها وحدها، بل يعني المؤمنين والمؤمنات معها.

---

(١) عبد الله بن أبي جمرة، السبتي، المالكي، خطيب غرناطة، أبو محمد، ولي خطابة غرناطة في أواخر عمره، فاتفق أنه صعد المنبر يوم الجمعة فسقط ميتا وذلك في سنة عشر وسبعمائة. مات في حدود سنة عشر وسبعمائة. ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد (٢/٧٠).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٦٨)، وانظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٨/ ١١٧).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٢٦٠).

خامسًا- قَرَابة الخائضين في الإفك:

ممن خاض في الإفك صحابي جليل شهد بدرًا، هو: مسطح بن أثاثة t ، فكانت أمه -رضي الله عنها- تتألم من الإفك الذي تسمعه في أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- من جهتين: من جهة الإفك في حق عائشة -رضي الله عنها- مع غفلة أم المؤمنين عما يقال فيها من أصحاب الإفك، ومن جهة أن ابنها ممن خاض فيه، وبينما كانت ذات ليلة تسير مع أم المؤمنين -رضي الله عنها- عثَرت فدعت على ولدها فقالت: ((تعس مسطح!)).

فكانت هذه مواساة من أم مسطح لعائشة -رضي الله عنهما- من جهتين: من جهة أن ((تتوصل إلى إخبار عائشة بما قيل فيها وهي غافلة))[١]، ومن جهة أن ((تهون عليها ما سمعت))[٢]. وهي مواساة عظيمة لها أثرها في نفس عائشة -رضي الله عنها-؛ إذ من أبلغ المواساة أن يعلم المصاب أن قرابة من تسبّب له في وقوع مصيبته يقفون معه ويساندونه ويشهدون له بالبراءة مما قيل فيه، وهم -في الوقت نفسه- يشهدون على قريبهم بالخطأ والزلل، بل قد يدعون عليه.

سادسًا- الحاشية كالمولى والخادم:

استشار النبي r علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد -رضي الله عنهما- في فراق أهله، فقال له مولاه أسامة t : ((يا رسول الله؛ هم أهلك، ولا نعلم -والله- إلا خيرًا)).

فهذه مواساة للنبي r من مولاه أسامة بن زيد t ، وقد كان لها أثرٌ حميدٌ في نفس النبي r ، حيث إنها أكّدت له براءة زوجته عن طريق مولاه الذي هو حِبُّه وابنُ حِبِّه، ولا سيما أن أسامة t أكد قوله بالحلف بالله تعالى.

وبعد أن قال علي بن أبي طالب t للنبي r : ((وإن تسأل الجارية تصدقك))، توجَّه النبي r إلى بريرة -رضي الله عنها- فقال لها: ((أَيْ بَرِيرَة، هل رأيتِ من شيءٍ يَرِيبُكِ؟، قالت له بريرة: والذي بعثك بالحقّ ما رأيتُ عليها أمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ، غيرَ أنَّهَا جاريةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تنام عن عَجين أَهلِهَا فَتَأتِي الدّاجِنُ فَتَأْكُلُه)).

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٦٦).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (٧/ ٣٧٠).

فجاءت المواساة من بريرة -رضي الله عنها- (مولاة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-) كالماء البارد والنسيم العليل على نفس النبي r، فبريرة من ألصق الناس بعائشة -رضي الله عنهما-، وهي أيضًا تعلم عنها ما لا يعلمه غيرها، ومع ذلك جاءت شهادتها مشرقةً بالشهادة لعائشة -رضي الله عنها- بالبراءة.

سابعًا- القرين:

كان رسول الله r يسأل زينب بنت جحش -رضي الله عنها- عن أمر عائشة -رضي الله عنها-؛ فقال: يا زينب، ماذا علمتِ أو ما رأيتِ أو ما بلغكِ؟! فقالت: يا رسول الله؛ أحمي سمعي وبصري، واللهِ ما علمت عليها إلا خيرًا.

فزينب بنت جحش -رضي الله عنها-، وهي التي كانت تسامي عائشة -رضي الله عنها- عند النبي r (أي: تطلب من العلو والرفعة والحظوة عند النبي r ما تطلب عائشة -رضي الله عنها-، أو تعتقد أن الذي لها عند النبي r مثل الذي لعائشة -رضي الله عنها- عنده)[(١)]؛ واسَت قرينتها عائشة -رضي الله عنها- أعظم المواساة، فقد كانت تحمي سمعها وبصرها من أن تنسب إليهما ما لم تسمع وتبصر، وتشهد لقرينتها بالخير فتقول: ((واللهِ ما علمت عليها إلا خيرًا))، وهذه المواساة أورثت الأثر الطيّب في نفس عائشة -رضي الله عنها-، فقد كانت تذكر هذا الموقف لزينب -رضي الله عنها- بالمدح والثناء وتزكيها بالخير والديانة فتقول: ((عصمها الله بالورع)): أي: حفظها الله ومنعها بالورع والمحافظة على دينها مما تُخشَى سوءُ عاقبته[(٢)].

الثاني- أثر المواساة على الحالة النفسية للداعية من خلال الوسائل والكيفيّات التي وقعت بها المواساة:

وقعت المواساة في حادثة الإفك بأنواع ووسائل وكيفيّات متعددة متنوعة، ولعل من أسباب ذلك: هول الحادثة وشدة وقعها وأليم تأثيرها في النفس، فناسب أن يكون للمواساة

---

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٨/٨).

(٢) انظر: المصدر السابق (٤٧٨/٨).

عليها من القوة والتأثير ما يمكن أن يخفف من المُصَاب ويهدئ من الروع، وهذا هو ما كان -ولله الحمد-، فإن تنوّع وسائل المواساة كان له الأثر القويّ الحسَن في نفس النبي r ونفوس زوجه عائشة ووالديها وصفوان بن المعطل y؛ صبرًا وحلمًا ورفقًا وثقةً وحسنَ ظنٍّ بالله وترقُّبًا لفرجه.

ويمكن أن نعرِض أنواع المواساة التي وقعت في هذه الحادثة كما يأتي:

أولاً- المواساة بالكلمة:

١ – التزكية والثناء الحسن:

رمى المنافقون عائشة -رضي الله عنها- بالإفك في عرضها وشرفها، وهي الطاهرة العفيفة الشريفة؛ فوَجَدت المواساة من بعض الصحابة y عن طريق تزكيتهم لها وثنائهم عليها وشهادتهم لها بالخير وبعدها عن المعائب -فضلاً عما رُمِيت به من الإفك-:

أ- فقالت بريرة -لما سألها النبي r: ((أي بريرة؛ هل رأيتِ من شيء يريبك من عائشة؟))-: لا -والذي بعثك بالحق-، إن رأيت عليها أمرًا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن؛ تنام عن عجين أهلها؛ فتأتي الداجن فتأكله)). وفي روايةٍ: ((سبحان الله!، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر)) (١). وفي رواية: ((والله لعائشة أطيب من طيب الذهب، وما بها عيب إلا أنها ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل عجينها ! ولئن كانت صنعت ما قال الناس ليخبرنك الله. قالت: فعجب الناس من فهمها (وفي رواية: فقهها))) (٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٦/١٣٥) رقم (٤٧٥٧) معلَّقًا بصيغة الجَزْم، ومسلم (٨/١١٨) رقم (٧١٩٨)، من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها-.

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١١٣١)، والطبري في تفسيره (١٧/ ٢١١) -واللفظ له-، من رواية ابن حاطب عن علقمة وغيره عن عائشة -رضي الله عنها-. وإسناده صحيح.

وأخرجه الواقدي في المغازي (٢/ ٤٣٠)، من حديث عبَّاد بن عبدالله بن الزبير عن عائشة -رضي الله عنها-.

ففي جواب بريرة -على اختلاف ألفاظه- مواساةٌ بالتزكية لعائشة -رضي الله عنها- والثناء عليها بالخير والبعد عن المعائب:

ففي الرواية الأولى: شهدت بأنها لم ترَ على عائشة أيَّ شيء مَعيب، ثم استثنت فقالت: ((غيرَ أنّهَا جاريةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تنام عن عَجين أَهلِهَا فَتَأتِي الدّاجِنُ فَتَأْكُلُه))، فَـــ((هذا من الاستثناء البديع الذي يراد به المبالغة في نفي العيب، فغفلتها عن عجينها أبعد لها من مثل الذي رميت به، وأقرب إلى أن تكون من الغافلات المؤمنات))[(١)].

وفي الرواية الثانية: أنها قالت: سبحان الله!، وذلك تأسِّيًا منها بقول الله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾[(٢)]، وذلك أنهم صرحوا لها بما رُمِيت به عائشة من الفحش، فأعظمت ذلك وأنكرته، وسبّحت الله إعظامًا من نسبة السوء إلى عائشة -رضي الله عنها- وتحقيقًا لبراءتها، فكأنها قالت: التتريه والبراءة لله من أن يجري ذلك على مثل عائشة وأن يوقعه في الوجود[(٣)(٤)].

وفي الروايتين الثالثة: ذكرت أنها لا تعلم من عائشة إلا الخلوص من العيب كما أنه لا يعلم الصائغ من الذهب الأحمر إلا الخلوص من العيب.

ب- وكذلك الحال مع أسامة بن زيد -رضي الله عنهما-، فحين استشاره النبي ﷺ قال: (يا رسول الله، هم أهلك، ولا نعلم والله إلا خيرًا).

فقد زكاها من الإفك المفترى عليها، وذكر فضائلها وما يعرف عنها من الخير المتحقق فيها، ولهذه المواساة بالتزكية والثناء احتمالان:

الأول- أن تكون مواساة صريحة، بمعنى: أَمسِك -يا رسول الله- زوجَك عائشة -رضي الله عنها- ولا تفارقها، فهي العفيفة اللائقة بك، كما وقع في رواية أخرى: ((فأثنى عليَّ خيرًا

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٠/٨).
(٢) سورة النور، آية رقم (١٦).
(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (٣٧٧/٧).
(٤) انظر: صحيح مسلم مع شرحه المسمى إكمال إكمال المعلم (٢٠٧/٩).

وقاله، ثم قال: يا رسول الله، أهلك، ولا نعلم منهم إلا خيرًا، وهذا الكذب والباطل))[١].

الثاني- أن تكون مواساة على سبيل التلميح والإشارة، فيكون أسامة t قال ذلك (متبرئا من المشورة ووَكَل الأمر إلى رأى النبي r، ثم لم يكتفِ بذلك حتى أخبر بما عنده فقال: "ولا نعلم إلا خيرا")[٢].

ج- وحين سأل النبي r أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله عنها- فقال: يا زينب، ماذا علمتِ أو ما رأيت أو ما بلغكِ؟!، قالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، واللهِ ما علمت عليها إلا خيرًا.

فمع كون زينب -رضي الله عنها- ضرّة عائشة -رضي الله عنها-، وتطلب الحظوة والمترلة عند النبي r ؛ إلا أنَّ هذه العلائق الدنيوية بالنسبة للفاضلاتِ أمهاتِ المؤمنين لا يكون لها وجودٌ ولا تأثيرٌ في الحكم والشهادة وقول الحق، فلا تذكر أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله عنها- إلا الخير الذي تعرفه عن عائشة -رضي الله عنها- وتزكيها به عند رسول الله r .

د- ولقد سأل رسولُ الله r أُمَّ أَيْمَنَ، فَقَالَتْ: "حاشا سَمْعِي وَبَصَرِي أَنْ أَكُونَ عَلِمْتُ أَوْ ظَنَنْتُ بها قَطّ إلا خَيْرًا"[٣].

فزكّتها بأنها لا تظنُّ بها ولا تعلم عنها إلا الخير، ومن كان كذلك فهو أبعد ما يكون عن حقيقة ذلك الإفك المبين.

هـ- وأثنى أبو أيوب الأنصاري -رضي الله عنه- على أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أطيب الثناء، وذلك حين قالت له زوجته أم أيوب: يا أبا أيوب؛ ألا

---

(١) أخرجه محمد بن إسحاق في سيرته (٢/ ٣٠١ - ابن هشام) -ومن طريقه: الطبري في تاريخه (٢/ ١١٣)- ، والواقدي في المغازي (٢/ ٤٣٠) مختصرًا، من حديث عبَّاد بن عبدالله بن الزبير عن عائشة -رضي الله عنها- ، ومن حديث غيره. وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في تخريج فقه السيرة للغزالي (ص ٢٢٤).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٦٨/٨).

(٣) أخرجه الواقدي في المغازي (٤٣٠/٢)، من حديث عبَّاد بن عبدالله بن الزبير عن عائشة -رضي الله عنها-. وإسناده ضعيف، وهو من رواية الواقدي وهو متروك.

تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ فقال: بلى، وذلك الكذب! أفكنتِ يا أم أيوب فاعلةً؟، قالت: لا والله ما كنت لأفعلَه! قال: فعائشة -والله- خير منك[(١)].

و- وهذه أم مسطح -رضي الله عنها- تثني على أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وتُشْهِد الله U على ذلك، فتروي أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أن أم مسطح حين عثرت قالت: تعس مسطح. قالت: فقلت لها: ((أَيْ أُمّ، أتسبين ابنك؟، فلم تراجعني. فعادت فعثرت قالت: تعس مسطح. فقلت: أَيْ أُمّ، أتسبين ابنك صاحب رسول الله r ؟، فلم تراجعني. ثم عثرت ثالثة فقالت: تعس مسطح. فقلت: أَيْ أُمّ، أتسبين ابنك صاحب رسول الله؟، فقالت: والله ما أسبه إلا من أجلك وفيك. فقلت: وفي أيِّ شأني؟، قالت: وما علمتِ بما كان؟، فقلت: لا، وما الذي كان؟، قالت: أشهد أنك مُبَرَّأة مما قيل فيك. ثم بَقَرَت[(٢)] لي الحديث))[(٣)].

---

(١) أخرجه محمد بن إسحاق في سيرته (٢/ ٣٠٢ - ابن هشام) -ومن طريقه: الطبري في تفسيره (١٧/ ٢١٢)، وفي تاريخه (٢/ ١١٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٥٤٦/ ٨)-، عن أبيه إسحاق بن يسار، عن بعض رجال بني النجار، أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له زوجته... فذكره. وإسناده صحيح، لولا إبهام (بعض رجال بني النجار)، لكنه لا يضر - إن شاء الله -؛ فقد يكونوا من الصحابة -لأن إسحاق بن يسار من الوسطى من التابعين-، وإنْ كانوا من التابعين فالغالب على مثل هذه الطبقات الصِّدْق والدِّيانة، خاصة في مثل هذه الأخبار. والله أعلم.

وأخرجه الحاكم في مستدركه -كما في فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٤٧٠)، ولم أجده في المطبوع منه-، والواقدي في المغازي (٢/ ٤٣٤)، عن أفلح مولى أبي أيوب أن أم أيوب قالت لأبي أيوب... فذكره. وانظر: تفسير القرآن العظيم (٦/٢٧).

(٢) بَقَرْتُ الشيءَ بَقْرًا: فتحته ووسعته، و(بقرت لها الحديث) أَي: فتحته وكشفته. انظر: لسان العرب (٤/٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٥٧) معلَّقًا بصيغة الجَزْم، والترمذي في الجامع (٣١٨٠)، والذهبيُّ في تاريخه (٢/ ٢٧١) -واللفظ له-، من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها-. قال الذهبيُّ (٢/ ٢٧٢): "هذا حديث عالٍ حسن الإسناد" اهـ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣١٨٠).

إن اتفاق هؤلاء الصحابة على تزكية عائشة -رضي الله عنها- والثناء عليها بالخير؛ لهو من أشدّ ما كانت تحتاجه في هذه الحادثة، ولا شك أن اتفاق أفراد المجتمع المدني على ذلك كان له أثره الطيب على نفس عائشة -رضي الله عنها-.

٢ - تطييب الخاطر:

لما أقبلت عائشة -رضي الله عنها- على أمها أم رومان -رضي الله عنها- تسألها عما يقول الناس عنها من أمر الإفك؛ بادرت أم رومان إلى مواساتها وتهدئة نفسها عن طريق تهوين الأمر عليها وتطييب خاطرها بما لها من الصفات، فقالت لها: ((يا بنيّة، هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قَطُّ وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها)).

((وفي هذا الكلام من فطنة أمها وحسن تأتيها في تربيتها ما لا مزيد عليه:

١- فإنها علمت أن ذلك يعظم عليها فهونت عليها الأمر بإعلامها بأنها لم تنفرد بذلك؛ لأن المرء يتأسى بغيره فيما يقع له.

٢- وأدمجت في ذلك ما تطيب به خاطرها من أنها فائقة في الجمال والحظوة، وذلك مما يعجب المرأة أن توصف به))[(١)].

والنفس المظلومة حين تشتكي تكون في بالغ الحزن والأسى، ولذلك تحتاج لحصافة وذكاء في التعامل، وهذا ما حصل، حيث حاولت أم رومان بحنكتها امتصاص الصدمة النفسيّة التي تمر بها أم المؤمنين -رضي الله عنها-، وذلك من خلال تطييب خاطرها؛ لتخفف عنها ما فَجَأَتْها به أم مسطح من خبر الإفك.

٣ – دَحْض السبب:

كان السبب الذي اتخذه المنافقون مطيّة لرمي أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بالإفك: أنها أتت على جمل صفوان بن المعطل السلمي **t** يقوده في نحر الظهيرة، فقال عدوُّ الله عبدُالله بن أبي بن سلول كلمة الإفك يتناقلها ويستوشيها ويذكرها في المجالس، فلما سمع بها صفوان بن المعطل **t** سبح الله **U** منزهًا ربه أن يقدر هذا الأمر في زوجة نبيه **r**

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٦٧).

لما يعلم من عفتها وطهارتها، ولما رأى من حصانتها وعدم تكلمها طوال الطريق معه، فدهش من الإفك والافتراء العظيم، ثم قال كلمة الحق والإنصاف لنفسه والمتضمنة براءة أم المؤمنين، وكانت أم المؤمنين تذكر قوله فتقول: ((والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سـبحان الله!، والذي نفسي بيده ما كشفت كنف أنثى قط))[١]، ففي قوله هذا دَحْضٌ للسبب الذي اتخذه المنافقون وسيلة للإفك، فهو يقسم بالله أنه ما كشف كنف أنثى قط -فضلاً عن أم المؤمنين زوجِ النبي r أثناء مسيرها معه-، وفي ذلك مواساة منه لعائشة -رضي الله عنها- وتبرئة منه لها أمام الناس بدحض السبب الذي من أجله رُمِيت بالإفك، فكانت تذكر قوله وتنقله.

٤ - الدعاء على المتسبب:

كان ممن تسبب في حصول ألم الإفك على النبي r وزوجه عائشة -رضي الله عنها-: مسطح بن أثاثة t ، وكانت أمه ممن يسوؤها ما تكلم به ولدها من أمر الإفك، فدعت عليه بقولها: (تعس مسطح).

فواسَت هذه الصحابية الجليلة أمَّ المؤمنين بالدعاء على مَن كان مِن أسباب نشر الإفك وحصول الأذى به لأم المؤمنين، وهو ولدها مسطح؛ لأنه تسبب في أذيَّة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- عندما خاض في الإفك، هذا مع كون الأم أعظم حنانًا على الابن من أي قريب له، ولكن لما كان ابنها t قد أخطأ في موقفه وتسبب بالأذى لرسول الله وزوجه دَعَت عليه عند كبوتها؛ ((لأن من طريق الإنسان أنه إذا أهمَّه أمرٌ يتذكَّره في كلِّ شأنه وينتقل إليه؛ لكونه بمرأى عينيه، فلمَّا كان مِسْطَح أخذ نصيبه من الإفك، وكان ساءها ذلك؛ تذكَّرت عند كبوتها، لأن العثورَ لَمَّا حَصَلَ لشغلها بهذا الهمِّ، فكأنه حَصَلَ من جهة مِسْطَح، فَدَعَتْ عليه))[٢].

٥ - التذكير بالماضي الحسن:

رَمْيُ عائشة -رضي الله عنها- وصفوان بن المعطل t بالإفك من أشنع الأمور

---

(١) المصدر السابق (٤٧٨/٨).

(٢) فيض الباري شرح البخاري (١٦٤/٦).

وأقبحها وأظهرها بهتانا؛ فهما اللذان يعرفهما جميع أفراد المجتمع المدني بالخير والعفاف والتُّقى والشرف، ومن توفَّرت فيه هذه الخصال فإنه أبعد ما يكون عن الخنا والفحش والخيانة وتدنيس العِرض، فكيف بالطيبة (عائشة) -رضي الله عنها- زوج الطيب (رسول الله r) وبصفوان t المشهود له بالخير؟.

ولذا؛ وقعت المواساة من عدد من الصحابة لأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بالتذكير بالماضي الحَسَن من جهتين:

الأولى- ما لها من السمعة الطيبة الشريفة التي يمتنع معها أن تكون قد وقعت فيما رُميت به، فقال كلٌّ من أسامة بن زيد وبريرة وزينب بنت جحش وأم أيمن y: لا نعلم عن أم المؤمنين إلا خيرا. فأكدوا جميعًا على عفتها وطهارتها بما يعلمونه من حالها في الماضي، فماضيها مليء بالطهر والنقاء والصلاح؛ مستشهدين بذلك على صلاحها لاحقًا. بل لإن النبي r قد شهِد بذلك لزوجه فقال: ((ما علمت على أهلي إلا خيرًا)).

الثانية- أنها زوج أطيب الخلق وأشرفهم وأحبهم إلى الله، فحاشا ربنا سبحانه وتعالى أن يقدر هذا الأمر البشع الشنيع على زوجة نبيّه r، فقال أسامة t: ((هم أهلُك))، وقال أبو أيوب الأنصاري لزوجه أم أيوب -رضي الله عنهما-: ((فعائشة -والله- خير منك))[١].

وأما صفوان بن المعطل t فإن الذي شهِد له بالماضي الحسَن هو: رسول الله r الذي رُمِي في عرضه الشريف، وهذا من أعظم ما تكون به المواساة، فقال: ((ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي))، فواساه r بالتذكير بالماضي الحسن:

- في كل أحواله، فماضيه لا يُعرَف عنه إلا الخير، ومثله لا يقع فيما رُمِي به.
- وفي حال دخوله معه إلى بيته، فلم يكن يدخل بيت النبي r في الماضي إلا على الوجه اللائق الذي يزيّنه كمال الأدب والحشمة والعفاف، فمثله لا يخون ولا يغدر ولا تكون عنده نيّة لذلك أصلاً.

---

(١) سبق تخريجه ص (١٠٨).

٦ - التذكير بالمنزلة:

وهذا أسلوب رفيع من أساليب المواساة التي لها تأثير بالغ في النفس: تهدئةً وطمأنينةً وثقة، وقد استخدمته الصحابية الجليلة أم رومان -رضي الله عنها- في مواساة ابنتها أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- حين جاءتها متألمة مما سمعته من الإفك الذي رُمِيت به، وسائلةً عما يقوله الناس فيها؛ فتجيبها جوابًا يقع موقع البلسم الشافي على الجرح المؤلم، وتزيده تأكيدًا بالقسم فتقول: ((هوني عليك الشأن؛ فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها)).

استخدمت أم رومان -رضي الله عنها- في هذا الموقف أمثل أسلوب، وأكمل طريقةٍ وأحسنها، فبدأت بتهدئة ابنتها، ثم واستها بأن ذكّرتها بما لها من المنزلة والمكانة والمحاسن، وفي ذلك مواساة من جهتين:

الأولى- من جهة أنه ما من أحدٍ تكون له منزلة ومكانة ومحاسن يتفرّد بها ويفوق بها غيره إلا ويكون حوله من الناس من يُكثِر الكلام عنه بما لا يعجبه؛ إما منافسة له وإما حسدًا منه، فكأنها تقول لها: إن ما أنتِ فيه هو بسبب ما تتميزين به من المنزلة الرفيعة، فلا تحزني ولا تضطربي؛ فإن ذلك مما جرت العادة بوقوعه.

الثانية- من جهة أنها مدحتها بما لها من المنزلة والمكانة، وأنها فائقة الجمال والحظوة، وذلك مما يعجب المرأةَ أن تُوصَف به ويطيب به خاطرها[1]، فإذا ذكر لها هذا الأمر فقد يهون بسببه كل ألم.

٧ – مقارنة عائشة -رضي الله عنها- بغيرها:

مقارنة المُصاب بغيره ثم تفضيله عليه مما تقع به المواساة على أحسن الوجوه، وقد وقع ذلك في حادثة الإفك في موقفين اثنين:

الأول- موقف أم رومان مع ابنتها عائشة -رضي الله عنها-، حين عقدت لها المقارنة بينها وبين غيرها مع بيان أنها أفضل من غيرها.

الثاني- موقف أبي أيوب الأنصاري مع زوجه أم أيوب -رضي الله عنهما- حين

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٦٧/٨).

سألها: أفكنتِ يا أم أيوب فاعلةً ذلك؟، قالت: لا والله. فعقد المقارنة بينها وبين عائشة مفضِّلاً عائشة على زوجه أمِّ أيوب فقال: فعائشة -والله- خير منك[١].

والُمصاب المكلوم إذا عُقِدت له هذه المقارنة ارتاحت نفسه وهدأت وسكنت، وازدادت ثقته بنفسه، وعلِم أن ما أصابه قد يكون من أسبابه: تميُّزه وتقدُّمه على غيره، كما أن فيه تسليةً حسَنَة له من جهة أنه إذا كان من هو دونه لا يقع منه ذلك فكيف يقع منه هو -وهو أرفع منزلةً ومكانة-؟.

٨ - التمهيد قبل الإخبار:

قد يكون الُمصاب بالأمر الجلَل لا يعلم شيئًا عن وقوعه، فيكون من أطيب أنواع المواساة في حقه: أن لا يُذكَر له الأمر فجأة، بل يُمهَّد له بما يناسبه من المقدّمات قبل إخباره.

وعندما رأت أم مسطح غفلة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- عما يُقال فيها من أمر الإفك، وأحبت تنبيهها على ذلك؛ مهَّدت لإخبارها بذلك بالدعاء على ابنها، فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ. فكان في ذلك تمهيدٌ حسنٌ لإخبار عائشة بأمر الإفك بالدعاء على من كان له نوع مشاركة في نشره، قال أهل العلم: ((يحتمل أن يكون قول أم مسطح هذا عمدا لتتوصل إلى إخبار عائشة بما قيل فيها وهي غافلة))[٢].

ولما ظهر الإفك وانتشر لم يأتِ النبي ﷺ إلى عائشة ليخبرها بما قيل في حقها، بل كان يدخل عليها وهي مريضة فيقول: كيف تيكم؟. قال ابن حجر: ((وفائدة ذلك: أن تتفطن لتغيير الحال فتعتذر أو تعترف، وأنه لا ينبغي لأهل المريض أن يعلموه بما يؤذي باطنه لئلا يزيد ذلك في مرضه))[٣].

ثانيًا- المواساة بالفعل:

١ - الحزن والبكاء:

عندما كانت أم المؤمنين -رضي الله عنها- تُعاني الهم والغم والحزن الذي كاد أن يفلق كبدها، لم تكن تعيش ذلك الأسى والحزن وحدها، بل واساها أبواها فشاركاها فيما

---

(١) سبق تخريجه ص (١٠٨).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٦٦/٨).

(٣) المصدر السابق (٤٧٩/٨).

هي فيه من الحزن والألم، تقول أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: ((واستعبرت[١] وبكيت، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ، فنزل فقال لأمي: ما شأنها؟، فقالت: بلغها الذي ذكر من شأنها، ففاضت عيناه))[٢]. فهما يحسان بألم الحزن الذي تحسه -رضي الله عنهم-، وهذه المشاكلة من أعظم أنواع التخفيف على المواسَى، لأنه يحس بها صدقَ المشاعر من المواسِين، وحينها يعلم أنه ليس وحده من يعاني من الافتراء والكذب، وهذا ما حصل من أبوي أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنهم- في بكائهم وحزنهم على ما حصل لها.

٢ - الملازمة:

حين استوثقت أم المؤمنين -رضي الله عنها- من والدها خبر الإفك؛ بقيت أيامًا وليالي لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم، واساها أبواها أعظم المواساة بملازمتها ليلَ نهار، ولم يفارقاها في هذا الظرف العصيب، يدل على ذلك قول عائشة -رضي الله عنها-: ((فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي))، ((وأنا في بيت أبوي))[٣]، ((فأصبح أبواي عندي[٤]، فلم يزالا حتى دخل عليّ رسول الله ﷺ وقد صلى العصر وقد اكتنفني أبواي عن يميني وعن شمالي))[٥].

---

(١) اسْتَعْبَرَ: جرَتْ عَبْرتُه، وحزن. انظر: لسان العرب (٤/٥٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٥٧) معلَّقًا بصيغة الجَزْم، والترمذي في الجامع (٣١٨٠)، والذهبيُّ في تاريخه (٢/ ٢٧١)، من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها-. قال الذهبي (٢/ ٢٧٢): "هذا حديث عالٍ حسن الإسناد"، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣١٨٠).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٢٩٦) – وهو في تفسيره (٣٨٠) -، والطبري في تفسيره (١٧/ ٢٠٢)، من رواية محمد بن ثور عن معمر عن الزهري، وإسناده صحيح.

(٤) قال ابن حجر: ((أي أنهما جاءا إلى المكان الذي هي به من بيتهما، لا أنها رجعت من عندهما إلى بيتها)). فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٥٧) معلَّقًا بصيغة الجَزْم، والترمذي في الجامع (٣١٨٠)، والإمام أحمد في مسنده (٦/ ٥٩)، والذهبيُّ في تاريخه (٢/ ٢٧١)، من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها-. قال الذهبي (٢/ ٢٧٢): "هذا حديث عالٍ حسن الإسناد" اهـ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣١٨٠).

فدلت هذه الروايات على ما كانت تجده أم المؤمنين من ملازمة والديها لها y، لشعورهما بحاجتها إلى ذلك، فملازمتها والمُكث معها في مُصابها الجلَل -وإن خلا من الكلام- فيه المواساة لها من شدة ألم الإفك، وتخفيف عنها، وتصبير لها.

٣ - الزيارة:

تروي أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- موقفًا نبيلاً وقعت فيه المواساة بالزيارة، فتقصّ أنها لما كانت في بيت والديها استأذنت عليها امرأة من الأنصار؛ فأَذِنَت لها، فجلست تبكي معها.

فأرادت هذه الصحابية الجليلة أن تواسي أم المؤمنين بالذي تستطيعه، فقامت بزيارتها؛ لتشاركها ألمها وبكاءَها وتواسيها بذلك، فكأن فِعلها يقول لأم المؤمنين: أنكِ لست وحدك التي تتألمين من الإفك، بل أنا معكِ في محنتكِ أتألم معك، وهذا العمل السامي النبيل فيه لفتة من هذه الصحابية الجليلة -رضي الله عنها- إلى أهمية المواساة بالزيارة وأثرها النفسي البالغ في نفس المواسَى الذي أصابه من الحزن والهم والغم ما أصابه، فلا شك أن المُصاب حين يجد من يواسيه بالزيارة سيرى أن الناس يشاركونه همومه وآلامه، فيكون ذلك مما يخفف على نفسه وقع الألم.

ثالثًا- المواساة بترك القول والفعل:

١ - ترك التشهير بغير حق:

شائعة الإفك وإن انتشرت في أوساط المجتمع المدني بفعل المنافقين، ثم من أخطأ في ذلك من الصحابة؛ إلا أنها لم تجد التشهير بين الفضلاء من الصحابة y، بل كانوا سدًا منيعًا لتلك الهجمات الشرسة، فما الفائدة مِنْ ذكر أمرٍ متحقق كذبه؟، ولذلك تجنبوا الخوض في أمر الإفك، وبرّءوا ساحة أم المؤمنين، فكان تركهم التشهير بأم المؤمنين مواساةٌ عامةٌ من الصحابة y، لها أبلغ الأثر في نفس المواسَى، إذ إن ذلك يدلها على يقينهم بأنَّ ما رُمِيت به هو خلاف الحق الذي يعرفونه فيها -رضي الله عنها-، فكانوا بذلك مواسين لها في محنتها بعدم نشر ما هي بريئة منه.

٢ - ترك التعنيف قبل ثبوت الأمر:

المرء مع قالة السوء عمومًا لا يملك نفسه، فقد يبتدر إلى فعل شيءٍ قد يضره، وهذه

طبيعة البشر، إذ يعتريهم الضعف في مثل هذه المواقف المحرجة، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالعرض؟، لا شك في أنَّ ردّة الفعل ستكون أشدَّ وأعنف، لكننا نجد هنا من النبي الكريم r -صاحب الخلق الرفيع والفعل الممتزج بالرحمة والرأفة والحكمة- تعاملاً حسنًا مع زوجه الطاهرة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- مع أنَّ الأمر يتعلق بعرض أطهر بيت، والأمر يخص رجلاً شديد الغيرة، ومع ذلك لا يعنف، ولا يجرح المشاعر، بل يتأنى حتى يثبت الأمر، فيدخل على زوجته عائشة -رضي الله عنها- فيقول لها: كيف تيكم؟. وفي هذا مواساة عظيمة منه r لزوجه -رضي الله عنها-.

٣- ترك الإعلام قبل علم المعني بالأمر:

مكثت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- شهرًا كاملاً وهي مريضة في بيتها لا تعلم بأمر الإفك لا من قريب ولا من بعيد، ولم يخبرها أحدٌ بذلك، فلقد تحفظ الصحابة y في إخبار أم المؤمنين بخبر الإفك، وبلغت عنايتهم بهذا الأمر مبلغًا عظيمًا، فلم يبتدر أحدٌ منهم بنقل الخبر إليها، فمكثت بينهم شهرًا لا تعلم بأمر الإفك لا من الزوج وهو رسول الله r، ولا من الأبوين اللذين هما أقرب قريب لها، ولا من الخادمة وهي بريرة، ولا من ضرائرها وهنَّ أزواج النبي r، ولا من غيرهم من الصحابة y، وذلك من مواساتهم لها بعدم إخبارها بما يسوؤها.

لقد وقعت المواساة في حادثة الإفك من أطراف عديدة، وبأساليب متنوعة، وكان لها الآثار العظيمة على الحالة النفسية للنبي r ولزوجه عائشة -رضي الله عنها-.

وانطلاقًا من ذلك يمكننا القول: إنَّ المواساة حين تقع على المواسى يكون لها آثار وانعكاسات حسَنَة طيبة مباركة على حالته النفسية، وذلك مما ينبغي للداعية معرفته والعناية به والإفادة منه، ومن ذلك:

١- أول ما يكون المُصاب في أمس الحاجة إليه: الهدوء والسكينة والثبات وعدم الاضطراب، فذلك من أهم ما يحفظ له -بإذن الله- دينه وعقله وعافيته، وفي المواساة تحقيقٌ لهذه الأمور النفسية وتقويةٌ لها، فإن المُصاب متى وجد المواساة ممن حوله أورثه ذلك راحةً نفسيةً عميقة ينتج عنها هدوؤه وعدم اضطرابه.

فالداعية إلى الله ينبغي له أن يهتم بذلك ويُعنَى به سواءً أكان مواسيًا أم مواسىً:

- فإن كان مواسِيًا لغيره: حرَص على انتقاء أحسن أساليب المواساة وأكثرها

فائدةً ليُكسِب نفسَ المواسى الهدوءَ وعدم الاضطراب.

- وإن كان مواسيًا: استفاد من مواساة الناس له أعظم الاستفادة، فاكتسب منها الهدوءَ وعدم الاضطراب.

٢ - إذا كان الهدوء النفسي وعدم الاضطراب يعني الثبات؛ فإن الثقة بالنفس تعني الانتقال من مرحلة التأثّر الشديد والصّدمة المفاجئة بالمصيبة إلى مرحلة تجاوز المحنة بأفضل الطرق وأحسنها، فثقة الإنسان بنفسه -بعد توكله على الله- هي القاعدة التي يبني عليها انطلاقته وتطلّعه لما يأتي، وأما اهتزاز ثقته بنفسه -خاصة في حال المصيبة- فهي من أسباب انحداره وتراجعه، ومن أعظم أسباب اكتساب تلك الثقة العظيمة: المواساة.

فحريٌّ بالدعاة أنْ يتحلّوا بهذه الخلّة العظيمة في مواساتهم لغيرهم وفي استقبالهم مواساة غيرهم لهم، فيكونوا على ثقة عظيمة بأنهم على الحق، وبأن ما أصابهم هـــو من ابتلاء الله وامتحانه، وبأن من تناولهم في أعراضهم لن يتمكن من زعزعة ثقتهم في أنفسهم، فيدعوهم ذلك إلى مواصلة الدعوة دون خَلَل ولا كَلَل ولا مَلَل.

٣- المواقف النبيلة في المواساة التي وقعت من الصحابة والصحابيات y كان لها أثر عظيم على معنويات بيت النبي r وتطلّعهم لفرج الله:

- فعندما استشار النبي r أسامة بن زيد في أمر عائشة -رضي الله عنهما- فأشار عليه بالقول الحق الذي يعرفه عن أم المؤمنين فقال: ((يا رسول الله، هم أهلك، ولا نعلم -والله- إلا خيرًا))؛ كان ذلك دافعًا قويًا في تبرئة أم المؤمنين عائشة وصفوان -رضي الله عنهما-، وزاده تأكيدًا ما أشار به علي بن أبي طالب t على النبي r بسؤال بريرة عن عائشة -رضي الله عنهما- ليطْمَئنَّ النبي r ؛ لأنه قد علم في نفسه t أنَّ بريرة -رضي الله عنها- لن تذكر إلا براءة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، هذه المواساة التي اجتمع فيها ثلاثة من الصحابة تركت أثرًا حسَنا في النبي r ، فصعد المنبر وبرّأ عائشة وصفوان -رضي الله عنهما-، ثم لما سُرّي عنه بعد أن أُوحِي إليه تبيّن ((السرور في وجهه وهو يمسح جبينه))[1]. وتتأمل عائشة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٥٧) معلّقًا بصيغة الجَزْم، والترمذي في الجامع (٣١٨٠)، من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها-. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣١٨٠).

تقاسيمَ وجهه r فتقول: ((فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما زال يضحك حتى إني لأنظر إلى نواجذه سرورًا، ثم مسح وجهه))[(١)].

• وأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وجــدت مسانــدة الصحابة والــصحابيات y لها على طهارتها وتأكيد براءتها، فهي تسمع الأخبار تتوالى على مسمعها من الذكر الحسن لها من أقرب الناس لها وهو النبي r ومن أبويها، وبقيّة المقربين منها، وجل المجتمع المدني يثني عليها ويزكيها، ويشاطرها في أحزانها، فارتفعت معنوياتها، وكانت متطلعةً لفرج الله فتقول: ((ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله r في النوم رؤيا يبرئني الله U بها)).

وكذلك فليكن الداعية إلى الله، يرى مواساة الناس له فيفرح بذلك ويتطلَّع إلى فـــرج الله، ويواسي غيره فيوصيه بذلك.

٤- الثقة في الله بالنصر والبراءة من أعظم الآثار النفسية للمواساة، ولقد بلغ الحزن والأسى بأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- مبلغًا عظيمًا منذ علمها بما قيل فيها من الإفك وحتى سؤال النبي r لها بقوله: ((يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كنتِ ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب؛ تاب الله عليه))، لكنها -لحسن ظنها بربها ثم بما تعلمه من نفسها وبما كانت تجده من المواساة ممن حولها- كانت واثقة طيلة تلك الأيام في ربها تبارك وتعالى بأنه لن يظلمها ولن يخذلها، بل سينصرها على من ظلمها وسيظهر براءتها مما قيل فيها من الإفك، يبيّن ذلك قولها: ((ثم تحولت فاضطجعت على فراشي وأنا -والله- حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي))، وقولها: ((فأما أنا حين رأيتُ من ذلك ما رأيت -يعني: عند رؤية أمارات نزول الوحي على رسول الله r - فوالله ما فزعتُ ولا باليتُ (وفي رواية الواقدي: فوالله لقد فرحتُ به)، قد عــرفتُ أني بــريئة وأن الله -عز وجل- غير ظالمي))[(٢)]،وكانت ثقتها بربها ظاهرةً في وجهها كما في قول أبي بكر الصديق t : ((فجعلت أنظر

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١١٣١)، والطبري في تفسيره (١٧/ ٢١١) -واللفظ له-، من رواية ابن حاطب عن علقمة وغيره عن عائشة -رضي الله عنها-. وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه محمد بن إسحاق في سيرته (٢/ ٣٠٢ - ابن هشام) -ومن طريقه: الطبري في تاريخه (٢/ ١١٤)- والواقدي في المغازي (٢/ ٤٣٣)، مـــن حـــديث عبَّاد بـــن عبدالله بن الزبير عن عائشة -رضي الله عنها-، ومن حديث غيره. وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في تخريج فقه السيرة للغزالي (ص ٢٢٤).

إلى رسول الله r فأخشى أن يترل من السماء ما لا مرد له، وأنظر إلى وجه عائشة فإذا هو مُنَبَّق[١]، فيطمعني ذلك منها))[٢].

فالداعية إلى الله يحرص في مواساته لغيره على تذكير المواسى بالثقة بنصر الله له وتبرئته إياه، كما أن عليه هو أيضًا أن يستشعر ذلك في مُصابه ومواساة الناس له.

٥- مما ساعد في ثبات أم المؤمنين في المحنة التي مرّت بها: تطييب خاطرها من أمها أم رومان -رضي الله عنها- بما لها من الجمال الفائق والفضل والحظوة والمترلة العالية عند رسول الله r ، ومن أم مسطح وهي تقسم لها بالله العظيم على براءها ونزاهتها مما نسب إليها، ومن بريرة وهي تحلف أيضًا بالله العظيم على طهرها وما تعلمه عنها من الخير، وأسامة يزكيها ويشير على النبي r بإبقائها، لقد طاب خاطرها -رضي الله عنها- بهذه المواساة العظيمة من أولئك الصحابة، فكان ذلك من أقوى العوامل على ثباها في محنتها.

فليتذكر الداعية أن يواسي إخوانه المسلمين بذكر ما لهم من المزايا، وبالوقوف إلى جانبهم بتبرئتهم مما نُسِب إليهم زورًا وبهتانا.

٦- من أعظم الآثار النفسية للمواساة: الفرح والسرور بفرج الله وبراءته ونصره، فعندما وجد النبي r المواساة من الصحابة في تبرئة زوجه عائشة -رضي الله عنها- والقطع بكذب المنافقين وافترائهم على عرضه الشريف؛ اغتبط بذلك وفرح، وكذلك عائشة امتلأ قلبها من الفرح والسرور بتكاتف المسلمين وترابطهم معها في محنتها، وفرحت بنصر الله لها بعد كربها وألمها، وعلمت أنَّ مع العسر يسرًا.

" " "

(١) قال ابن فارس: ((كلمةٌ تدلُّ على تسويةٍ وتهذيب. والنخل إذا كان غِرَاسُه على استواءٍ: منبق. وقد نَبَّقه صاحبُه. وكذلك كلُّ شيءٍ مستوٍ مهذَّب)). معجم مقاييس اللغة (٣٨٢/٥).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ٦٦) –وعنده: "مفيق" بدلاً من "منبق"، وأثبتنا اللفظ من فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٦/٨)-، من حديث ابن جريج قال: قال ابن شهاب -يعني: الزهري-عن عروة وغيره. وابن جريج -مع أنه ثقةٌ فاضلٌ- إلا أنه كان يدلِّس، و لم يصرِّح هنا بالتحديث.

المبحث الثاني

أثر ضبط النفس وعدم الغضب والرد المنطقي للداعية

هذه الآثار الثلاثة (ضبط النفس) و(عدم الغضب) و(الرد المنطقي) بينها تداخل وتلازم:

فالتداخل: من جهة أن (عدم الغضب) من أبرز أنواع وأساليب (ضبط النفس)، فضبط النفس يشتمل على أمور كثيرة، منها: الحلم والصبر والأناة وغير ذلك، ومنها أيضًا: عدم الغضب، وأما (الرد المنطقي) فهو من نتائج (ضبط النفس) و(عدم الغضب).

والتلازم: من جهة أن (عدم الغضب) و(الرد المنطقي) لا يمكن أن يقعا من الإنسان إلا إذا كان متحلِّيًا بِــ(ضبط النفس)، فهما نتيجتان من نتائجه.

ولِما لِــ(عدم الغضب) و(الرد المنطقي) من أهمية بالغة فقد كان لابد من إفرادهما بالذكر في هذا المبحث.

ولعل ما تقدم ذكره -من التداخل والتلازم بين هذه الآثار الثلاثة- يكون أكثر ظهورًا بمعرفة المعنى اللغوي والاصطلاحي لهذه التعبيرات الثلاثة:

فَــ(ضَبْط النَّفْس):

مُرَكَّبٌ إضافيٌّ من كلمتي: (ضَبْط)، و(النَّفْس):

و(الضَّبْط) في اللغة: مَصدر الفِعلِ الثلاثيِّ المجرَّد (ضَبَطَ)، يقال: (ضبطَ، يَضْبِطُ ويَضْبُط، ضَبْطًا وضَبَاطَةً)[1].

وأصل مادته: الضاد والباء والطاء؛ وهو أصل صحيح[2] يدلُّ على: لُزومِ الشيءِ وحَبْسِهِ، لا يفارقه في كلِّ شيءٍ[3]، يقال: (ضبطَ) الشيء: حَفِظَه بالحَزْم حفظًا بليغًا، وأحكمَه وأتقنه، ومنه قيل: (ضَبَطتُ) البلادَ وغيرها: إذا قمت بأمرها قيامًا ليس فيه

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم (١٧٥/٨)، المعجم الوسيط (١٨/١).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣٨٦/٣).

(٣) العين (٢٣/٧)، تهذيب اللغة (٤٩٢/١١)، المحيط في اللغة (٤٥٧/٧)، المحكم والمحيط الأعظم (١٧٥/٨).

نقص[١]، و(ضبطَ) الكتابَ ونحوَه: أصلح خللَه أو صحَّحه وشكَّله[٢]. ورجلٌ (ضابِطٌ): قويٌّ شديد البَطش والقوة والجسم والأَيْد[٣]، وفلانٌ (لا يضبِط عملَه): إذا عجزَ عن ولاية ما وليه[٤].

فيمكننا -على هذا- تعريف (ضَبْط النفس) بأنه: "حِفْظُ النفس وحَبسُها، على الدَّوام -باستعمال القوَّة والحَزْم- من أن تقعَ في الخطأ أو ما يَشينها، سواء في المواقف اليوميَّة أو المفاجئة، وإلزامُها والوصول بها إلى السُّلوك الصحيح في هذه المواقف".

و(**الغَضَب**):

في اللغة: مَصدر الفِعلِ الثلاثيِّ المجرَّد (غَضِبَ)، يقال: (غَضِبَ، يَغْضَبُ، غَضَبًا ومَغْضَبَةً)، وهو (غضبان، وغَضُوب، وغُضُبٌ، وغُضُبَّة، وغَضُبَّة، وغَضِب)، وهي (غضبى، وغَضوب، وغـضبانة -في لُـغَةٍ-) ، وهم (غَضْبَى، وغِضاب، وغَضَابَى)[٥].

وأصل مادته: الغين والضاد والباء؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على: شِدَّةٍ وقوَّةٍ. ومنه: الغَضْبة: الصَّخرة الصُّلبة. قالوا: ومنه اشتُقَّ الغَضَب؛ لأنه اشتداد السُّخْط[٦].

و(الغَضَب): نقيض الرِّضا[٧]، و(غَضب له): غَضِبَ على غيره من أجله، وذلك إذا كان حيًّا، فإن كان ميِّتًا قلتَ: (غضب به)[٨]، و(غاضبَ) فلانٌ فلانًا: أغضب كلٌّ منهما

---

(١) المصباح المنير (٢/٣٥٧)، المعجم الوسيط (١/٥٣٣).
(٢) المعجم الوسيط (١/٥٣٣).
(٣) العين (٧/٢٣)، تهذيب اللغة (١١/٤٩٢)، جمهرة اللغة (١/٣٥٢)، المحيط في اللغة (٧/٤٥٧)، المحكم والمحيط الأعظم (٨/١٧٥).
(٤) تهذيب اللغة (١١/٤٩٣).
(٥) العين (٤/٣٦٩)، تهذيب اللغة (٨/١٦)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/١٩٤)، معجم مقاييس اللغة (٤/٤٢٨)، المحكم والمحيط الأعظم (٥/٤١١)، المصباح المنير (٢/٤٤٨).
(٦) مقاييس اللغة (٤/٤٢٨).
(٧) المحكم والمحيط الأعظم (٥/٤١١).
(٨) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/١٩٤)، معجم مقاييس اللغة (٤/٤٢٨)، المحيط في اللغة (٤/٥٥٥)، المحكم والمحيط الأعظم (٥/٤١١)، مفردات ألفاظ القرآن (٢/١٥٤).

الآخر، يقال: غاضبتُ الرجل: أغضبته وأغضبَني، و(تغضَّب) عليه: غَضِبَ، يقال: أغضبته فتغضَّب[١]، و(غاضبَ) فلانًا: هجره وتباعد عنه[٢].

و(الغَضَب) بالمعنى العام هو: "تغيُّر يحصل عند غليان دم القلب، بشهوة الانتقام؛ ليحصل عنه الشفاء للصدر، لكن كثيرًا ما يعقبه النَّدَم والخسران"[٣]، وبعبارة مختصرة: "إرادَة الإضرار بالمغضوب عليه"[٤]. وعرَّفه مجمع اللغة العربية بمصر بأنه: "استجابة لانفعالٍ، تتميز بالَميل إلى الاعتداء"[٥].

و(**الرَّدّ المَنْطِقِيّ**):

مُرَكَّبٌ وَصْفِيٌّ من كلمتي: (الرَّدّ)، و(المنطِق):

(المَنْطِق) في اللغة: مَصدرٌ ميميٌّ للفِعْلِ الثلاثيِّ المجرَّد (نَطَقَ)، يُقال: (نَطَقَ، ينطِق، نُطْقًا، ومَنْطِقًا): تكلَّم[٦].

وأصل مادته: النُّون والطاء والقاف؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على: كلامٍ وما أشبهه[٧]؛ فالمَنْطِق: الكلام، وناطقَ كلٌّ واحد منهما صاحبَه: قاولَه[٨].

و(المَنْطِق) في اصطلاح المناطِقة: "عِلْم يَعْصِم الذِّهن من الخطأ في الفِكْر"، يقال: (فلان مَنْطِقِيّ): عالم بالمَنْطِق، أو: يُفَكِّر تفكيرًا مستقيمًا[٩].

و(الرّدّ) هو: رَجْع الشيء، تقول: (رددتُ) الشيء، أرُدُّه، رَدًّا[١٠]. وتقول: (رددتُ)

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم (٥/٤١١)، المصباح المنير (٢/٤٤٨)، المعجم الوسيط (٢/٦٥٤).

(٢) المعجم الوسيط (٢/٦٥٤).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (٢/١٥٤)، التعريفات ص (٢٠٩)، دستور العلماء (٣/٦).

(٤) الكليات ص (٦٧١).

(٥) المعجم الوسيط (٢/٦٥٤).

(٦) معجم مقاييس اللغة (٥/٤٤٠)، المحكم والمحيط الأعظم (٦/٢٨٥)، المعجم الوسيط (٢/٩٣١).

(٧) معجم مقاييس اللغة (٥/٤٤٠).

(٨) المحكم والمحيط الأعظم (٦/٢٨٥)، المعجم الوسيط (٢/٩٣١).

(٩) المعجم الوسيط (٢/٩٣١).

(١٠) معجم مقاييس اللغة (٢/٣٨٦).

عليه قولَه، و(رددتُ) إليه جوابَه: رجعتُ وأرسَلت[١].

فيمكننا -على هذا- تعريف (الرَّدّ المَنْطِقِيّ) بأنه: "الجواب عن إشكالات السائل أو المُستَفهِم، بطريقة عِلميَّة مُستَقيمة يقبلها العَقْل، تعصِم ذِهنَه من الخطإ واللَّبْس".

ومن خلال ما سبق: يظهر أن مما يشتمل عليه ضبط النفس:

١- الحلم، وهو: ((الأناة وضبط النفس عن هيجان الغضب))[٢].

٢- كظم الغيظ، وهو: ردّه في الجوف إذا كاد أن يخرج من كثرته وامتلاء النفس به، فيضبطه ويمنعه ويسكت عليه ولا يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوه، ويحفظ نفسه من أنْ تُمضي ما هي قادرةٌ على إمضائه باستمكانها ممن غاظها وانتصارها ممن ظلمها[٣].

٣- كبت جماح النفس ساعة الغضب وردها عن التصرف الخاطئ المخالف للعقل والمنطق، وضبط اللسان والحفاظ عليه من فَلَتَاته.

٤- الجواب والكلام برويّة وتبصر بمآلات الأمور.

كما يشتمل على: رباطة الجأش، والسكينة، والتؤدة، والاتزان، والالتزام التام بالأحكام والآداب الشرعيّة.

وقد جاءت نصوص القرآن والسنة بالندب إلى التحلي بضبط النفس بما يشتمل عليه من المعاني الآنفة الذكر، ومن ذلك: قوله تعالى: O 3 4 N[٤]، وقال النبي r: ((من كتم غيظًا وهو قادرٌ على أنْ ينفذه دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يخيّره من الحور العين يزوجه منها ما شاء))[٥]، ومدح النبي r أشج عبد القيس حين قدم المدينة مع قومه

---

(١) المصباح المنير (١/٢٢٤).

(٢) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٨/ ٢١٢).

(٣) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/ ٥٧)، المحرر الوجيز (٢/ ٣٥٧)، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٠٦).

(٤) سورة آل عمران، آية رقم (١٣٤).

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٤/٣٩٤) رقم (٤٧٧٩)، والترمذي في الجامع (٤/٣٧٢) رقم (٢٠٢١) و(٤/٦٥٦) رقم (٢٤٩٣)، وابن ماجه في السنن (٢/١٤٠٠) رقم (٤١٨٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٥١٨).

فقال له: ((إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله؛ الحلم والأناة))[١]، وحين طلب أحد الصحابة من النبي r أنْ يوصيه قال له: ((لا تغضب)) ثم ردد عليه مرارًا حين كرر طلب الوصية منه: ((لا تغضب))[٢]، وقال النبي r : ((إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكَفِّر[٣] اللسان فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا))[٤]، وقال: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت))[٥]. وكان السلف الصالح -رحمهم الله تعالى- من أعظم الناس تطبيقًا لأمر الله -سبحانه وتعالى- في هذا الأمر، ومما يذكر في ذلك: أن عمر بن عبد العزيز غضب يومًا غضبًا شديدًا على رجل، فأمر به فأحضر وجرّد وشُدَّ في الحبال وجيء بالسياط فقال: خلُّوا سبيله، ثمَّ قال: أما أني لولا أن أكون غضبان لسُؤتُك. وتلا: O 3 4 5 6 7 N[٦][٧].

وفي حادثة الإفك التي افتري بها على عرض النبي r تجّلت سمات ضبط النفس وعدم الغضب والرد المنطقي في كافة الأطراف المؤمنة المعنيّة بالأمر- في أبهى الصور، وأرفع المثل، وأجمل التطبيقات الواقعيّة في حال: الألم والأمل، والفرح والحزن، ومع الموافق والمخالف، فتجلّت تلك السمات في: النبي r وزوجه (أم المؤمنين عائشة) ووالديها (أبي بكر الصديق وأم رومان -رضي الله عنهما-) والمجتمع المدني المؤمن بعامة من الصحابة والصحابيات y -ممن لم يتلقَّ الإفك أو يُشِعْه-.

فيمكننا -من ثمّ- بيانُ ضبط النفس وعدم الغضب والرد المنطقي -في حادثة الإفك-

---

(١) أخرجه مسلم (١/٣٦) رقم (١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٨/٣٥)، (٦١١٦).

(٣) أي: تَذِلّ وتَخْضَع، والتَّكْفير: هو أن يَنْحَنِي الإنسان ويُطَأطِئ رأسَه قريبًا من الرُّكوع كما يَفْعل من يُريد تَعْظِيم صاحِبه. النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٨٨).

(٤) أخرجه الترمذي في الجامع (٤/٦٠٥) رقم (٢٤٠٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٧١).

(٥) أخرجه البخاري (٥/٢٢٤٠) رقم (٥٦٧٢)، ومسلم (١/٦٨) رقم (٤٧).

(٦) سورة آل عمران، آية رقم (١٣٤).

(٧) عمر بن عبدالعزيز ص(٨٢).

من خلال جانبين:

الأول- الأطراف المعنيّة بالأمر، سواء من وقع عليه الإفك أو وقع في عرضه أو على أهله أو وقعت له معاناة نفسية بسببه.

الثاني- الوقائع والأحداث التي مرّت بكل طرف من تلك الأطراف.

وبناءً عليه؛ نبين ذلك كما يأتي:

أولاً- النبي r .

١ - حاله r حين تحدث المنافقين بالإفك

أ- تحدث المنافقون في عرض النبي r فاختلقوا قالة السوء العظيمة الموصوفة في الكتاب العزيز بالإفك، وتناقلوها وأشاعوها، متسترين بمشهدٍ لا يمكن الطعن فيه لأنه خالٍ من التهمة، وإذا كان قول الإفك بالأفواه، وروايته بالألسنة، وتلقي الناس إياه بعضهم عن بعض عظيمًا عند الله تبارك وتعالى؛ لأنهم بذلك يؤذون رسول الله r وحليلته[1]؛ فكيف باختلاق أصل الإفك الذي هو افتراء عظيم وكذب بيِّنْ -كما فعل المنافقون-؟، مع ذلك كله ضبط النبي r نفسه:

- تجاه الإفك نفسه، فلم يبادر إلى إنكاره والدفاع عن نفسه وعن زوجه، بل التزم الصمت وتحلّى بالسكينة وتأنى وانتظر أمر الله ووحيه، هذا مع علمه بأن المفتَرى عليهما (زوجه وصفوان -رضي الله عنهما-) من أهل التقوى والفضل والخير.
- تجاه أهل النفاق الذين افتروا عليه في عرضه الشريف، فلم يواجههم بالغضب، ولم يبادرهم بالعقوبة، ولم يبادلهم الطعن والقذف والاتهام، مع ما يعرفه عنهم من الكفر في بواطنهم، بل ما كشفته الأحداث عنهم من ضغينة وحقد وترصُّد وبهتان.
- تجاه زوجه عائشة -رضي الله عنها-.

ب- وزوجه أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- سمع عنها الفرية المختلقة المأفوكة التي اختلقها المنافقون وتداولوها وبثّوها في أرجاء المدينة، وعلِم أن مجيئها مع صفوان وحدهما هو

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/ ٢١٨).

الذي اتخذه المنافقون حجّة للقذف والإفك، ومع هذا كله ضبط نفسه تجاه زوجه:

- فلم يبادر إلى إخبارها بما قيل فيها؛ مراعاة لمرضها بعد رجوعها من السفر، فضلاً عن أن يوجّه التهمة إليها ثم يطلب منها أن تدافع عن نفسها.
- ولم يغضب عليها أو يعنّفها لقبولها ركوب جمل صفوان، فضلاً عن أن يوبّخها ويحمّلها مسؤولية ما قيل فيها من الإفك.
- ولم يقاطعها أو يهجرها، فضلاً عن أن يطلقها، بل كان يزورها بين الفينة والأخرى وهي مريضة، ويطمئن عليها سائلاً: ((كيف تيكم؟))، في تصرف ممتلئ بالروّية ورباطة الجأش والتأنيّ والكلام الموافق للحدث والمناسبة.
- تجاه صفوان بن المعطل t

ج- وصاحبه صفوان بن المعطل t هو الذي قَرَن المنافقون اسمه باسم عائشة -رضي الله عنها- فرمَوهما بالإفك للطعن في عرضه r ، فضبط r نفسه تجاهه:

- فلم يغضب عليه ولا استدعاه لتأنيبه.
- ولم يحمله ذلك على ذكره بالسوء في حضوره أو مغيبه.
- ولم يدفعه الغضب والغيرة على عرضه على التعرّض له بالضرب والاعتداء.

٢ - حاله مع مَنْ تحدّثَ بالإفك الصحابة y .

وقع بعض فضلاء الصحابة في الإفك بالأفواه دون القلوب، وذلك خطيئة عظيمةٌ: لتعلّقها بعرض النبي r ، ولما فيها من إيذائه، ولكونها تُعِين أهل النفاق على تحقيق مرادهم في التشفّي بالنبي r وبالمسلمين عامة، وكان النبي r مع ذلك متّزنًا ثابت الجنان ضابطًا لنفسه الزكيّة تجاههم y :

- لم تبدر منه بادرة غضب تجاههم.
- ولم يتّهمهم بمعونة أهل النفاق على أهل الإسلام.
- ولم يأمر المسلمين بهجرهم.

٣ - لما استشار النبي r عليًا وأسامة -رضي الله عنهما- في فراق زوجته عائشة -رضي الله عنها-.

أ- انقطع الوحي عن النبي r شهرًا كاملاً، ولم يأتِه من السماء خبر في الإفك الذي

تلوكه ألسنة المنافقين، وهو r على ما هو عليه من ضبطِ نفسه وتجنُّبِه الغضبَ وجميعَ مظاهره ولزومِه الصمت -وهو أبلغ ردّ منطقي في مثل هذا الموقف-، ثم انتقل إلى صورة أخرى من صور ضبط النفس وتجنّب ما يضادّه من الغضب والاستعجال، وهي استشارته صحابته y في فراق زوجته عائشة -رضي الله عنها-، فاستشار علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد -رضي الله عنهما- في ذلك، فكانت تلك الاستشارة ضبطًا لنفسه r في كونه لم يتدر إلى هذا الأمر بقرار منفرِد -مع كون ذلك يتعلق بعرضه هو، ومع كونه أكمل الناس عقلاً وأسددهم رأيًا-؛ ليبيّن أهميّة ((مشاورة الرجل بطانته فيما فيه مصلحته من فراق أهله أو غير ذلك))[1].

ب- وحين سمع r من أسامة t مشورتَه بإمساك زوجه -رضي الله عنها-، وثنائه عليها بأنه لا يُعرَف عنها إلا السيرة الحسنة، وتأكيدَه ذلك بالحلف بالله تعالى؛ علَّم r أمته صورة أخرى من صُوَر ضبط النفس:

- فلم يبادر إلى تصديق أسامة بالقول فيقول: صدقتَ، مع كونه يعلم أنه صادق.
- ولم تظهر عليه علامات الفرح والسرور، مع أنه يحبّ أن يبرّئ زوجه الطاهرة.

لأنه لم يسمع بعدُ رأي علي t ، ولم ينتهِ إلى رأيٍ يجزم به ويخلُص إليه من هذه الاستشارة.

ج- وحين أخبره علي بن أبي طالبٍ t بأن الله لم يضيق عليه، وأن النساء سوى عائشة -رضي الله عنها- كثير، وطلب منه الرجوعَ إلى الجارية وسؤالَها عن محلّ الاستشارة (عائشة -رضي الله عنها-):

- لم يردّ عليه بأيّ كلمة توحي بقبول رأيه أو ردّه؛ لأنه لم يصل بعدُ إلى رأي ينتهي إليه.
- ولم تظهر عليه علامات الانزعاج والغضب مما تضمنته مشورته من فراق زوجه التي هي أحب النساء إليه؛ لأن المشورة يُستَمع إليها ولا يُحاسَب عليها المُشير بها إذا كان ناصحًا يحب الخير لمن طلب رأيه ويسعى في راحته.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١٤٣/٨). وانظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٣٩٨).

● وأخذ برأيه في سؤال الجارية؛ لأنه رأيٌ يؤدي إلى الوصول إلى اليقين أو غلبة الظن في موضوع الاستشارة، فيعين على اتخاذ القرار.

د- فسأل النبيُّ r الجاريةَ: ((أي بريرة، هل رأيتِ من شيء يريبك من عائشة؟)):
فكان سؤالاً هادئًا لطيفًا يمتلئ بضبط النفس وعدم الغضب والكلام الموافق للمنطق:

● فناداها باسمها، وفي ذلك من التقريب وطلب حضور الذهن ما فيه.

● وسألها عمن هو أفضل عند الله منها وأحب إلى نفسه r من جميع النساء، وذلك يوحي للمسئول بالأمان والثقة وعدم التردّد في قول الحق.

● واستعلم استعلامًا منطقيًا، فقد عيَّن المطلوب من السؤال تعيينًا دقيقًا؛ فالمسئول عن حاله: عائشة -رضي الله عنها-، والمسئول عنه: ما يريبها منها، وشرط الجواب: أن تكون قد رأت ذلك فيقوم مقام القطع واليقين.

هـ - فأجابت بريرة بنفي أن تكون رأت مِنْ عائشة -رضي الله عنها- ما يريب، بل زادت ذلك تأكيدًا بأنها لم ترَ منها أمرًا تغمصه عليها، وذلك مما تكون به الغاية في الثناء: نفي الريبة خاصة، ثم نفي النقص عامةً. فتعامل r مع هذا الجواب بضبط نفسٍ كما تعامل سابقًا مع شبيهه (رأي أسامة t).

٤ - حين خطب النبي r في المسجد واختصم الصحابة y حول المنبر.

أ- ما إن انتهى النبي r من استشارة علي وأسامة وسؤال بريرة y حتى صعد المنبر فخطب في الصحابة يسألهم العذر (إذا عاقب من تكلم في عرضه على سوء ما صدر منه)[١]، وأثنى على زوجه أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وصاحبه صفوان بن المعطل t بما يعلمه عنهما من ماضيهما الحسن المشرق، وشهد لصفوان بأنه لم يكن يدخل على أهله r إلا معه. فتضمنت خطبته r صورًا من ضبط النفس وعدم الغضب والرد المنطقي:

● لم يبدأ كلامه أو يُضمِّنه بما يوحي بالغضب تجاه أولئك الذين تكلموا في أهل بيته، مع كونه يريد المعذرة إذا عاقبهم.

---

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٠).

- سأل الصحابةَ y أن يعذروه فيمن آذاه في أهله، مع أنه r هو وليّ الأمر، وله أن يأمر بعقوبتهم دون أن يمنعه من ذلك أحد من الناس؛ حفاظًا على نفوس أصحابه وإبقاءً على ألفتهم فيما بينهم وطلبًا لاجتماعهم على موافقته.
- ذكر لزوجه أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وصاحبه صفوان بن المعطل t من الأدلة والقرائن ما ينفي ما قيل عنهما من الإفك، ويدل على بطلانه، ويثبت براءهما منه.
- و لم يصرِّح ببراءة زوجه وصاحبه -رضي الله عنهما- بقاءً على ما كان عليه r من ضبط النفس حتى يترل عليه الوحي في ذلك.

ب- ثم وقع بين الصحابيين الجليلين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة -رضي الله عنهما- ترادٌّ في الكلام أدّى إلى وقوع الاختلاف بينهما حتى ثار الأوس والخزرج وكادوا أن يقتتلوا، فلم يزل رسول الله r يخفضهم؛ حتى سكتوا وسكتَ. وهذا الموقف من أصعب المواقف: يريد النبي r من صحابته y أن يتفقوا على معذرته إذا عاقب أهل الإفك، فإذا هم يحصل بينهم خلافٌ آخر لم يكن في الحسبان، حتى يصل بهم الأمر إلى حد الاقتتال، فيواجه r هذا الموقف العصيب بهدوء وسكينة وضبط نفس:

- فلم يغضب على الصحابة y لخلافهم فيما بينهم وردّ بعضهم على بعض مع كونه قائمًا أمامهم على المنبر.
- لم يؤيد أحد الفريقين أو يشهد له بالصواب في قوله أو فعله.
- نزل من المنبر وصرف عنايته كلَّها لتهدئة الصحابة وتسكينهم ويشير بيده الشريفة أن اهدءوا حتى سكن الصحابة وهدأ الصوت الناجم عن خلافهم فيما بينهم(١).
- ترك ما كان يكلِّم الصحابة فيه وسكتَ عنه و لم يواصل الحديثَ فيه.
- لم يعنّف الصحابة أو يغضب عليهم بعد سكوهم وانتهاء الخلاف الذي حصل بينهم.

٥ - حين سأل زوجته عائشة -رضي الله عنها- عما يذكره الناس عنها.

دخل رسول الله r على عائشة -وعندها أبواها- y، فسلم ثم جلس، فتشهد ثم قال: ((أما بعد؛ يا عائشة؛ فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن

---

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٤).

كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب؛ تاب الله عليه)). فهذا الموقف النبوي الشريف يدل على ضبط النفس ومظاهر ذلك الضبط من عدة نواحٍ:

- تأنّيه ﷺ من حيث: سلامه ثم جلوسه ثم تشهّده قبل خطابه، وهو الذي كابد معاناة الإفك شهرًا كاملاً، فلم يجعله ذلك يحيد عن الأناة إلى العجلة.
- مناداته زوجه عائشة -رضي الله عنها- باسمها مع عدم جلوسه قبل ذلك معها مذ قيل ما قيل فيها، ومع كونه جاء يخاطبها بما لم يخاطبها فيه (وهو الإفك) طوال الفترة الماضية، فلم يجعله ذلك يمتنع عن مناداتها باسمها.
- الاتزان في طريقة السؤال، وجميل أدب العبارات، فهو يخبرها ببلوغ كلام يُكني عنه بقوله: ((كذا وكذا)) ولا يفصح به[١] لضبطه لنفسه، وعدم غضبه.
- ذكره للحالتين المتصوَّرتين في مثل هذه الحال: أن تكون بريئة، وأن تكون قد ألَّمت بذنب، فلم يقتصر على البراءة -وهي الحالة المحبوبة إليه- مع كونه لا يعلم عن زوجه إلا الخير، ولم يسمع من صحابته عنها إلا الخير، وطلب من الصحابة أن يعذروه إذا عاقب من آذاه فيها، بل ذكر حالة الإلمام بالذنب لأنه جاء ليسألها فتتكلَّم هي عن نفسها لا أن يثبِت هو براءتها بقولٍ من عنده.
- بيّن لها عاقبة كل حالٍ من الحالين: ففي حال براءتها لن يتخلى الله عنها، بل سيبرئها بوحي ينزله بذلك قرآنا أو غيره[٢]؛ إشارة منه لها بأن تحسن الظن بالله وأنْ لا تقول على نفسها ما لم تفعله، فتثبت على صدقها، وتثق بنصرُ الله سبحانه لها. وفي حال الإلمام بالذنب أرشدها إلى التوبة والاستغفار، ولم يُيَئِّسها من رحمة الله، فإن الله يتوب على من تاب[٣].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٥/٨): ((ولم يَرِد في شيء من الطرق التصريح، فلعل الكناية من لفظ النبي ﷺ)).

(٢) انظر: المصدر السابق (٤٧٥/٨).

(٣) انظر: المصدر السابق (٤٧٥/٨).

٦ - حاله حين نزل عليه الوحي ببراءة زوجه أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-

حين فرغت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- من ردها على سؤال الرسول r غشى النبي r ما يغشاه حين يترل عليه الوحي، فوضعوا له وسادة من أدم حتى سُري عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: ((أبشري -يا عائشة-، أما الله U فقد برأك)). فنرى هنا شدِّة الانضباط النفسي في هيئة وطريقة لفظة البشارة:

- فالابتسامة تنبئُ عن خير.
- والنفس المنتظرة المتشوفة والمتشوقة لذلك الخير تنتظر كلمة حاسمة شافية تروي ظمأ البريء المتهم، فتأتي من الذي أوتي جوامع الكلم بقوله: (أبشري يا عائشة)، فقوله r : (أبشري) لفظة ابتدأ بها حديثه، وهي بلا شك تدل على انضباط النفس في حسن اختيار الألفاظ ومواطن ذكرها؛ لأنَّ فيها تهيئة المخاطب نفسيًا للخير الذي يليها من البشارة، ولأن فيه تحفيز النفس المتهمة لذلك الخير المبشر به، فهذه اللفظة فيها ((استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام))[(١)].

ثانيًا- أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-.

١ - حالها لما علمت بتحدث المنافقين بالإفك.

لم تكن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- تعلم ما يتناقله المنافقون من الكذب المختلق عليها طيلة شهر كامل؛ لأنها مرضت على إثر قدومها إلى المدينة مع الجيش، ولم تعلم إلا عن طريق أم مسطح التي أخبرتها بذلك في أثناء عودتهما إلى بيوتهما بعد فراغهما من قضاء حاجتهما، ومع شدة وقع الخبر عليها -كما دل عليه قولها: ((فازددتُ مرضًا إلى مرضي))- اتصفت بضبط النفس وعدم الغضب:

- فلم يصدر منها ما لا يليق من الانفعالات النفسية كالجزع والغضب، مع أن الخبر فَجَأَها ولم تكن تتوقعه البتة، بل لم يخطر ببالها أن تُرمى به.
- ولا تكلَّمت على من اتهمها، مع يقينها بما أكرمها الله به من إيمان وحياء وعفة ووفاء لزوجها، ومع علمها بأن ما قيل فيها هو محض كذب وبهتان، وأنه صادر عمّن لا خلاق له من أهل النفاق.

---

(١) المصدر السابق (٤٧٩/٨).

• وتأنّت غاية التأني، فلم تذهب من وقتها إلى بيت أبويها لتسألهما وتتثبّت منهما عن صحة ذلك، بل رجعت -هادئة النفس، رابطة الجأش- إلى بيتها كما خرجت منه، وانتظرت حتى جاءها زوجها النبي r فاستأذنته في أن تزور أبويها.

• وكان استئذانها للنبي r بلباقة الكلمة التي تنم عن أدب وتأنٍ ورويّة، دون أن يظهر عليها أو على كلامها أي انفعالِ غضبٍ أو لفظٍ لا يُحمَد.

٢ - لما تحدث بعض الصحابة y بالإفك.

وقع بعض فضلاء الصحابة y في قول الإفك بالأفواه دون القلوب، ودون أن يقصدوا به أذيّة النبي r، وقد علِمت عائشة -رضي الله عنها- بهم وبأقوالهم، ثم لم تكن مواقفها معهم تتَسِم إلا بضبط النفس وعدم الغضب والرد المنطقي:

• فلم يُذكَر عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- البتة أنها تكلمت فيهم بسوء، مع كونها هي المُحِقّة قطعًا وهم المُخطِئون، بل ضبطت نفسها، وصانت لسانها عن الخوض في أعراضهم، ولم تَزِد على أن ذكرت موقف حمنة بنت جحش -رضي الله عنها- فقالت: ((وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها؛ فهلكت فيمَن هلك))، فاقتصرت على ذكر سبب خوضها في الإفك دون أن تزيد على ذلك.

• ثم كان تعاملها مع أولئك الصحابة -بعد ظهور براءتها وانقضاء الحادثة- تعامل المسلم مع أخيه المسلم، فلم تتّخذ موقفهم وسيلةً للطعن فيهم، ولا قاطعتهم، بل كانت تكره أن يُسَبّ عندها حسان بن ثابت t -وهو الذي خاض في الإفك فيمن خاض من أولئك الصحابة-؛ لما له من الماضي المشرق بدفاعه ومنافحته بشعره عن رسول الله r [(١)]، وهذا من أعلى ما يكون من ضبط النفس؛ إذ إنها لم تكتفِ بعدم ذكره بسوء، بل كانت تكره أن يُذكَر هو بسوء، ثم زادت على ذلك بأنها كانت تذكر له منقبته مع رسول الله r.

٣ - حين توثّقت من والدها عما يذكره الناس فيها من الإفك.

ذهبت أم المؤمنين -رضي الله عنها- إلى والديها تريد أن تتيقّن من جهتهما عما

---

(١) معالم التنزيل (٢٣/٦).

سمعته من أم مسطح من خوض الناس فيها بخبر الإفك، فسألت والدتها، فتأكّد لها الخبر. وفي هذا الموقف معالمُ من ضبط النفس وعدم الغضب والرد المنطقي:

- فسؤالها لوالدتها كان بتُؤدَة وحلم وأدب، فلم تبادر إلى سؤالها بتلهّف واستعجال، بل نادتها: ((يا أمتاه))، ثم سألت عمّا تريد أن تسأل عنه: ((ماذا يتحدث به الناس؟)) فأبهمتْه ولم تذكره صراحة.
- ولما تأكّدت من الخبر لم يصدر عنها من ردود الأفعال والألفاظ ما يسيء، واكتفت بأن استنكرت أن يتحدث الناس بذلك.
- و((استغاثت بالله متعجبة من وقوع مثل ذلك في حقها مع براءتها المحققة عندها))[1] فقالت: ((سبحان الله)).

٤ - لما علمت باستشارة النبي ﷺ بعض صحابته في أمرها.

قَصَّت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- استشارة النبي ﷺ أسامة وعليًا -رضي الله عنهما- في فراقها، ثم سؤاله بريرة -رضي الله عنها- إن كانت رأت ما يَريبها منها، وإنه لموقف عصيب جدًا أن تسمع أم المؤمنين أن النبي ﷺ قد شاور بعض صحابته في فراقها، لكنها كانت تستصحب ضبط النفس في كل أحوالها وشؤونها:

- فلم يصدر منها أي جزع أو فعلٍ غاضبٍ من استشارة النبي بعضَ صحابته في ذلك، بل إنها -لِما آتاها الله من فهم الدين وكمال العقل- ذكرت أن ذلك كان له سبب وجيه، وهو ما ذكرته في قولها: ((ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد -حين استلبث الوحي-)).
- ولم تغضب من قول علي رضي الله عنه: ((يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير)) مع ما يُفهَم منه من أنه يشير على النبي ﷺ بفراقها، بل لم تعقِّب على مشورته هذه بأي كلمة.
- ولم تذكر أنها كانت تأمل من أسامة وبريرة -رضي الله عنهما- أن يصرّحا ببراءتها، ولم تعاتبهما على عدم فعلهما لذلك -مع كون بريرة خادمتها-.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٦٧).

٥ - عندما علمت باختصام الصحابة حول المنبر ورسول الله r يخطب فيهم.

فرغ النبي r من استشارة بعض صحابته في أمر عائشة -رضي الله عنها-، فصعد المنبر وطلب المعذرة في عقوبة من آذاه في أهله، وأثنى بالخير على زوجه وصفوان بن المعطل -رضي الله عنهما-، فقام سعد بن معاذ (وهو أوسي) فقال: ((أنا والله أعذرك منه -يا رسول الله-، فإن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك)). فقام سعد بن عبادة (وهو خزرجي، وكانت أمُّ حسان بنتَ عمه) فقال: ((كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رَهْطِكَ ما أَحْبَبْتَ أن يُقْتَل)). فالنبي r يريد أن يعاقب من آذاه في أهله، وسيد الأوس سعد بن معاذ يوافق على ذلك، بل يجعل العقوبة هي ضرب العنق (القتل)، فيصدر عن سيد الخزرج سعد بن عبادة t ما قد يوحي بأنه لا يوافق على ذلك؛ لكون بعض من آذى النبيَّ r هو من قبيلته من الخزرج، وهذا موقف قد تطيش فيه العقول، وتحتدّ الألسن، وتخرج الجوارح عن طورها؛ فإن من رُمِي بالإفك يأمل في مثل هذه الحال أن يوافق الصحابة جميعًا على أن يعاقب النبي r من آذاه في أهله، فيعاقبه وينتهي الأمر، ولكن موقف سعد بن عبادة حال دون ذلك، ومع ذلك كله لم تتعامل عائشة -رضي الله عنها- مع هذا الموقف إلا بضبط نفس:

- فلم تغضب من سعد بن عبادة، فضلاً عن أن تحمل عليه في نفسها الغِل والحقد.
- ولم تتكلّم فيه بسوء، فضلاً عن أن تتّهمه في نيّته تجاهها أو تجاه الدين بعامة، بل ذكرت السبب الذي حمله على ذلك فقالت: ((اجتهلته الحميّة))، فوضَعت الأمور في نصابها دون شَطَط.
- بل كان ضبطُها نفسَها في هذا الموقف مما يُضرِب به المثل، إذ أثنت على سعد ابن عبادة فقالت: ((وكان قبل ذلك رجلا صالحا))، فشهدت له بالصلاح؛ فتعرف الأمة له فضله ومكانته، وأن موقفه لم يكن عن قصدٍ فاسد أو نية خبيثة ولا لنصرة أهل النفاق أو الخائضين في الإفك.

٦ - لما جاءها النبي r يسألها عما يذكره الناس في أمرها.

حين فرغ النبي r من صلاة العصر دخل على بيت أبي بكر الصديق t وجلس مقابلاً لزوجه عائشة -رضي الله عنها- وتشهد ثم قال: ((أما بعد، يا عائشة، فإنه قد بلغني

عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب؛ تاب الله عليه)). فكان أول موقف تسمع فيه عائشةُ -رضي الله عنها- من النبيَّ ﷺ -مواجهةً- شيئا يتعلق بخبر الإفك، لكنه لم يكن تبرئة ولا تبشيرًا، بل كان كلامًا يتضمن طلب جوابها عما يقوله الناس فيها، كما أنه تضمن موعظة وتذكيرًا بالله تعالى، وقد كان موقفًا تصعب مواجهته، فصاحب السؤال هو زوجها وحبيبها محمد ﷺ، ولكنها -رضي الله عنها- واجهته بأجمل صُور ضبط النفس وعدم الغضب والرد المنطقي:

- فلم تغضب من السؤال وما تضمنه من ذكر حالتي البراءة والإلمام بالذنب، ولا ذكرت أن ذلك فيه طعنٌ فيها، ولا عاتبت زوجَها على ذلك، وما كان منها إلا أن قلص دمعها فتوقفت عن البكاء.

- وطلبت من أبيها وأمها أن يجيبا عنها -مع أن السؤال إنما وقع عما في باطن الأمر وهما لا اطلاع لهما على ذلك-؛ إشارة إلى أنها لم يقع منها شيء في الباطن يخالف الظاهر الذي هما يطلعان عليه، فكأنها قالت لهما: برئاني بما شئتما وأنتما على ثقة من الصدق فيما تقولانه[1]، فلم يفعلا؛ فلم تكن لتغضب منهما أو تعدّ ذلك خذلانًا منهما لها.

- ولما أجابت هي أجابت بردّ منطقيّ دلّ على ما تحلّت به من قوةٍ في ضبط النفس وعدم الغضب فمهّدت لجوابها فقالت: ((إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به))، فَـ((قالت هذا -وإن لم يكن على حقيقته على سبيل المقابلة- لما وقع من المبالغة في التنقيب عن ذلك، وهي كانت -لما تحققته من براءة نفسها ومنزلتها- تعتقد أنه كان ينبغي لكل من سمع عنها ذلك أن يقطع بكذبه، لكن العذر لهم عن ذلك أنهم أرادوا إقامة الحجة على من تكلّم في ذلك، ولا يكفي فيها مجرّد نفي ما قالوا

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٤٧٥). وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/٢٢٩)، وإكمال إكمال المعلم (٩/٢١١).

والسكوت عليه، بل تعيّنَ التنقيب عليه لقطع شبههم، أو مرادها بمن صدق به أصحاب الإفك لكن ضمّت إليه من لم يكذبهم تغليبًا))[١].

- ثم أتبعتْ ذلك بجوابها مُضَمِّنةً إياه إعلانًا ببراءتها مما قيل فيها وعتابًا لطيفًا فقالت: ((فإن قلت لكم إني بريئة -والله U يعلم أني لبريئة- لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر -والله U يعلم أني منه بريئة- لتصدقونني)).
- ثم ختمت ردّها المنطقي المتأني بذكر مثَل قرآني تصف به حالها وحالهم، يتضمن: أنها ستبقى متحلِّية بالصبر وضبط النفس، لتبرأ نفسها مما يقال فيها من الإفك.

٧- لما نزل الوحي ببراءتها.

انتهت عائشة -رضي الله عنها- من جوابها، وما تحرك رسول الله r من مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد؛ حتى أنزل الله U على نبيه r الوحي ببراءتها؛ فسُرِّي عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: ((أبشري -يا عائشة-، أما الله U فقد برأك))[٢]. إنها صورةٌ من أفضل صور الفرج والفرح: فالبراءة ثبتت، والتهمة اضمحلّت، والكربة زالت، والله سبحانه هو الذي برّأها بقرآن يتلى إلى يوم الدين، والرسول r هو الذي يبلِّغها بذلك وقد بلغ الفرح منه ببراءتها مبلغًا عظيمًا، والوالدان يسمعان فيفرحان لابنتهما أشدّ الفرح، ولا تزال أم المؤمنين -رضي الله عنها- على ثباتها ورباطة جأشها وضبطها نفسَها: فلم تفرح فرحًا يخرج بها عن الشرع أو العقل، بل أرجعت الفضل إلى الله وحده، وحمدته على أن أنزل براءتها، فقالت: ((ولا أحمد إلا الله U؛ هو الذي أنزل براءتي))[٣].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٥).

(٢) في صحيح البخاري (٢٦٦١): يا عائشة؛ احمدي الله فقد برأك الله.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٧): ((قال ابن الجوزي: إنما قالت ذلك إدلالاً كما يدل الحبيب على حبيبه. وقيل: أشارت إلى إفراد الله تعالى بقولها: "فهو الذي أنزل براءتي" فناسب إفراده بالحمد في الحال، ولا يلزم منه ترك الحمد بعد ذلك. ويحتمل أنْ تمسكت بظاهر قوله r لها: "احمدي الله" ففهمت منه أمرها بإفراد الله تعالى بالحمد، فقالت ذلك)).

ثالثًا- المجتمع المسلم في المدينة.

كان بيت أبي بكر الصديق t ، وعامة الصحابة y -ممن لم يتلقَّ الإفك أو يُشِعْه-؛ متجلّدين بإيمانهم، ثابتين بيقينهم، ضابطين لأنفسهم طوال أحداث الإفك:

١ - لما تحدّث المنافقون بالإفك.

- لم يبادر أحدٌ منهم إلى عائشة -رضي الله عنها- فيخبرها بخبر الإفك، فضلاً عن أن يتهموها أو يتناولوها في حضورها أو غيابها بكلامٍ لا يسرّ، بل كانوا في أنفسهم يعلمون براءتها من الإفك وكذب المنافقين فيه، بل بلغ بهم ضبط النفس منتهاه في قصة أبي أيوب مع زوجه -رضي الله عنهما- حين عقد مقارنة بين زوجه وعائشة -رضي الله عنها- مفضِّلاً عائشة على زوجه، وهذا من أعلى ما يكون في ضبط النفس.
- كما أنهم لم يتهموا صفوان بن المعطل، ولا تعرّضوا له بسوء من قول أو فعل، بل إنهم يعلمون براءته كما يعلمون براءة عائشة -رضي الله عنها-.
- ولا شك أنهم كان يغيظهم هذا الإفك اختلاقًا وإشاعةً من قبل المنافقين، ولكنّهم y لم يُذكر عنهم أنهم ابتدروا لأذيّة منافق، أو قاموا بردة فعلٍ معاكسة تجاه أحدٍ منهم، بل كانوا يوكلون الأمر لأهله، ولا يحيدون عن فعل النبي r الذي هو أشدُّ من تأذّى بالإفك، فهم يرونه متأنيًا، يتحقق مما يقال، ويضع الأمور في مواضعها الصحيحة، ولا يظهر عليه الغضب، فتمثّلوا فعله.

٢ - لما تكلّم بعض الصحابة y بالإفك.

- لم يتكلّم أحدٌ من صحابة رسول r -ومنهم بيت أبي بكر الصديق- في إخوانهم من أهل الإيمان ممن وقع في تلقّي الإفك أو إشاعته، ولم يتعرّضوا لهم بإيذاء وهجران، بل التزموا تجاههم الصمت وعدم التشهير.
- وكان ممن تكلّم في الإفك -من الصحابة-: مسطح بن أثاثة t ، وهو قريبٌ لأبي بكر t ، وكان أبو بكر ينفق عليه، فلم يقطع عنه النفقة بسبب خوضه في الإفك، ثم لما نزل الوحي ببراءة عائشة -رضي الله عنها- قال: ((والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال

لعائشة ما قال))، فَـــ((يؤخذ منه مشروعيّة ترك المؤاخذة بالذنب مادام احتمال عدمه موجودًا؛ لأن أبا بكر لم يقطع نفقة مسطح إلا بعد تحقيق ذنبه فيما وقع منه))[1]، ثم أنزل الله U: H O
I J K L M N O P Q R S T U V X Y [
\ ] ^ _ ` a b c d N[2] أعاد أبو بكر النفقة على مسطح وقال: ((والله لا أنزعها منه أبدا))، فما أعظمَ ضبطَه نفسَه تجاه من تكلم في عرض ابنته قبل ظهور البراءة وبعدها!

٣- حين علمت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بخبر الإفك.

● كانت أم رومان -رضي الله عنها- ترى شِدّة الأسى والحزن الذي أَلَمَّ بابنتها وهي تسألها عما يتحدث الناس به في شأنها، والأم أحيانًا يبلغ الهم بها أكثر من ولدها المبتلى، فكان فؤادها يعتصر ألًما مما ترى على ابنتها من أثر الغم الذي على محياها مما بلغها من الإفك، ومع ذلك تضبط نفسها، فلا تظهر الجزع فتزيد ألم ابنتها، ولا تغضب، بل تتمثل السكينة وتتعامل مع الموقف بتؤدة وحلم وتأنٍّ، وترد على سؤال ابنتها ردًا منطقيًا يطفئ لهب الإفك الذي أحرق فؤادها، فتقول لها: ((يا بنيّة، هوني عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها)).

● وأبو بكر الصديق t في أعلى البيت يقرأ القرآن الكريم، ويسمع كلامًا يدور بين اثنتين، فيستفهم من زوجه أم رومان، فتقول له: إنها عائشة، فيقول لها: ما شأنها؟ فتقول: بلغها الذي ذُكِر مِنْ شأنها، فيبكي متألًما من ألمها، ولكنّه يضبط نفسه أمام ابنته، ويشير عليها بما هو في صالحها، فيقسم عليها أن ترجع لبيتها، فتفعل -رضي الله عنها-[3].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٨).

(٢) سورة النور، آية رقم (٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٥٧) معلّقًا بصيغة الجَزْم، والترمذي في الجامع (٣١٨٠)، والذهبيُّ في تاريخه (٢/ ٢٧١) -وعنده أمر أبي بكر لها بالرجوع إلى البيت، من غير قَسَم-، من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها-. قال الذهبي (٢/ ٢٧٢): "هذا حديث عالٍ حسن الإسناد" اهـــ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣١٨٠).

• ولم يقم أحد من الصحابة البتة بزيارة عائشة -رضي الله عنها- أو الكلام معها بما يؤجج نفسها أو يزيد حسرتها، بل زارتها إحدى الصحابيات لتؤنسها وتؤازرها، وذلك مما يعينها على ما كانت عليه من ضبط النفس.

٤- لما سأل النبي r بعض الصحابة y في أمر عائشة -رضي الله عنها-.

• تجلّت في الصحابيين الجليلين علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد -رضي الله عنهما- جملةٌ من أكمل معاني ضبط النفس وهما يُستشاران من النبي r في فراق زوجه عائشة -رضي الله عنها-، وإنه لموقف عصيب: فالمستشير هو النبي r الذي يفديانه بالنفس ويُكنّان له العاطفةَ الجياشة المفرطة في الحب والولاء، والمُستشار عنه: أحب النساء إليه الطاهرة الشريفة، والمُستشار فيه: فراق أحب الخلق إليهم (النبي r) لأحب النساء إليه (زوجه عائشة -رضي الله عنها-)، ومع ذلك كله تحلّيا بضبط النفس: فلم تغلبهما العاطفة المحضة، بل أخلصا في النصح، وأبديا الرأي الصادق الذي يريانه صوابًا دون مداراة أو مداهنة، وكان ردّهما ردًّا منطقيًا: فأسامة أشار بإبقاء عائشة -رضي الله عنها- بما يعلمه من حالها من الخير والصلاح والتُّقى، وبما لها من الود في نفس النبي r، وعليٌّ أشار بما يريح به جانب النبي r مع إشارته بسؤال الجارية التي يعلم أنها ستذكر للنبي r من حال عائشة ما يسرّه. وإنهما لَرأيان يثبتان عمق ضبط النفس، وعدم الغضب، والرد المنطقي.

• كذلك حين ننظر في حال الجارية بريرة -رضي الله عنها- وهي تُسأَل عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- زوجِ النبي r؛ فإنها لم تتهيج أو تتردد في بيان الحق الذي تراه، وجاء جوابها رصينًا محكَمًا بليغًا كافيًا شافيًا، وهذا يدل على ما كانت تتحلّى به من شِدّة ضبطها نفسَها وعدم غضبها وردها المنطقي، مما نتج عنه معنى سامٍ من معاني ضبط النفس وعدم الغضب والرد المنطقي.

٥- لما كان أبو بكر وأم رومان يسمعان سؤال النبي r لعائشة -رضي الله عنها-، وجوابها له، ويريان نزول الوحي عليه.

• رأى الأبوان اللذان شاركا ابنتهما أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أَلَمها الشديد منذ علمها بما قيل فيها من الإفك؛ رأيا الموقف العصيب الذي دهم ابنتهما وهي تُسأل من النبي r ذلك السؤال الذي اشتمل على احتمالين: الإعلام بالبراءة أو الإقرار

بالإلمام بالذنب، فلم تأخذهما عاطفة الأبوّة تجاه ابنتهما فيعترضان على هذا السؤال، فضلاً عن أن يغضبا من ذلك، بل رَضِيا بما يُرضي الله ورسوله، كما أنهما لم يبادرا إلى إجابة النبي r عن ابنتهما، بل تركا الجواب لها، فكانت تلك صورة صادقة من صور ضبط النفس في مثل هذا الموقف.

- وعندما طلبت أم المؤمنين من والديها أن يجيبا عنها رسول الله r ؛ اتفقا على موقف واحد، وهو أن كل واحد منهما قال: ((والله ما أدري ما أقول لرسول الله r))، فكان ردّهما منطقيًا ناتجًا عن كمال ضبط النفس وعدم الغضب، فلم تأخذهما عاطفة الأبوة فيزكيا ابنتهما مع أنهما يعلمان براءتها علم اليقين، بل إنهما لقوة اتّباعهما نبيَّ الله r أجابا بما يطابق السؤال في المعنى، لأنهما -وإن كانا يتحققان براءتها- كرها أن يزكيا ابنتهما[1]، كما أنهما لكمال تأدُّبهما بآداب الوحي أقرّا بأنَّ الأمر الذي سألها عنه النبي r لا يقفان منه على شيءٍ زائد على ما عند رسول الله r قبل نزول الوحي من حسن الظن بها وإيكال السرائر إلى الله تعالى[2].

- وسمعا جواب ابنتهما البليغ الحكيم، الممتلئ إشراقًا بإعلان البراءة، وحزنًا بما تعانيه من ألمٍ؛ فلم يستعجلا بفعلٍ ولا كلام، ولا بادرا بإعلان فرحتهما بما تضمنه جواب ابنتهما من إعلان البراءة ولا بإظهار حزنهما على ما اشتمل عليه من ألم، بل ثبتا على ما كانا عليه من ضبط النفس وترقّبا ماذا يكون من النبي r .

- وبلغ الكرب أقصاه عند أبي بكر الصديق وأم رومان -رضي الله عنهما- عندما غشا النبي r ما يغشاه عند نزول الوحي عليه، فتصف أم المؤمنين حالهما فتقول: ((وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سُرّي عن رسول الله r حتى ظننت لتخرجن أنفُسُهما فَرَقًا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس))[3]، فمع ترقّبهما ما يترل به الوحي لزما

---

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٥/٨)

(٢) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١١١/١٧).

(٣) أخرجه محمد بن إسحاق في سيرته (٢/ ٣٠٢ - ابن هشام) - ومن طريقه: الطبري في تاريخه (٢/ ١١٤)-، والواقدي في المغازي (٢/ ٤٣٣)، من حديث عبَّاد بن عبدالله بن الزبير عن عائشة -رضي الله عنها-، ومن حديث غيره. وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في تخريج فقه السيرة للغزالي (ص ٢٢٤).

الصمت والسكينة، و لم يستعجلا بسؤال رسول الله r عمّا نزل به الوحي، بل انتظرا بضبط نفسٍ حتى أخبرهم رسول الله r بما أنزله الله عليه من الوحي.

٦ - لما نزلت البشرى بتبرئة الله لعائشة -رضي الله عنها- أمامهم.

- بشّر النبي r عائشة -رضي الله عنها- بتبرئة الله لها، فأشارت عليها أمها بأن تقوم إليه لتحمده، وهذه الإشارة تدل على رشدٍ وعقل، فإن الغضب أو فرط الفرح لا يتأتى معهما غالبًا مثل هذه المشورة الموفَّقة، وهذا يبيّن ضبط النفس الذي تحلّت به تلك الأم المتزنة الحصيفة.
- وقبّل أبو بكر t رأس ابنته، فقالت له: ((ألا عذرتني؟، فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت مالا أعلم؟))[١]، فكان رده منطقيًا يدلّ على كمال ضبط النفس؛ إذ تضمن: إظهار عذره، وبيان كمال وقوفه عند حكم الله ورسوله وعدم التقدم عليه، ولو كان من أجل البنت الصالحة التي يتيقن براءها.

لقد كان ضبط النفس وعدم الغضب والرد المنطقي من أعظم الآثار النفسية التي بلغ فيها الصحابة y مبلغًا عظيمًا -مع شدة حادثة الإفك على نفوسهم-، فلم يذكر عنهم غضب مفرط أدى إلى مقالة هوجاء، بل كانت تلك النفوس الطيبة متعلقة بآداب القرآن والسنّة، فقد تأثروا بما كانوا يرونه من تطبيق عملي من قدوهم وأسوهم رسول الله r الذي كان أضبط البشر نفسًا، وأكملهم ردًا منطقيًا، والمواقف التي مرَّ بها في حادثة الإفك مضيئة ناصعة ناطقة بذلك، وكذلك الشأن في زوجه عائشة -رضي الله عنها- التي كانت في ضبطها لنفسها وفي ردّها مضرب المثل، ولا غرو!، فهي ربيبة البيت الطاهر، فقد تمثل أبواها مع فتنة الإفك أعظم معاني ضبط النفس.

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (٢٦٦٥ - كشف الأستار)، والطبري وأبو عوانة -كما في فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٤٧٧)-، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٢/ ٢٦٠)، من حديث مجاهد عن عائشة -رضي الله عنها- أنه لما نزل عذرها قبَّل أبو بكر رأسها فقالت... فذكره. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٠): "رجاله رجال الصحيح" اهـ، وصحَّح إسنادَه: السيوطيُّ في الدر المنثور (١٠/ ٦٩٢)، والألبانيُّ في السلسلة الصحيحة (٦/ ١/ ٢٨).

هكذا كانت صُور ضبط النفس وعدم الغضب والرد المنطقي في حادثة الإفك، وهي صُور جليلة القدر، رفيعة الشأن، مملوءة عبرًا وفوائد يستضيء بها الداعية في دعوته، فمنها:

١- تحصيل هذه الصفات (ضبط النفس وعدم الغضب والرد المنطقي) له أسباب اتضحت من خلال حادثة الإفك، ومنها:

- الإيمان والعلم.
- التربية الإيمانيّة على نصوص القرآن والسنة.
- الاقتداء بالنبي r في أحواله كلها، وكذلك الاقتداء بصحابته y.

فينبغي على الداعية أن يبذل جهده في تحصيلها؛ ليكتسب تلك الصفات العالية الشريفة.

٢- أبرزت حادثة الإفك أن هذه الصفات مطلب مهم للمسلم على وجه العموم، ومتأكدة في حق الدعاة على وجه الخصوص، لما يأتي:

- لأن الدعاة إلى الله تعالى يحملون رسالة الأنبياء -عليهم السلام-، والأنبياء كانوا على أكمل خصال، فكذلك الدعاة يجب أن يحرصوا على امتثال صفاتهم.
- ولأن الدعاة إلى الله تعالى قد يجدون من المدعوّين منازعةً أو سبًّا أو شتمًا أو قذفًا، وهذا يستدعي منهم ضبط النفس وعدم الغضب والرد المنطقي.
- ولأنَّ من لم يتصف بها وقع فيما لا تحمد عقباه، وجنى على الدعوة إلى الله تعالى وعلى من ينتسب إليها، فضلاً عن جنايته على نفسه.

٣- لم تفارق هذه الصفاتُ النبيَّ r وزوجَه عائشةَ -رضي الله عنها- وأبويها وكافةَ الصحابة y -ممن لم يتلقَّ الإفك أو يُشِعْه- منذ بدء الإفك وحتى نزول براءة عائشة -رضي الله عنها-، فما من موقف من مواقف الحادثة إلا وتظهر فيه هذه الصفات كلها أو بعضها واضحةً جلية، وهذا يجعل الداعية يهذّب نفسه ويربّيها على لزوم هذه الصفات في أحواله كلها: في الغضب والرضا، والفرح والحزن، والغم والأمل، والنصر والهزيمة، ومع الموافق والمخالف، والحبيب والعدو، والقريب والبعيد.

٤- صدرت هذه الصفات من كافة الأطراف المؤمنة المعنية في حادثة الإفك (النبيّ r وزوجه عائشة -رضي الله عنها- وأبويها وكافة الصحابة y -ممن لم يتلقَّ الإفك أو يُشِعْه-)، مما يوجب على الداعية أن يكون متصفًا بها مهما كان دوره في الحياة: أبًا وزوجًا وقريبًا ومُشيرًا وتابعًا لغيره وجارًا ومعلمًا ومسلمًا من آحاد المسلمين.

٥- لهذه الصفات دلائل وعلامات تدل عليها، ينبغي على الداعية معرفتها لِيَزِنَ نفسه ويُقَوِّم شخصيته، فمتى وُجِدت فيه عرف أنه ممن أنعم الله عليه بتلك الصفات فيحمده سبحانه ويثبت عليها، وإن كانت مفقودة لديه استرجع وأدرك ما نقص عنه من الخير واجتهد في تحصيلها والاتصاف بها، ومنها:

- مشاورة الرجلِ بطانَته فيما فيه مصلحته.
- الأخذ بالرأي السديد عند الاستشارة.
- عدم المداهنة والمداراة في حال الاستشارة في حق المحبوب وغيره.
- السكون والتأني والوقار في طرح السؤال أو عند الاستفسار عن أمر مؤلم للنفس.
- الاتزان في طريقة السؤال.
- جميل أدب العبارة.
- تضمين النصح والإرشاد في ثنايا السؤال.
- اختيار اللفظة المناسبة في الوقت والمكان المناسب.
- الاستئذان ممن له الحق أنْ يلتمس منه الإذن.
- التحري في تقصي الحقائق.
- حفظ القلب عن الغل والحقد والبغض، وحفظ الجوارح عن الجزع والتسخّط والغضب، وحفظ اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب.
- ذكر الماضي الحسن دفاعًا عن المخطئ، والتذكير به عند اتهامه.
- حمل الناس على المحمل والظن الحسن.
- التسبيح عند نزول المصائب والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى والاعتصام به.
- إحالة الجواب للأقارب الكبار عند سؤاله عما ابتلي به.
- عدم الخضوع للأراجيف والفتن.
- عدم التنازل عن الحق الذي يعرفه في نفسه، بل يثبت عليه، ويضحي من أجله.
- عدم التواني عن العفو والصفح متى وجد إليه سبيلا، بل يكون هو الذي يبادر إليه.
- وجود الأدلّة والقرائن القويّة التي تثبت سلامة الاستدلال وقوة الحجة.

" " "

المبحث الثالث

الأثر النفسي على الداعية من شدة البلاء

خلق اللهُ سبحانه الإنسانَ في هذه الحياة الدنيا في كَبَدٍ وشِدّة ومشقة وعناء، يكابد مضائقها ومصائبها ومصاعبها وشدائدها، بدءًا من حمله في بطن أمه، ثم خروجه إلى هذه الحياة، وما يتبع ذلك في أمور حياته وشئونها وأطوارها[١]، فهو لا يزال في ذلك قضاءً قضاه الله عليه، وقضاء الله نافذٌ لا يُرَدّ، وله سبحانه الحكمة البالغة.

والمؤمن شرّفه الله بالإيمان به سبحانه وبما أنزله من الوحي في كتابه وسنة رسوله r ، فيعلم ويوقن بأن هذه الحياة الدنيا ليست دار بقاء ولا مَقَرّ نعيم، وإنما هي معبَر وجِسر إلى الآخرة الباقية الخالدة، وأن ما يصيبه فيها من شدة وبلاء فهو من قضاء الله وقدره، وأن الله ((إذا أحب قومًا ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط))[٢]، وأنه ما يصيبه ((من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه))[٣]، فيورِثه ذلك صبرًا على البلاء مهما كانت شدته: O 0 0 1 2 3

4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ A B C D E F G H

I J K L M N P Q R N[٤].

وإذا كان ((أشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل))[٥]؛ فإن أفضل الأنبياء والرسل وأشرفهم وأحبَّهم إلى الله سبحانه وتعالى: نبينا محمد r ، وقد ابتُلي في الله أشدَّ البلاء، فعاداه

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/٤٠٨-٤١٠)، تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٠٣).

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع (٤/٦٠١) رقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه في السنن (٢/١٣٣٨) رقم (٤٠٣١)، وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٤٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣١٧)، ومسلم (٢٥٧٢).

(٤) سورة البقرة، الآيات رقم (١٥٥-١٥٧).

(٥) أخرجه الترمذي في الجامع (٤/٦٠١) رقم (٢٣٩٨)، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٤٠٢).

مَن هو مِن أقرب الناس له (عمه أبو لهب)، ورماه قومه عن قوسٍ واحدة، واتُّهموه بأبشع الأوصاف من الجنون والسحر والكهانة، وأوذي في جسده، وفقد زوجَه خديجةَ بنت خويلد التي آمنت به وآزرته، ورأى بعض خيرة صحابته يُقتَلون من أجل دينهم مما اضطرهم للهجرة ومفارقة الأهل والأموال والوطن إلى الحبشة أو المدينة (يثرب)، واجتمع قومه على الغدر به وقتله غِيلة فخرج من وطنه مكة مهاجرًا إلى المدينة، إلى غير ذلك من صنوف البلاء في النفس والمال والأهل والولد والقريب والحبيب والصاحب، وكان من أشدّ ما وجد من البلاء: ما افتراه أهل النفاق من الإفك في زوجه أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، الذي كان بلاءً عامًا شمِل المجتمع المدني المؤمن بأسره.

وعند النظر في حادثة الإفك نرى:

١) أن الأثر النفسي فيها كان بارزًا في جميع أحداثها ووقائعها المختلفة مع مختلف الشخصيات التي أُصيبت بهذا البلاء، لكن البلاء كان أشد ما يكون على: النبي r وزوجه عائشة -رضي الله عنها-.

٢) كما نرى أن الأثر النفسي كان يختلف من موقفٍ لآخر بحسب ما ينتج عن ذلك الموقف أو يقتضيه.

٣) وإضافة إلى ذلك: كان الأثر النفسي -غالبًا- على نوعين وهما:

١. الأثر الذي يحدث في النفس نتيجةً لشدة البلاء، كالغم والحزن ونحو ذلك.

٢. الأثر النفسي الذي يكتسبه أو يتحلّى به من أُصيب بالبلاء، ويجعله في مقابلة ذلك الأثر النفسي الناتج عن البلاء، كالثقة بالله وحسن الظن به ونحو ذلك.

وهذا يجعلنا نذكر الأثر النفسي في حادثة الإفك مُراعِين في ذلك الجوانب الثلاثة السابقة كلها:

- جانب من تعرض للبلاء.
- وجانب الموقف الذي برز فيه الأثر النفسي.
- وجانب نوع الأثر النفسي الناتج عن شدة البلاء، والأثر النفسي الذي جُعِل مقابِلاً له.

وذلك كما يأتي:

أولاً- الأثر النفسيّ على النبي r من خلال المواقف المختلفة في حادثة الإفك.

١ - اختلاق الإفك في زوجه عائشة -رضي الله عنها- من المنافقين.

النبي r هو أكمل البشر وأفضلهم وأعلاهم خلقًا، ومن كمال خلقه: شدة غيرته على محارمه وعرضه، فعندما قال له سعد بن عبادة t : لو رأيتُ رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، قال r : ((أتعجبون من غيرة سعد؟، والله لأنا أغير منه، والله أغير مني))(١)، وصاحب الغيرة الشديدة المحمودة لا يُطيق البتة أن يُطعَن أو يُتَّهم في عرضه وشرفه ومحارمه، فضلاً عن أن يكون في محارمه ما يسوء من الفحش، وقد عصم الله أنبياءه ورسله من أن تقع أزواجهم فيما يدنّس الشرف من البغاء، كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: ((ما بغت زوجة نبي قط، ولا ابتلي الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في نسائهم بهذا))(٢).

وفي حادثة الإفك ابتُلي النبي r ببلاء شديد لم يُبتَلَ به من قبل، فقد اختلق المنافقون الإفك في عرضه الشريف، واتهموه في زوجه عائشة -رضي الله عنها-، ومن المعلوم أن ((رسول الله r كان هو المقصود بالأذى، والتي رُمِيت زوجتُه))(٣).

وكان الأثر النفسي على النبي r من شدة هذا البلاء ظاهرًا، ويبرز ذلك من خلال حادثة لها مدلولها العظيم في هذا الجانب، وهو: ما جاء في:

أ- قول أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- في بداية سردها لأحداث قصة الإفك: ((وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله r اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله r فيسلم ثم يقول: "كيف تيكم"؟، ثم ينصرف)).

ب- وفي قولها -رضي الله عنها- في أواخر سردها لأحداث قصة الإفك: ((فبينا نحن على ذلك؛ إذ دخل علينا رسول الله r ؛ فسلَّمَ، ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل قبلها)).

---

(١) متفق عليه.

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٣٤٨).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٢٦٣).

ففي هذين القولين: تحكي أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- عن تعامل النبي r معها بعد أن اختُلِق الإفك وأُشيع، فتذكر أنه r لم يكن يجلس عندها، وإنما كان يسلِّم ويسأل عن حالها بجملةٍ مقتَضَبة فيقول: ((كيف تيكم؟)) ثم ينصرف، وأنها لم تكن تجد منه اللطف الذي كانت تجده في سابق ما تعهده منه عندما تكون مريضة.

ومن المعلوم أن النبي r كان يحب زوجه عائشة -رضي الله عنها- محبة شديدة، حتى أنها كانت أحب النساء إليه[1]، وفي سيرته العطِرة مواقف كثيرة جدًا تجمعه بها -رضي الله عنها- فيها المحبّة والمودّة والعطف واللطف والمزاح والدعابة، لكنه r بعد أن اختُلِق الإفك لم تكن حاله مع زوجه أحبِّ النساء إليه كما كانت قبل ذلك، حتى أنها قد لَحَظت ذلك وتنبَّهَت له دون أن تعرف سببه، وهذا يدلّ على ما أحدثه الإفك في نفس النبي r من أَثَرٍ عميق بالغ، فمن يطيق أنْ يسمع في محارمه العفيفات قالةً سيئةً شهرًا كاملاً؟، فضلاً عن أن تكون تلك القالة قد أُفِك بها على زوجه التي لا يعلم عنها إلا الخير والعفاف والطُّهر؟، إن هذا إنْ قيل في عرض رجلٍ شريف لتقطع قلبه كمدًا وألَمًا من هول ما يسمع، فكيف والمقول فيه هذا الإفك هو عرض رسول الله r ؟.

وهذا الأثر الشديد في نفس النبي r من شدّة ابتلائه بالإفك الذي رُمِي به عرضُه -والذي نتجت عنه تلك المعاملة مع أحب أزواجه إليه-؛ قابله r بآثارٍ نفسية عظيمة هي محض الإيمان وتطبيق شعائر الدين وكمال الثقة بالله والتوكّل عليه واليقين في نصره وفرجه سبحانه، فقد كان صابرًا محتسبًا راضيًا بقضاء الله وقدره، ثابت الجنان، متحلِّيًا بالطمأنينة

---

(١) قال ابن عباس -رضي الله عنهما- لأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وهي تجود بروحها: ((يا أماه؛ أبشري؛ فوالله ما بينك وبين أن تلقي محمدًا r والأحبة إلا أن تفارق روحك جسدك! كنتِ أحب نساء رسول الله r إليه، ولم يكن يحب رسول الله r إلا طيِّبة)). أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٢٠، ٢٧٦، ٣٤٩)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٤١ - إحسان) -واللفظ له-، والحاكم في مستدركه (٤/ ٨)، وأبو يعلى في مسنده (٥/ ٥٦)، من حديث ابن أبي مليكة عن ذكوان. وصححه الأرناؤوط في تحقيقه لصحيح ابن حبان (١٦/ ٤٢)، ومسند الإمام أحمد (٣/ ٣٨٩، ٥/ ٣٠٩).

والهدوء والسكينة وسعة الصدر والحلم والأناة والوقار، يعامل زوجه بعدل فلا يظلمها قبل أن يأتيه علم اليقين.

٢ - انقطاع الوحي، واستشارته r عليًا وأسامة -رضي الله عنهما-، وسؤاله الجارية، والشهادة منه لأم المؤمنين عائشة وصفوان -رضي الله عنهما- بالخير.

مضى شهرٌ كاملٌ والنبي r لم يوحَ إليه بشيء في شأن الإفك الذي رُمِي به عرضُه الشريف، وهذا من البلاء الشديد الذي ابتُلِي به أعظمُ الخلق في هذه الحادثة، فإن انقطاع الوحي من البلاء الشديد الذي كان له الأثر النفسي البالغ لدى النبي r، وذلك ((أن الله تعالى له برسوله عناية عظيمة ومحبة شديدة، حيث جعل الوحي متتابعًا عليه، ولم يقطعه عنه؛ ولهذا إنما أنزل عليه القرآن مفرقًا ليكون ذلك في أبلغ العناية والإكرام))[١]، فكيف وانقطاع الوحي جاء في وقتٍ أُفِك فيه على عرضه r فكان يترقَّب الوحي من الله في شأنه؟.

وهذا الأثر الذي أحدثه انقطاع الوحي في نفس النبي r؛ قابله r بأمرٍ له الأَثَر النفسيّ البالغ الذي قد يُذهِب شيئًا من حرارة أَثَر انقطاع الوحي أو يُطفِئه، وهو: استشارته r اثنين من صحابته (علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد -رضي الله عنهما-)، فإن المشورة لها أَثَر طيب مبارك في الاستقرار النفسي لدى طالبها، وقد قال تعالى لنبيه r: O = > ? A B C D E N[٢].

واستشارته r عليَّ بن أبي طالب وأسامةَ بن زيد -رضي الله عنهما- تدلّ أيضًا على الأثر النفسي من شدة البلاء؛ فإن النبي r -وإن كان يعلم أو يظن الظنَّ المقارِب للعلم ببراءة زوجه عائشة[٣]، ولها في قلبه من الوُدّ والمحبّة الشيء العظيم- إلا أنه شاوَر صاحبيه في فراقها، وذلك يبيّن ما كان في نفسه r من همٍّ يشغِله، وتفكيرٍ يلازِمه، فيريد حسمه ولو من خلال طلب المشورة في فراق زوجه الحبيبة إليه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٢٢).

(٢) سورة آل عمران، آية رقم (١٥٩).

(٣) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٢٦٣).

وهذا الأثر في نفس النبي r ؛ قابله r بأَثَرٍ نفسيٍّ عظيم؛ هو: التفكير السديد بأناةٍ ورويّةٍ فيما أشار به كلٌّ من أسامة وعلي -رضي الله عنهما-، ثم زاد هذا الأثر عُمقًا بقبول مشورة علي t في سؤال الجارية.

وسؤاله r الجاريةَ فيه دلالة ظاهرة على وجود أثَر نفسيٍّ جديد من شدة البلاء؛ وهو: عدمُ اكتفاءِ النفسِ الاكتفاءَ التامّ بنتيجة المشورة، وطلبُها زيادةَ العلم واليقين من طرَفٍ آخر لم يكن موجودًا وقت الاستشارة الأولى.

وهذا الأثر النفسيّ قابله النبي r بأَثَرٍ نفسيٍّ يقضي عليه وعلى ما كان قبله، وهو: الوصول إلى نتيجةٍ مُحكَمة لموضوع الاستشارة، وهي: قوة استشعار اليقين ببراءة عائشة وصفوان بن المعطل -رضي الله عنهما-، فقام على المنبر ليُعلِن ذلك.

وخطبتُه r على المنبر جاء فيها التصريح بخُلاصَة هذا المبحث ودليله، وهو: تصريح النبي r بما كان يجده من الأذى النفسي من شدة البلاء بالإفك، فإنه استعذر حينئذ من عبدالله بن أبي بن سلول، وقال -وهو على المنبر-: ((يا معشر المسلمين؛ مَن يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهل بيتي؟، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي)).

وطلبُه r العذرَ من صحابته إذ أراد أن يعاقب من تكلّم بالإفك؛ فيه دلالة على أثَر نفسيّ من شدة البلاء؛ فإن النبيَّ r هو وليُّ الأمر، وصحابتُه y يحبّونه أكثر من أنفسهم وأولادهم وأهليهم وأموالهم، ويفدونه بجميع ذلك، ومع ذلك استعذَرهم، ففيه استشعار النفسِ خطورةَ ما أحدثه الإفك في النفوس.

وهذا الأثَر النفسي قابله النبي r بأَثَرٍ نفسيٍّ آخر يُذهِبه ويقضي عليه، وهو: طلب النفسِ استشعارَ السيطرةِ التامّة على الأمر، وكمالِ التمكُّن من الفعل، وضمانِ ما ينتج عنه في الحال والمستَقبَل، عن طريق الجهة نفسِها التي تولَّد عنها الأثر النفسي المُراد القضاء عليه، وذلك من خلال: طلبه r اجتماعَ واتّفاقَ المجتمع نفسِه الذي أشاع المنافقون فيه الإفك مما تسبّب في شيء من اختلاف النفوس؛ عن طريق اتفاقهم على إعذاره r لو عاقب أحدًا من أهل الإفك.

٣- نزول الوحي عليه r ببراءة زوجته عائشة -رضي الله عنها- وتهنئته لها بذلك.

نزل الوحي على رسول الله r ببراءة زوجته عائشة -رضي الله عنها-، فكان النصرُ بعد الصبر، والفَرَجُ بعد الشدة، وكان الأثر النفسي في هذا الموقف مختلفًا تمام الاختلاف عن الآثار النفسية التي كانت في المواقف السابقة، ففي هذا الموقف أثرٌ يُبهِج النفس، ويشرح الصدر، ويَسُرُّ الفؤاد، اجتمع فيه الفرح: بنزول الوحي بعد انقطاعٍ دام شهرًا كاملاً -ووحيُ الله هو الروح والحياة-، وبانتهاء البلاء الشديد الذي لم يسبِق له مثيل في حياته r، وببراءة زوجه الحبيبة الطاهرة، وباجتماع كلمة المسلمين على تبرئة عائشة وصفوان -رضي الله عنهما-، وبدَحْر المنافقين وانكشاف أمرهم وسقوط مكرهم وكيدهم.

فكان هذا الأثر النفسي الذي يعقُب انتهاء البلاء وارتفاعه أجمل خاتمةٍ لهذه الحادثة المؤلمة شديدة البلاء.

وظهر هذا الأثر النفسي جليًّا فيما فعله النبي r بعد أن سُرِّي عنه:

- فقد كان أول شيء فَعَله: الضحِك الذي له الأثر البالغ في إدخال السرور والبهجة والتفاؤل في نفس الطرف المقابل، ويكون نِعْمَ التمهيد والتوطئة لها لاستقبال ما بعده مما يَسُرّ، ورحمة منه بها لترتاح نفسها من الغم والسهر والبكاء، بل ورد في بعض روايات الحديث: قول عائشة: ((فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما زال يضحك حتى إني لأنظر إلى نواجذه سرورا))[١].

- ثم أتْبعه بالتبشير فقال: ((أبشري))، والبشارة هي الإعلام بالخير، والخير في هذه الحادثة هو براءة عائشة -رضي الله عنها- من الإفك الذي قيل فيها، فكان في هذه الكلمة تأثير نفسيٌّ عظيم في نفس عائشة -رضي الله عنها- التي كانت تنظر وتترقب وتريد أن تعرف ما نزل به الوحي.

- ثم ناداها باسمها فقال: ((يا عائشة))، ولهذه الكلمة في هذا الموطن أثرٌ نفسيٌّ في غاية الأهمية، فقد ظلَّ r شهرًا كاملاً لا يناديها باسمها أمامها -وهي التي يحبّها محبة

(١) سبق تخريجه ص (١١٨).

شديدة- من شدة البلاء، ثم ها هو هنا يناديها باسمها، وذلك يُدخِل السرور إلى نفسها ويُنسيِها ما كانت تعانيه من عدم سماع اسمها من فم رسول الله r يناديها.

- ثم أبان وأفصح r عن مضمون البشارة فقال: ((أما الله عز وجل فقد برأك))، فجمع في هذه الكلمة الموجَزة أثرين نفسيين هما من أعظم المِنن:

أما الأول: فهو تقديم اسم الله تبارك وتعالى؛ فهو سبحانه الذي فعل ذلك وأنزله وأوحى به، فله المنّة وحده، وهذا له الأثر العظيم في النفس فرحًا بذلك.

وأما الثاني: فهو النصّ على البراءة المتزَلة بالوحي، وهذا هو ما كانت النفس تترقّبه طوال هذا البلاء الشديد.

فهذه الآثار النفسية العظيمة إنما كانت من نَتاج ذلك الأثر الذي كان في نفس النبي r بعدما انتهى البلاء الشديد وارتفع.

ثانيًا- الأثر النفسيّ على عائشة -رضي الله عنها- من خلال المواقف المختلفة في حادثة الإفك.

١ - قبل حدوث الإفك:

كان أول ما وقع لأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- من شدة البلاء في هذه الحادثة: ما قصّته من أنها في أثناء نزول الجيش في إحدى مراحل رجوعه إلى المدينة خرجت ليلاً من الجيش لقضاء حاجتها بعد أن أُذِن بالرحيل، وفي طريق عودتها إلى الجيش لم تجد عقدها في صدرها، فعادت تبحث عنه، ثم لم ترجع إلا والجيش قد فارق مكانه ولم تجد منهم أحدًا، فقصدت مكانها الذي كانت فيه مع الجيش راجيةً أن يتنبّهوا لعدم وجودها معهم فيرجعوا إليها في المكان الذي تركوها فيه، فغلبتها عينها فنامت، ثم تستيقظ على استرجاع صفوان بن المعطل الذي كان متأخرًا عن الجيش فوجدها وهي نائمة فعرفها لأنه كان يراها قبل نزول الحجاب، فما كان من أم المؤمنين إلا أنها بادرت إلى تخمير وجهها بجلبابها، فأناخ صفوان راحلته فركبتها أم المؤمنين، فانطلق يقودها حتى أتى بها الجيش في نحر الظهيرة، وهو منذ وجدها إلى أن وصلا الجيش لم يكلمها كلمة واحدة ولم تسمع منه إلا استرجاعه.

وقد كان هذا الموقف من البلاء الشديد:

فقد تفاجأت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بذهاب الجيش، وبقائها وحدها في عراء مُفجِعٍ وليل مظلم، ولو كان في مكانها رجلٌ لأصابه الفَرَق والفزع والغم، وخاف من المكروه أن يصيبه في أي وقت، فكيف بامرأة في سن عائشة -رضي الله عنها-؟، وقد ذكرت ذلك الأثر النفسي في قولها: ((فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت))، فالنوم سببه: ((شدة الغم الذي حصل لها في تلك الحالة، ومن شأن الغم (وهو وقوع ما يكره) غلبة النوم، بخلاف الهم (وهو توقع ما يكره) فإنه يقتضي السهر))[١].

وهذا الأثر النفسي قابلته عائشة -رضي الله عنها- بأثرين نفسيّين مُضادّين له، وهما:

- الأمل وترقّب الخير، وذلك من خلال أملها في أن يفقدها أحدٌ من الجيش فيعودوا إليها دون أن يصيبها مكروه أو أذى، ولذلك عادت إلى مكانها الذي تركوها فيه دون أن يشعروا؛ لعلهم يعودون إليه حين يعلمون بفقدها.
- ثبات الفِكر وحُسن التدبير، فكأنها تأمّلت في موقفها الصعب، ثم قرّرت أن من الأفضل لها أن تعود إلى مكانها بدلاً من أن تسير على غير هدى في هذا الليل المظلم فلا يكاد يعرف مكانها أحد.

٢ - عندما علمت بأمر الإفك:

علمت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بأمر الإفك من أم مسطح، فأصابها من ذلك بلاء شديد، ويدل على ذلك آثاره التي ذكرتها في قولها: ((فازددت مرضًا إلى مرضي))، وفي رواية: ((فذهب عني الذي خرجت له حتى ما أجد منه شيئا))[٢]، وفي رواية: ((فأخذتها الحمى))[٣]، وفي رواية: ((لما بلغني ما تكلموا به هممت أن آتي قليبا فأطرح نفسي فيه))[٤]، وفي

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٦١/٨). وانظر: إرشاد الساري شرح صحيح البخاري (١٧٩/٩).

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١١٣١)، والطبري في تفسيره (١٧/ ٢١٠) -واللفظ له-، من رواية ابن حاطب عن علقمة وغيره عن عائشة -رضي الله عنها-. وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه، من مرسل أبي صالح - كما في فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٦٦/٨) -.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ١٢١)، وفي الأوسط (٥٨٢)، من حديث أيوب عن ابن
=

رواية: ((فلما أخبرتني أخذتني الحمى وتقلص ما كان بي))[١]، وفي رواية: ((فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي))[٢]، وفي رواية: ((فأخبرتني قول أصحاب الإفك فقلص ذلك مني، وما قدرت على أنْ أذهب لحاجتي، وزادني مرضًا على مرضي، فما زلت أبكي ليلي ويومي))[٣].

وفي هذه الروايات يظهر الأثر النفسي الذي أصابها -رضي الله عنها- من شدة البلاء الذي نزل بها، وهو:

- عمق الألم والحزن والأسى، مما زاد عليها مرضها الذي كانت قد نقِهَت منه، وأخذتها الحمى، وصارت تبكي ليلَ نهار.
- وشدة الاندهاش بأن تُرمى بهذا الإفك وهي التي تعلم براءتها وكذب ما قيل فيها حتى أنها لا تكاد تصدق أن ذلك قد قيل فيها، حتى أنها لم تتمكن من قضاء حاجتها، بل ذهب عنها ما كانت تجده من ذلك.

وهذا الأثر النفسي قابلته عائشة -رضي الله عنها- بأثرين نفسيّين:

أولهما- الرضا بقضاء الله وقدره.

وثانيهما- التعقل والرويّة.

=

أبي مليكة عن عائشة -رضي الله عنها-، وصحَّح إسنادَه الحافظُ ابنُ حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٦٦).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ١٢٤)، من حديث عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما-. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٠): "فيه إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي؛ وهو كذَّاب" اهـ. ويغني عنه ما قبله وما بعدَه من الروايات في معناه.

(٢) أخرجه محمد بن إسحاق في سيرته (٢/ ٢٩٩ - ابن هشام)، ومن طريقه: الطبري في تاريخه (٢/ ١١٣)، من حديث عبَّاد بن عبدالله بن الزبير عن عائشة -رضي الله عنها-، ومن حديث غيره. وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في تخريج فقه السيرة للغزالي (ص ٢٢٤).

(٣) أخرجه الواقدي في المغازي (٢/ ٤٢٩)، من حديث عبَّاد بن عبدالله بن الزبير عن عائشة -رضي الله عنها-. وإسناده ضعيف، وهو من رواية الواقدي وهو متروك! إلا أنَّ هذه الرواية تؤيِّدها الروايات الصحيحة التي قبلها في معناها.

٣ - عندما توثّقت من أمها أم رومان -رضي الله عنها- عن أمر الإفك:

بعد أن تأكّدت أم المؤمنين -رضي الله عنها- من والدها أم رومان -رضي الله عنها- عن صحة خوض الناس فيها بالإفك؛ كان الأثر النفسي عليها أشدّ من الأثر الذي أصابها بعد أن سمعت الخبر من أم مسطح، وذلك أنه إذا كان خبر أم مسطح محتمِلاً فإن الخبر من والدها لا يحتمل الشك البتة، بل مما زاد عليها ذلك الأثر النفسيَّ شدةً أنها علمت بأن والدها أبا بكر الصديق t وزوجها رسول الله r يعلمان عن ذلك.

وقد جاءت الروايات مبيِّنةً ذلك، فتقول عائشة -رضي الله عنها-: ((فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت))، وفي رواية: ((وبكيت يومي ذلك كلّه؛ لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة؛ لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم!، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي))، وفي رواية: ((واستعبرت وبكيت))[1]، وفي رواية: ((فأخذَت أمي كلَّ ثوب في البيت فألقتْه عليَّ))[2]، وفي رواية: ((فخرت مغشيًّا عليها فما أفاقَت إلا وعليها حمى بنافض، فطرحتُ عليها ثيابها فغطَّيتُها))[3]، وفي رواية: ((وبَلَغ رسول الله r ؟، قالت: نعم))[4]، وفي رواية: ((فقلت: وقد عَلِم به أبي؟، قالت: نعم، قلت: ورسول الله؟، قالت: نعم، ورسول الله r))[5]، وفي رواية: ((فقلت

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٥٧) معلَّقًا بصيغة الجَزْم، والترمذي في الجامع (٣١٨٠)، من حديث هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها-، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣١٨٠).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ١١٨)، من حديث الأسود عن عائشة -رضي الله عنها-. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٣١): "فيه أبو سعد البقال؛ وهو ضعيف، وقد وُثِّق" اهـ. ويُغني عنه رواية البخاري التي بعدَه في معناه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٨٨، ٤١٤٣)، من حديث أم رومان (وهي أم عائشة) - رضي الله عنهما-.

(٤) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٢٩٦) – وهو في تفسيره (٣٨٠) -، والطبري في تفسيره (١٧/ ٢٠٠)، من رواية محمد بن ثور عن معمر عن الزهري، وإسناده صحيح.

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٥٧) معلَّقًا بصيغة الجَزْم، والترمذي في الجامع (٣١٨٠)، والذهبيُّ في تاريخه (٢/ ٢٧١)، من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها-. قال الذهبي (٢/ =

لأمي: غفر الله لك!، تحدث بما تحدَّثوا به ولا تذكرين لي مِنْ ذلك شيئًا؟))[١]، وفي رواية: ((ورجعت على أبويَّ - أبي بكر وأم رومان - فقلت: أما اتقيتما الله فيَّ وما وصلتما رحمي؟! قال النبي r الذي قال وتحدَّث الناس بالذي تحدَّثوا به ولم تُعلِمانيه فأخبرَ رسول الله r ؟))[٢].

فأبانت هذه الروايات الأثر النفسي الذي أصاب أم المؤمنين من ذلك، فقد أخذ بمجامع نفسها وفؤادها وفكرها: فأصابتها الحمى الشديدة، وغُشِي عليها، وبقِيت ليلتين لا يتوقف دمعها ولا تنام عينها حتى خاف عليها والداها من كثرة بكائها وشدته،

فاجتمعت في هذا الأثر النفسي معاني الأسى والحزن والألم والغم والدهشة والاستغراب.

وهذا الأثر النفسي لشدّته وقوّته ووقوعه على عائشة -رضي الله عنها- موقعًا عظيمًا؛ قابلته -رضي الله عنها- بأثرٍ نفسيٍّ يُخَفِّف من حِدّته وحرارته وقوّته، وهو: التنفيس عن الغم والألم وإخراج ألم النفس الداخلي بأمرٍ خارجي كالبكاء والسهر، دون تسخُّطٍ ولا جزَع ولا اعتراضٍ على القضاء والقدر، بل مع صبرٍ واحتسابٍ.

=

٢٧٢): "هذا حديث عالٍ حسن الإسناد" اهــ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣١٨٠).

(١) أخرجه محمد بن إسحاق في سيرته (٢/ ٢٩٩ - ابن هشام) - ومن طريقه: الطبري في تاريخه (٢/ ١١٣)-، والواقدي في المغازي (٢/ ٤٢٩)، من حديث عبَّاد بن عبدالله بن الزبير عن عائشة -رضي الله عنها- ، ومن حديث غيره. وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في تخريج فقه السيرة للغزالي (ص ٢٢٤).

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١١٣١)، والطبري في تفسيره (١٧/ ٢١٠) -واللفظ له-، من رواية ابن حاطب عن علقمة وغيره عن عائشة -رضي الله عنها-. وإسناده صحيح.

٤ - لما استشار النبي r أسامة وعليًا -رضي الله عنهما- في فراق زوجه عائشة -رضي الله عنها-:

يُعدّ هذا الموقف من المواقف التي أحسّت فيه عائشة -رضي الله عنها- بشدة البلاء، وقد كان له أثرٌ شديد في نفسها؛ إذ إن فيه أن زوجها وأحب الناس إليها ومن كانت له وفيّة في حضوره وغيبته (النبي r) يستشير بعض صحابته في فراقها من شدة البلاء الذي أصابه بسبب الإفك، يبيّن ذلك: أنها لما روت خبر الإفك لمن سألها عنه (وهو عروة ابن الزبير) وبلغت هذا الموقف قالت: ((يستشيرهما في فراق أهله))، فَـ((عَدَلَت عن قولها: "في فراقي" إلى قولها: "فراق أهله" لكراهتها التصريح بإضافة الفراق إليها))[١].

وهذا القول يثبت أن الأثر النفسي الناتج عن هذا الموقف لم يزل تأثيره باقيًا في نفسها -مع مضيّ السنين على حادثة الإفك ونزول براءتها-.

٥ - لما جلس أمامها النبي r في بيت أبي بكر t ثم نزل الوحي ببراءتها:

& في بداية هذا الموقف عظُم البلاء على أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، فقد كانت تتألّم مما يُقال فيها من الإفك من قِبَل المنافقين وبعض آحاد الصحابة y، ولم يسبِق لها أن جمعها بالنبي r موقفٌ في ذلك، فجاء هذا الموقف العظيم لتجد نفسها أمام أحب الناس إليها وهو يذكر لها أنه بلغه عنها ما بلغه، ثم يطلب منها أن تدافع عن نفسها -إن كانت بريئة-، أو أن تستغفر الله وتتوب إليه -إن كانت ألّمت بذنب-.

وقد كان الأثر النفسي الناتج عن هذا الموقف العظيم يوازيه قوة وشدة، فقد بلغ بها الحزن والغمّ منتهاه لحرارة المصيبة وعِظَمها[٢]، فقلص دمعها -بعد أن كانت تصِل الليل بالنهار بكاءً ودمعًا- حتى صارت ما تحس منه قطرة واحدة!.

ثم إنها اشتدّ عليها البلاء وهي ترى وتسمع أباها -الذي لازمها ووقف معها في محنتها- وهو يخاطبها بمقولة النبي r نفسَها، فيقول لها: ((إن كنت صنعت ما قال الناسُ

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٦٨/٨). وانظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٩/ ١١٩).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٥/٨)، إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري (١٨٢/٩).

فاستغفري الله، وإن لم تكوني صنعتيه فأخبري رسول الله r بعُذركِ))[١]. فهي في هذا المواقف تواجه الأسئلة عمّا قيل فيها من الإفك من أحب رجلين إلى قلبها: زوجها وأبيها.

وزاد الموقف شدةً في البلاء: أنها طلبت من والديها أن يجيبا عنها رسولَ الله r ، فامتنع كلاهما عن ذلك قائلَين: ((والله ما أدري ما أقول لرسول الله r)).

فظهرت علامات الأثر النفسي عليها بعد هذه الشدائد المتتالية:

- فاسْتَعْبَرَتْ وبكتْ.
- وقالت: ((وَاللهِ لاَ أَتُوبُ إِلَى اللهِ مِمّا ذَكَرْتَ أَبَدًا))[٢].
- ثم قالت لهم: ((إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في نفوسكم وصدّقتم به، فإن قلت لكم: إني بريئة -والله U يعلم أني لبريئة-؛ لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر -والله U يعلم أني منه بريئة-؛ لتصدقوني. وإني -والله- ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: O Z] [^ _ ` a N[٣]))،

وقد ذكرت -في رواية أخرى- الأثر النفسي الذي أصابها من شدة البلاء في هذا الموقف، فذكرت أنها التمسَت اسم يعقوب فلم تقدِر عليه[٤]، وفي رواية: ((نسيت اسم يعقوب u

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١١٣١)، والطبري في تفسيره (١٧/ ٢١٠) -واللفظ له- ، من رواية ابن حاطب عن علقمة وغيره عن عائشة -رضي الله عنها-. وإسناده صحيح.

وعندهما -أعني: ابن راهويه والطبري-: أنَّ الذي قال ذلك لها أبواها معًا، خلافًا لما في فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٤٧٥)؛ قال: "قالت: فقال أبي..." فذكره، وهو المثبت هنا.

(٢) أخرجه محمد بن إسحاق في سيرته (٢/ ٣٠٢ - ابن هشام) -ومن طريقه: الطبري في تاريخه (٢/ ١١٤)-، والواقدي في المغازي (٢/ ٤٣٣)، من حديث عبَّاد بن عبدالله بن الزبير عن عائشة -رضي الله عنها-، ومن حديث غيره. وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في تخريج فقه السيرة للغزالي (ص ٢٢٤).

(٣) سورة يوسف، آية رقم (١٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٥٧) معلَّقًا بصيغة الجَزْم، والترمذي في الجامع (٣١٨٠)، من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها-، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣١٨٠).

لما بي من الحزن والبكاء واحتراق الجوف))(١)،وفي رواية: ((وَاَللَّهُ مَا يَحْضُرُنِي ذِكْرُ يَعْقُوبَ وَمَا أَهْتَدِي مِنْ الْغَيْظِ الّذِي أَنَا فِيهِ))(٢).

- ثم تحولت فاضطجعت على فراشها وهي تعلم أنها بريئة، وأن الله مبرئها.

فهذا الأثر النفسي قابلته عائشة -رضي الله عنها- بعددٍ من الآثار النفسية التي تخفّف شدّته أو تقاومها وتدفعها:

- ففي استعبارها وبكائها: تنفيسٌ عن الكرب الشديد الذي ألمّ بها، وذلك من الآثار التي تريح النفس وتخفّف عنها الألم.
- وفي مخاطبتها نفسَها بأنها لن تتوبَ مما ذكروه: تعزيةٌ للنفس ومؤانسةٌ لها وشحذٌ لطاقتها وتصبيرٌ لها وتقويةٌ لما فيها من العلم بالبراءة، إذ إن التوبة إنما تكون مما فعله العبد لا مما هو بريء منه، فأنّى لها أن تتوب من منكرٍ فاحشٍ لم ترتكبه البتة.
- وفي مخاطبتها النبيَّ r ووالديها -رضي الله عنهما-: كمال الأثر النفسي الذي يدلّ على ما امتلأت به النفس من: قوّةٍ شخصيّتها بالحق، وكمال الصدق، والثقة ببراءتها مما أُفِك عليها.
- وفي اضطجاعها بعد هذا الموقف العسير: توكُّلٌ عظيمٌ على الله تعالى، وطُمأنينة وسكينةٌ في النفس، ويقينٌ تامٌّ بالبراءة، وإيمانٌ راسخٌ بنصر الله وتبرئته إياها، وتصديقٌ مطلقٌ بوصية نبيها r حين قال لها: ((فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله))، ورجاءٌ بالله وحسنُ ظنٍّ به.

& وفي نهاية هذا الموقف انتهى البلاء وارتفع عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، فقد أنزل الله براءتها، ونصَرَها على من أَفَك عليها أو أخطأ في حقها، وكان ذلك

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ١١١)، من حديث أبي أويس عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها-، ومن حديث أبي أويس عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة عنها -رضي الله عنها-. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٣٦): "رجاله رجال الصحيح" اهـ.

(٢) أخرجه الواقدي في المغازي (٢/ ٤٣٣)، من حديث عبّاد بن عبدالله بن الزبير عن عائشة -رضي الله عنها-. وإسناده ضعيف، وهو من رواية الواقدي وهو متروك! إلا أنَّ هذه الرواية تؤيِّدها الروايات الصحيحة التي قبلها في معناها.

بواسطة زوجها وأمام والديها، فما أعظمها من براءة!، وأكرِم بها من خاتمة لذلك البلاء الشديد الذي أصاب هذه السيّدة الشريفة الطاهرة العفيفة!.

وإننا لا نشكّ مطلقًا في الأثر النفسي الناتج عن هذا الموقف، وهو: امتلاء نفس أم المؤمنين بالغبطة والسرور، وزيادةِ الإيمان واليقين بالله، مع أنها لم تذكر في الحديث ما ينصّ على ذلك، وإن كانت ذكرت أثرًا نفسيًا عظيمًا هو شكر الله وحمده على هذه النعمة العظيمة.

وإذ ذكرنا الآثار النفسية في حادثة الإفك؛ فإننا نختم ذلك بكلامٍ نفيسٍ للإمام ابن القيم، ذكر فيه جملةً كبيرةً من الآثار النفسية في هذه الحادثة، فذكر أننا حين نتأمل أمر الإفك نجد أن ((هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل اللّهُ هذه القصّة سببًا لها وامتحانًا وابتلاءً لرسوله r ولجميع الأمة إلى يوم القيامة؛ ليرفع بهذه القصة أقوامًا ويضع بها آخرين، ويزيد الله الذين اهتدوا هُدًى وإيمانًا، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا.

واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس عن رسول الله r الوحي شهرًا في شأنها لا يوحى إليه في ذلك شيءٌ؛ لتتم حكمته التي قدرها وقضاها وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانًا وثباتًا على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقًا ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها والافتقار إلى الله والذل له وحسن الظن به والرجاء له، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأس من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا وفت هذا المقام حقه لما قال لها أبواها: قومي إليه -وقد أنزل الله عليه براءتها-، فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي.

وأيضًا فكان من حكمة حبس الوحي شَهْرًا: أن القضية محصت وتمحضت واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله r وأهل بيته والصديق وأهله وأصحابه والمؤمنون، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع وألطفه، وسروا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء، فلو أطلع الله رسوله

على حقيقة الحال من أول وهلة وأنزل الوحي على الفور بذلك لفاتت هذه الحكم وأضعافها بل أضعاف أضعافها.

وأيضا فإن الله سبحانه أحب أن يظهر مترلة رسوله وأهل بيته عنده وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه والرد على أعدائه وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل ولا ينسب إليه، بل يكون هو وحده المتولي لذلك، الثائر لرسوله وأهل بيته))(١).

لقد كان في حادثة الإفك من الآثار النفسية ما يُفيد منه الداعية أعظمَ العِبَر والفوائد، ومنها:

١ - أنَّ كل بلاءٍ يترل بالداعية في أثناء دعوته لا بد من أن تكون له آثار نفسية، وهذه الآثار:

- إما أن تكون من طبيعة البشر وعادهم وقت نزول البلاء عليهم، كالغم والهم والحزن والفرح والسرور.
- وإما أن تكون مجاوزةً الحدّ خارجةً عن المألوف، كالجزع والانهيار النفسي والإحباط والانهزامية والعُجْب.

والداعية إلى الله يعلم:

- أن ما كان من القسم الأول: فهو مما لا يُؤاخَذ عليه الإنسان -إن لم يوقعه في المحرَّم أو يمنعه عن الحق-، فلا يلوم نفسه ولا غيره إن أصابه شيء من ذلك؛ فرسول الله ﷺ وزوجه عائشة -رضي الله عنهما- أصابهما شيء من ذلك، فما كان لينقص قدرهما أو يترل مرتبتهما.
- وأن ما كان من القسم الثاني: فهو مما حرّمه الله ورسوله، فيتجنّبه ويحذَره في نفسه ويحذّر المدعوّيين من الوقوع فيه.

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٢٦٢).

٢- أنَّ لكل أَثَرٍ نفسيٍّ -مما تكرهه النفس كالغم والحزن- ناتجٍ عن البلاء؛ أَثَرٌ نفسيٌّ يقابله: تخفيفًا لحدّته، أو إضعافًا لقوّته، أو تغييبًا له، أو إذهابًا لأصله أو سببه، أو مُضَادَّةً له.

ولكل أَثَرٍ نفسيٍّ -مما تحبه النفس كالفرح والسرور- ناتجٍ عن البلاء؛ أَثَرٌ نفسيٌّ يقابله: تقويةً له، وتعبيرًا عنه، وإبرازًا وإشهارًا له.

فالداعية إلى الله يكون لديه من الفقه والحَصَافة ما يُحسِن معه اختيار الأثر النفسي المُلائم للأثر النفسي الناتج عن البلاء من حيث: نوعه وقوته.

٣- أنَّ من الآثار النفسية التي يقابِل بها الداعية الأثرَ النفسيَّ المكروه الناتج عن البلاء: الصبر والاحتساب والرضا بالقضاء والقدر، واليقين والثقة بالله تعالى، والرجاء فيه، وحسن الظنّ به، والتوكّل عليه، والإيمان بوعده ونصره وفرجه، وثبات الجنان، والطمأنينة، والهدوء، والسكينة، وسعة الصدر، والحلم، والأناة، والتؤدة، والروية، والوقار، والتأمل والتفكّر، والتنفيس عن الكرب بما يظهر على الجوارح كالبكاء، ، والاتّزان في النفس الذي ينتج عنه الاتزان في الأقوال والأفعال، والثقة في النفس.

٤- من الآثار النفسية التي يقابِل بها الداعية الأثرَ النفسيَّ المكروه الناتج عن البلاء: إراحة النفس، وترقُّب الخير، حمد الله وشكره.

٥- على الداعية أن يتأمل في المواقف المختلفة التي وقعت في حادثة الإفك، وفيما نتج عن كل موقفٍ منها من الآثار النفسية، ثم يتأمل فيما قوبلت به تلك الآثار من آثارٍ نفسيّة تحلّى بها أولو الإيمان والنُّهى، فيستحضرها ويستصحبها في أثناء دعوته؛ فإن ذلك مما يعينه -بإذن الله- على التخلّق بها متى ما ابتلاه الله سبحانه بموقفٍ مماثلٍ أو شبيهٍ لتلك المواقف، ويقيه من الخلَل والزلَل والنقص والخطأ.

^ ^ ^

الفصل الثالث

الآثار الاجتماعية على الداعية
من خلال حادثة الإفك

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: بيان خطر تعصب الداعية لأهل الباطل من القرابة.

المبحث الثاني: خطورة خوض الداعية في أعراض المسلمين.

المبحث الثالث: خطورة مقالة السوء من الداعية في المجتمع المسلم.

المبحث الأول

بيان خطر تعصب الداعية لأهل الباطل من القرابة

((دين أوجب الله تعالى أن يكون الرسول رسوله محمد ﷺ هو المطاع أمره ونهيه، المتبوع في محبته ومعصيته، ورضاه وسخطه، وعطائه ومنعه، وموالاته ومعاداته، ونصرته وخذلانه، ويعطى كل شخص أو نوع من أنواع العالم من الحقوق ما أعطاهم إياه الرسول: فالمقرب من قربه، والمقصى من أقصاه، والمتوسط من وسطه، ويحب من هذه الأمور أعيانها وصفاتها ما يحبه الله ورسوله منها، ويكره منها ما كرهه الله ورسوله منها، ويترك منها لا محبوبا ولا مكروها ما تركه الله ورسوله كذلك لا محبوبا ولا مكروها، ويؤمر منها بما أمر الله به ورسوله، وينهى عما نهى الله عنه ورسوله، ويباح منها ما أباحه الله ورسوله، ويعفى عما عفا الله عنه ورسوله، ويفضل منها ما فضله الله ورسوله، ويقدّم ما قدمه الله ورسوله، ويؤخر ما أخره الله ورسوله ويرد ما تنوزع منها إلى الله ورسوله))(١).

((فدين المسلمين مبني على اتباع كتاب الله وسنة نبيه وما اتفقت عليه الأمة، فهذه الثلاثة هي أصول معصومة، وما تنازعت فيه الأمة ردوه إلى الله والرسول، وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصا يدعو إلى طريقته ويوالي ويعادي عليها غير النبي ﷺ، ولا ينصب لهم كلاما يوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة))(٢).

وأما أن يجعل المرء شخصًا ما أو ما يصدر عنه من الرأي هو المعيار الذي يزن به الحق والباطل، أو يبني على مقتضاه الاتباع والإعراض، أو المحبة والبغض والموالاة والمعاداة، فيحاكم الناس جميعا -وكذا آراءهم- إلى المعيار الذي اتخذه لنفسه: فما وافقه قَبِلَهُ ورضي به واتبعه ووالاه، وما خالفه رده وأعرض عنه وعاداه- فذلك هو التعصب المقيت الذي نهى الله عنه ورسوله.

و(التَّعَصُّب) في اللغة: مَصدر الفِعلِ الثلاثيِّ المَزيد (تَعَصَّبَ).

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٣).

(٢) المصدر السابق (٢٠/١٦٤).

وأصل مادته: العين والصاد والباء؛ وهو أصل صحيح واحدٌ يدلُّ على: رَبْط شيءٍ بشيء، مستطيلاً أو مستديرًا، ثم يُفَرَّع ذلك فروعًا، وكلُّه راجعٌ إلى قياس واحد[١].

فمن ذلك: (العُصبة) و(العِصابة)؛ وهم: الجماعة من الناس من العشرة إلى الأربعين، وقيل: العشرة من الرجال، وهي في كلام العرب: الجماعة[٢]، و(العَصَبَة): "الأقَارِب من جهة الأَبِ"؛ سُمُّوا بذلك لأنهم عَصَبوا بنَسَب الميت - أي: أحاطوا به واستداروا - وهو يعتصِب بهم[٣]، و(عصبَ القوم بفلان)، عَصْبًا: التفوا وأحاطوا به لقتالٍ أو حماية[٤]، واستكفُّوا به، وكلُّ شيء استدار حول شيء واستكفَّ به؛ فقد (عصب) به، ومنه قيل للعمامة: (عصابة)؛ لأنها استكفَّت برأس المعتمِّ[٥]، و(تعصَّب): أتى بالعصبيَّة، و(تعصَّب) بالشيء، و(اعتصب) به: تقنَّع به ورضي[٦]، و(العصبيَّة)، و(التعصُّب): المحاماة والمُدافَعَة عمَّن يلزمك أمرُه أو تلزمه، لغَرَضٍ[٧].

و(التعصُّب) اصطلاحًا لا يخرج عن المعنى اللُّغوي العام؛ فقد عرَّفه بعضُهم بأنه: "عدم قبول الحق عند ظهور دليله"[٨]، وفي هذا قصورٌ؛ لاقتصارِه على بعض أنواع التعصُّب (وهو: التعصُّب المذهبيُّ أو الطائفيّ أو الفِكْري).

ولعل التعريف المختار هو: نُصرة المذهب أو العَصَبَة أو القرابة أو المتبوعين، حقًّا كان

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/٣٣٦).

(٢) العين (١/٣٠٩)، تهذيب اللغة (٢/٤٦)، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) (١/١٨٣)، معجم مقاييس اللغة (٤/٣٣٩)، المحيط في اللغة (١/٣٤٤)، المحكم والمحيط الأعظم (١/٤٥٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٢٤٥)، تهذيب اللغة (٢/٤٨)، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي ص (٢٦٨)، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) (١/١٨٣).

(٤) المحيط في اللغة (١/٣٤٣)، المصباح المنير (٢/٤١٢).

(٥) الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي ص (٢٦٨)، تهذيب اللغة (٢/٤٨)، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) (١/ ١٨٣)، المصباح المنير (٢/ ٤١٢).

(٦) المحكم والمحيط الأعظم (١/٤٥١)، المعجم الوسيط (٢/٦٠٤).

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٢٤٦)، المعجم الوسيط (٢/٦٠٤).

(٨) دستور العلماء (١/٢١٨).

ذلك أو باطلاً، ظالمين كانوا أو مظلومين، وجَعْلُ ذلك هو الميزان الذي يوزَن به الحقّ والباطل، والموالاة على ذلك والمعاداة عليه[١].

ومن ذلك يظهر: أن التعصب له صُور وأنواع، منها:

١- التعصب للذوات والأشخاص -كإمام معين، أو ملك، أو داعية إلى بدعة، أو الآباء-.

٢- التعصب للآراء والمقالات.

٣- التعصب للأنساب والقبائل والأجناس.

٤- التعصب للأمصار والبلاد.

٥- التعصب لجنس معين من أجناس بعض شرائع الدين -كتعصّب العلماء بعضهم لبعض لاشتراكهم في الفقه، وتعصب الجنود بعضهم لبعض لاشتراكهم في التجند-.

٦- التعصب لشعار تتميز به طائفة من الطوائف كفعل معين، أو لباس من عمائم وغيرها -كتعصب الفقهاء بعضهم لبعض لاشتراكهم في لباس معين كالعمائم، وتعصب الجنود بعضهم لبعض لاشتراكهم في لباس الجند-[٢].

وقد جاءت الشريعة الإسلاميّة بإبطال كل صورةٍ تدل على التعصب، وتحريمه، وذمِّ فاعله، ومن ذلك:

١- ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه اشتراك بني آدم في أصل الخلق، مُبطِلاً بذلك التفاخرَ بالأحساب والأنساب وغيرها وما ينشأ عن ذلك من تعصب، ومُبيِّناً أنهم إنما يتفاضلون بالتقوى، فقال تعالى: Q O N M L K J I H G F E O
N U T S R[٣]. ((أي: إن أكرمكم -أيها الناس- عند ربكم: أشدكم اتقاء له بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتا ولا أكثركم عشيرة))[٤].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٢/٤٩)، مجموع الفتاوى (١١/٩٢)(٢٠/٨)، أدب الطلب ص (٣٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١/١٧)(٣/٣٤٢)، زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/٤٧١).

(٣) سورة الحجرات، آية رقم (١٣).

(٤) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/ ٣٨٦).

٢- ولما أثار عدو الله عبد الله بن أبي بن سلول الحميّة القبليّة بين معاشر الأوس والخزرج في غزوة بني المصطلق حتى كاد المهاجرون والأنصار أنْ يقتتلوا؛ نهى النبي r حينها عن هذه العصبيّة الجاهليّة فقال: ((ما بال دَعْوى الجاهلية؟، دَعُوها؛ فإنها منتنة))[١].

٣- وعن أبي هريرة t قال:قال رسول الله r يوم فتح مكة: ((يا أيها الناس، إنَّ الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة[٢] الجاهلية[٣] وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلقَ اللهُ آدم من تراب، قال الله: E O F G H I J K L M N O Q R S T U W X Y Z N[٤]))[٥].

وبيّنت الشريعة أيضًا ضرر التعصب وخطورته على الفرد والمجتمع:

فمن آثار ضرره وخطورته على الفرد:

١- الانصرافُ عن الحق وعن القول به، والزهدُ فيه وفي أهله:

المتعصِّب لا يحدِّث نفسه بفهم الحق وتدبره والعمل به وتنفيذه، ولا يتلقّاه بإنصافٍ وتجرّد وطلبٍ لمعرفة الصواب، بل يكتفي بما وجد عليه من يتعصّب لهم من المتبوعين والآباء والآراء، فيأنس إلى دين العادة وما ألف عليه الآباء والأمهات، ويُخلِد إلى القرابة وما استمرت عليه عادة أهله وأصحابه وجيرانه وأهل بلده، ويرضى لنفسه أن يكون دينه دين العادة، فإذا رآه الشيطان على هذه الحال، ورأى أن ذلك هو مبلغ همته وعزيمته؛ رماه بالعصبية والحمية للآباء ولسلفه، وزين له أن هذا هو الحق، وما خالفه باطل، ومثّل له الهدى في صورة الضلال، والضلال في صورة الهدى، بتلك العصبية والحمية التي أسست على غير علم، فَرِضاه أن يكون مع عشيرته وقومه، له ما لهم وعليه ما عليهم، فيُخذَل عن الهدى، فلو

---

(١) أخرجه مسلم (١٩/٨) رقم (٦٧٤٨).

(٢) عُبِّيَّة: أي: الكِبْرَ. لسان العرب (٥٧٤/١).

(٣) أي: فخرها وتكبّرها ونخوتها. عون المعبود (١٦/١٤).

(٤) سورة الحجرات، آية رقم (١٣).

(٥) أخرجه أبوداود (٤/ ٤٩٢) رقم (٥١١٨)، والترمذي (٥/ ٧٣٤، ٧٣٥) رقم (٣٩٥٥، ٣٩٥٦)، وحسنه الألباني في غاية المرام (٣١٢).

جاءه كل الهدى ورآه يخالف قومه وعشيرته لم يره إلا ضلالة[١]، قال تعالى: O ! " #
$ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 N[٢].

وقد أمر الله -سبحانه وتعالى- بالعدل في الفِعال والمقال، على القريب والبعيد، لكل أحد، في كل وقت، وفي كل حال[٣]، فقال تعالى: O " # $ % & ' ( ) * + , - . / 1 2 3 4 5 6 7 8 N[٤]، والمتعصِّب يُعرِض عن ذلك كله؛ إذ إنه لا يقول الحق إلا إذا كان موافِقاً لمن يتعصّب له، وأما إذا لم يكن كذلك فإنه يكتمه ويُعرِض عنه، وقد يقول الباطل والزور لينصر من يتعصب له.

٢- عمى البصيرة:

((المتعصب -وإن كان بصره صحيحا- فبصيرته عمياء، وأذنه عن سماع الحق صماء، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق؛ غفلةً منه وجهلا بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح وتلقي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم))[٥]؛ فهو ((يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع المعترض في عينه، ويذكر من تناقض أقوال غيره ومخالفتها للنصوص والمعقول ما يكون له من الأقوال في ذلك الباب ما هو جنس تلك الأقوال أو أضعف منها أو أقوى منها))[٦].

ومن أعظم آثار ضرر التعصب وخطورته على المجتمع:

إيجاد العداوة والبغضاء بين المسلمين، وما ينتج عن ذلك من فُرقة وضعف في المجتمع المسلم:

ومما يدلّ على ذلك: ما امتنّ الله به على الأوس والخزرج من تآلف القلوب بعد

---

(١) انظر: الفوائد ص (١٦٥).
(٢) سورة الزخرف، آية رقم (٢٣).
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/٣٦٥).
(٤) سورة النساء، آية رقم (١٣٥).
(٥) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم النفسير (٢/٣٥٤).
(٦) درء تعارض العقل والنقل (٧/٤٦٣).

الفُرقة والقتال بسبب العصبية التي كانت بينهم، فقال تعالى: O H I J K L M N O P Q R S T N[١]، فَـ((هذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن وإحن[٢]، وذحول[٣] طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى))[٤].

وكانت هذه العصبيّة تثار من قِبَل أعداء الدين بين الأوس والخزرج من وقت لآخر، ومن ذلك: ما قام به شأس بن قيس[٥]، حين ذكَّرَ الأوس والخزرج بيوم بعاث[٦]، إثارة للعصبيّة بينهم، فقال لهم النبي r : ((يا معشرَ المسلمين، الله الله!، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهُرِكم؟!، بعد إذْ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمرَ الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألَّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا؟!))، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيدٌ من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكَوْا، وعانقَ الرجال من الأوس والخزرج بعضُهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رَسول الله r سامعين مطيعـــين

---

(١) سورة آل عمران، آية رقم (١٠٣).

(٢) الإحنة: الحقد في الصدر، والجمع إحنٌ وإحناتٌ. لسان العرب (١٣/ ٨).

(٣) ذُحُول: جمع ذَحْل؛ بمعنى: الحقد والعداوة، يقال: طلب بذَحْلِه أي: بثأره. الصحاح (١٧٠١/ ٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/٩٠).

(٥) شأس بْنُ قَيْسٍ اليهودي: شَيْخٌ عَسَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، عَظِيمَ الْكُفْرِ، شَدِيدَ الضِّغْنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، شَدِيدَ الْحَسَدِ لَهُمْ، أثار بين الأوس والخزرج فتنة عظيمة كادوا بسببها أنْ يقتتلوا، فأطفأ الله بنبيه محمد r تلك الفتنة الهوجاء، فأنزل الله في شأنه قوله تعالى من سورة آل عمران: O قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ ´ µ ¶ ¸ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ N. انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٦٢٧).

(٦) بُعاث: بضم الباء يوم مشهور كان فيه حَرْب بين الأوس والخزرج. وبُعاث اسم حصن للأوس وبعضهم يقوله بالغين المعجمة وهو تصحيف. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٣٩).

قد أطفأ الله عنهم كيدَ عدوِّ الله شَأس بن قيس وما صنع))[١].

فالتعصب -بجميع أنواعه وصُوره- يفرّق الجماعة المؤمنة، ويُحدِث بينها العداوة والبغضاء، وذلك أن الواجب ((على كل مؤمن أن يحب ما أحب الله ورسوله، وأن يبغض ما أبغضه الله ورسوله مما دل عليه في كتابه، فلا يجوز لأحد أن يجعل الأصل في الدين لشخص إلا لرسول الله r، ولا لقولٍ إلا لكتاب الله U، ومن نصب شخصا كائنا من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو من O J K L M N N[٢]))[٣]، والفُرقة من أعظم أسباب ضعف المسلمين وذهاب قوتهم وطمع أعدائهم فيهم، كما قال تعالى: O$ % & ' (N[٤].

وقد كان الصحابة y بعيدين كل البعد عن الاتصاف بالتعصب، بل على النقيض من ذلك كانوا شديدي الموالاة لكلمة التوحيد وأهلها، فمن أجلها يوالون، وعليها يعادون، واضمحلّت وانعدمت فيما بينهم معاني التعصب المقيت التي كانوا يتفاخرون بها ويتعصبون لها في جاهليتهم، وحادثة الإفك من أكبر الأدلة على ذلك، ومن أظهر ما يدل من أحداثها على ذلك: ما حدث من الصحابية الجليلة أم مسطح -رضي الله عنها- حين دعتْ على ولدها وفلذة كبدها فقالت: ((تعس مسطح))، فإنها لم تنظر إلى قرب ولدها منها -وذلك من أعظم ما يكون عليه التعصب-، وإنما قدمت نصرة المظلوم ولو كان الظالم أقرب قريب، فكان في موقفها هذا فضيلة عظيمة لها؛ ((لأنها لم تُحَابِ ولدها في وقوعه في حق عائشة، بل تعمدت سبه على ذلك))[٥].

كما أنه من الملاحظ على المجتمع المدني من الصحابة y في حادثة الإفك: انصرافهم التام عن المحاباة والمجاملة لأجل التعصب لقبيلةٍ أو رأيٍ أو شخص، بل كان نظرهم كله

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٦٢٨).
(٢) سورة الروم، آية رقم (٣٢).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٨).
(٤) سورة الأنفال، آية رقم (٤٦).
(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٨٠).

قاصرًا على اتباع الحق وردّ الإفك الباطل المفترى به على النبي r ، والمتمثل في تهمة زوجه أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-.

و لم يقع في المجتمع المدني في حادثة الإفك مظهر من مظاهر التعصب إلا من جهتين:

الأولى- من جهة المنافقين:

ولا عجب!، فالمنافقون جمعوا أخبث الصفات وأسوأها، وهم الذين اختلقوا الإفك وأشاعوه، وكان منهم من أنشأه واختلقه، ومنهم من قلّد فيه رؤساءه وتعصّب لهم، وليس الحديث هنا عن هؤلاء، فليس بعد الكفر ذنب!.

الثانية- موقف الصحابي الجليل سعد بن عبادة t سيد الخزرج:

فبعد أن فرغ النبي r من استشارة علي وأسامة -رضي الله عنهما- صعد المنبر وخطب في الناس فقال: ((يا معشر المسلمين، مَن يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهل بيتي؟، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي))، فقام سعد بن معاذ الأنصاري t سيد الأوس فقال: أنا والله أعذرك منه -يا رسول الله-، فإن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة t سيد الخزرج فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رَهْطِكَ ما أَحْبَبْتَ أن يُقْتَلَ، فقام أسيد بن حضير t -وهو ابن عم سعد بن معاذ- فقال لسعد بن عبادة: كذبت -لعمر الله-، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله r قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله r يخفضهم حتى سكتوا وسكتَ!.

ولعل من الأولى والأليق قبل أن أتعرض لما وقع من الصحابي الجليل سعد بن عبادة t أن أذكِّر القارئ الكريم بمعتقد أهل السنة والجماعة في الصحابة y ، فمن ((أصول أهل السنّة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله r ، كما وصفهم الله به في قوله تعالى: O ! " # $ % & ' ( ) * + , - . /

0 1 2 3 4 5 6 7 N[١]، وطاعة النبي في قوله: "لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنَّ أحدكم أنفق مثل أحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه"[٢]، ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم...، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر -وكانوا ثلاثمائةٍ وبضعة عشر-: "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"[٣]، وبأنه لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي r ، بل قد رضي الله عنهم ورضوا عنه...، ويشهدون بالجنة لمن شهد له r بالجنّة))، وأنهم ((لا يعتقدون أنَّ كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره؛ بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم -إنْ صدر-، حتى إنَّه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأنَّ لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم...، ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب: فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد r الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه. فإذا كان هذا في الذنوب المحقَّقة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطئوا فلهم أجر واحد -والخطأ مغفور-؟، ثم القدر الذي يُنكَر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما مَنَّ الله عليهم به من الفضائل عَلِم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله))[٤].

ثم أعود بعد ذلك إلى ما أنا بصدد الحديث عنه فأقول:

إننا حين نتأمل فيما وقع من الصحابي الجليل سعد بن عبادة t نجد أنه في تلك الواقعة ظهر موقفان متقابلان:

---

(١) سورة الحشر، آية رقم (١٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٠/٥) رقم (٣٦٧٣)، وصحيح مسلم (١٨٨/٧) رقم (٦٦٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣/٤) رقم (٣٠٠٧) وصحيح مسلم (١٦٧/٧) رقم (٦٥٥٧).

(٤) مجموع الفتاوي (٣/ ١٥٥- العقيدة الواسطية).

الأول- موقف سعد بن معاذ وأسيد بن حضير -رضي الله عنهما-، الذي تميّز بالوقوف عند مراد رسول الله r مهما اقتضاه ذلك من أمور، ولو كان بقتل من كان من الأهل والعشيرة، وهذا الموقف متوافِقٌ مع المواقف العامة للصحابة في هذه الحادثة، مما يدل على ما ذكرناه آنفًا من بُعدِ الصحابة y عن التعصب بجميع صُوره.

الثاني- موقف سعد بن عبادة t ، الذي هو من خيار الصحابة وصالحيهم، وأحد السابقين الأولين إلى الإسلام من الأنصار، لكنَّ موقفه كان فيه حميَّة -كما قالت عائشة رضي الله عنها: وكان قبل ذلك رجلا صالحا، ولكن اجتهلته الحمية-.

وإننا لا نشك البتة في أن سعد بن عبادة t لم يُرِدْ من موقفه هذا تأييد عبدالله بن أبيّ على باطله وإفكه، ولا الدفاع بالباطل عمّن خاض في الإفك من الصحابة من الخزرج، ونقطع بأنه t لم يُرِد التأخّر عن طاعة رسول الله r وإعذارِه في عقوبة من آذاه r في أهله، ولكن حَمَلتْه على ما قال شيء من الحميَّة وما كان بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، وذلك أن سعد بن معاذ -وهو أوسيٌّ- لما قال: ((وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك)) رأى سعد بن عبادة -وهو خزرجي- أنه إنما أشار بقتل الخزرجي زعمًا منه أنه ليس له حامٍ، فأخذته الحميَّة، فقال: لَعَمْر الله لا تقتله، فكأنه نَظَرَ إلى أن الأوسيَّ يرى أن الخزرجيّ ضعيفٌ لا حامي له، فَلَحِقَ به وبأهل قبيلته هوانٌ وذلٌّ فأخذته الحميَّةُ فقال ما قال(١).

قال شيخ الإسلام -بعد أن ذكر قول عائشة رضي الله عنها: ((وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية))-: ((وقد قلنا غير مرة: إن الرجل الصالح المشهود له بالجنة قد يكون له سيئات يتوب منها، أو تمحوها حسناته، أو تكفر عنه بالمصائب أو بغير ذلك، فإن المؤمن إذا أذنب كان لدفع عقوبة النار عنه عشرة أسباب: ثلاثة منه، وثلاثة من الناس، وأربعة يبتديها الله: التوبة والاستغفار، والحسنات الماحية، ودعاء المؤمنين له وإهداؤهم العمل الصالح له، وشفاعة r ، والمصائب المكفرة في الدنيا وفي البرزخ وفي عرصات القيامة،

(١) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٣٧٢/٧)، فيض الباري شرح صحيح البخاري (١٦٤/٦)، حاشية السندي على صحيح البخاري (١٦/٣).

ومغفرة الله له بفضل رحمته))[١].

وقد أبرز الموقف الذي كان بين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة خطر الحميَّة في عدة أمور، منها:

١- أن الحميَّة سببٌ لوجود السبّ بين أفراد المجتمع المسلم بعضهم بعضًا، وذلك لأن المتعصِّب يُعرِّض نفسه للسبّ ممن حوله من المجتمع، فقد ذكر أهل العلم أن من فوائد هذه الواقعة: ((جواز سب المتعصب في الباطل، والعاصي، والمتكلم بمنكر القول، والإغلاظ في سبه يشبه صفته، فإن لم يكن فيه حقيقة كقول أسيد: "كذبت، إنك منافقٌ تجادل عن المنافقين"، وحاشا لسعد من صفة النفاق، لكن لما كان منه من ظاهر التعصب لابن أبيّ المنافق استحق التعرض له والسب والتأديب كمثل هذا القول الغليظ))[٢]، فمعنى قول أسيد ابن حضير t : ((إنك منافق تجادل عن المنافقين)): ((أنك تفعل فعل المنافقين، و لم يُرِد النفاق الحقيقي))[٣]، وهذا السبُّ -وإن كان له وجهٌ صحيح- إلا أن الأصل في المجتمع المسلم هو عدمُ وجودِه وتجنُّبه بتجنُّب سببه (وهو التعصب).

٢- أن وجود شيء من الحميَّة في فردٍ أو جماعةٍ في المجتمع المسلم ينقلهم عن اسم الصلاح، كما نقل سعدَ بن عبادة t [٤]، وهذا من أخطر الآثار الاجتماعية؛ إذ إنه يعني وجود أناسٍ في المجتمع غير صالحين، وهذا يؤثر على المجتمع بعامة.

٣- وظهر جليًّا أنَّ وجودَ شيءٍ من الحميَّة في الإنسان يؤدي إلى فُرقة شديدة بين المسلمين، فإن هذه الواقعة وقعت بين اثنين من الصحابة الأجلاء، وأمام رسول الله r ، ثم تثاور على إثرها الأوس والخزرج، فكيف بمن بعدهم وقد بَعُد العهد عن زمن النبوة؟ إن ذلك ليدلّ على الضرر الاجتماعي العظيم الذي يُحدِثه التعصب بين المسلمين.

٤- أن التعصُّب يُشغِل المجتمع المسلم عمّا هو مأمور به من طاعة الله ورسوله، وعمّا

---

(١) منهاج السنة النبوية (٤/ ٣٢٥).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ١٤٤).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/١١٨).

(٤) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٨/٤٠).

هو مطلوبٌ منه من الرقيّ إلى المعالي والسعي إلى الكمال، ويجعله يذهل عن ذلك كله، ويَصْرِفه إلى اتباع العصبية المقيتة وما تُمليه من أهواء وآراء خارجة عن الحق وأفعالٍ بعيدةٍ عن الصواب، وقد وقع شيء من الحميَّة فيما حصل من سعد بن عبادة t ثم الصحابة بعده، فإنهم ذُهِلوا عن إجابة النبي r إلى طلبه، وشُغِلوا عن طاعته واتباع أمره، وصار انشغالهم في تلك الحال بإجابة بعضهم بعضًا عن شيء من الحميَّة التي أُثيرت بينهم.

٥- أن التعصّب سببٌ لوقوع الجهل في المجتمع وارتفاع العلم، وذلك أنه يحمل المرء على فعل ما يضره وترك ما ينفعه، وهذا من الجهل الذي هو عَمَلٌ بخلاف العلم، حتى يُقدِم المرء على فعل ما يعلم أنّه يضره، وترك ما يعلم أنه ينفعه؛ لما في نفسه من البغض والمعاداة لأشخاص وأفعال، وهو في هذه الحال ليس عديم العلم والتصديق بالكلية، لكنّه لما في نفسه من بغض أو حسدٍ غلب على موجب ذلك لموجب العلم، فدلَّ على ضعف العلم لعدم موجبه ومقتضاه(١).

إن هذه الآثار الناجمة عن التعصب للباطل من أجل القرابة التي تبين خطورة التعصب لتستدعي من الداعية عظيم اهتمامه وبالغ عنايته، فيستخرج من ذلك الفوائد التي تفيده في دعوته، ومنها:

١- إن وقوع صحابي جليل بالخطأ في شيء من الحميَّة للقرابة مما يدلّ على عظيم خطره وشدّة تأثيرها، فسعد بن عبادة t اختاره الله لصحبة نبيه -وكفاه شرفًا ورفعة- ومع ذلك وقع بالخطأ في شيء من الحميَّة للقرابة، فعلى الداعية أن يُدرِك هذا الأمر، وأن يعلم أن مجرَّد الصلاح ليس بمانعٍ من الوقوع في التعصب المذموم، وأن اضطلاعه بالدعوة إلى الله لا يعني أنه معصومٌ عن ذلك، فيُهذِّب نفسه بآداب الوحي، ويكمّلها بأحسن تلك الآداب ويجنّبها سيئها، ويربيها على الوقوف عند أوامر الشرع ونواهيه، فلا تكون له الخيرة في ذلك البتة، بل يقدم أمر الله ورسوله في كل حالٍ وحادثةٍ على هوى نفسه ونصرة قرابته مهما كان أثر ذلك عليه.

٢- الاتصاف بالتعصّب من علامات الجهل واتباع الهوى، وذلك صفة ذميمة في

(١) انظر: الإيمان الأوسط ص(٤٢٦).

آحاد المسلمين وعامتهم، فكيف بالداعية الذي يُؤَمَّل فيه أن يكون قدوةً حسنة للمدعوّين بقوله وفعله وخلقه؟.

٣- التعصب له صور وأنواع وطرائق شتى، ومعرفة الداعية بذلك من الأهمية بمكان، حيث يقوده ذلك إلى تجنّب التعصب مطلقًا، وأما جهله بذلك فإنه يوصله إلى المهالك، ويجعله يقع في نوع من التعصب وهو لا يشعر.

٤- ينبغي على الداعية أن يحرص ابتداءً على أن يُنمِّي في المدعوّين صدق الانتماء للإسلام، وقوة الاعتزاز بالأخوّة الإيمانية، وأن يذكّرهم بنصوص الأمر بالاجتماع والوحدة والنهي عن الخلاف والفرقة، وأن يبيّن لهم الآثار الاجتماعية السيئة التي تترتب على التعصب ويحذّرهم منها.

ثم إن رأى أن التعصب قد ظهر في أفرادٍ من المجتمع أو فئات منه بادر إلى تنبيه الناس، وبذل جهده في توعيتهم في خُطَبه ومحاضراته وندواته.

كما أن عليه أن يكون له دورٌ فاعلٌ في تهدئة من حوله من المسلمين إذا وقعت بينهم عداوة وبغضاء أو ما هو فوق ذلك بسبب التعصب.

" " "

المبحث الثاني

خطورة خوض الداعية في أعراض المسلمين

حقوق المسلم محفوظة في شريعة الله، وعرضه من الضروريات الخمس التي جاء الدين بالاهتمام العظيم بها برعايتها وصيانتها عن الاعتداء والانتقاص بغير حق، ومما جاء في تقرير ذلك وبيانه: قول النبي r: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا))[١]، وقوله: ((المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا -ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرئٍ من الشر أنْ يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه))[٢].

وجعلت الشريعة الإسلاميّة القويمة من معايير التفاضل والخيّريّة بين المسلمين عند الله U وفيما بينهم: السلامة من أذيّة بعضهم بعضًا باللسان، فقد سُئل النبي r: يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟، فقال: ((من سلم المسلمون من لسانه ويده))[٣]، وفي حديث آخر أنه سُئل: أي المسلمين خير؟ فقال: ((من سلم المسلمون من لسانه ويده))[٤]، ((وهذا من جامع كلامه وفصيحه ومحاسنه، ولا يفهم من هذا أن من ليس بهذه الصفة ليس بمسلم))[٥]، وإنما ((المراد بهذا الحديث: الحض على ترك أذى المسلمين باللسان واليد والأذى كله))[٦]، فَـ((من كانت هذه حاله كان أحقَّ بهذا الاسم وأمكنهم فيه. ويبيِّن ذلك: أنَّه لا ينتهي الإنسانُ إلى هذا حتَّى يتمكَّنَ خوفُ عقابِ الله سبحانه وتعالى مِنْ قلبه، ورجاءُ ثوابه فيكسبه ذلك وَرَعًا يحمله على ضبط لسانه ويده، فلا يتكلم إلا بما يعنيه، ولا يفعلُ إلاَّ ما

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧/١) رقم (٦٧)، ومسلم (١٣٠٥/٣) رقم (١٦٧٩).
(٢) أخرجه مسلم (١٠/٨) رقم (٦٧٠٦).
(٣) أخرجه البخاري (١٠/١) رقم (١١).
(٤) أخرجه مسلم (٤٧/١) رقم (١٧٠).
(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢٠٢/١).
(٦) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦٢/١).

يَسْلَمُ فيه، ومَنْ كان كذلك فهو المسلمُ الكامل والمتَّقي الفاضل))[١]، الذي ((جمع إلى أداء حقوق الله تعالى أداء حقوق المسلمين))[٢].

وبيّنَ الله U في القرآن الكريم مسؤولية العبد عما يتلفظ به من الأقوال، وأنه قد أوكِل به ملكان يحصيان عليه جميع أقواله، قال تعالى: O : ; < = > ? @ A N[٣]، كما بيّنَ النبي r خطورة اللسان وشؤم إطلاقه دون تبيّن وتريّثٍ ونظرٍ إلى ما يؤول إليه من نتائج حيث قال r: ((إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبيّن ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب))[٤]، وجعل ضبط اللسان من كمال الإيمان الواجب فقال: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت))[٥]، وجعل ملاك أمر الدين في حفظ العبد لسانَه، وجعل هلاك العبد في تهاونه بذلك فقال لمعاذ بن جبل t: ((ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟...، كُفَّ عليك هذا -وأشار إلى لسانه-)) ثم قال: ((وهل يكب الناس في النار على وجوهم -أو قال: على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم؟!))[٦].

كما جاء في الكتاب والسنة تحريم الغيبة والنميمة والبهتان والاستهزاء والقذف وغير ذلك مما يكون فيه طعنٌ في العرض بغير وجه حق أو ذريعة موصلة إلى ذلك، وورد في ذلك الوعيد الشديد الذي ((يردع العاقلَ عن الاشتغال بغيره، ويُوجِبُ له الاهتمام بإصلاح نفسه قبل هجوم منيته))[٧]، كقوله تعالى: O ` a b c d e f g

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (٢٢٤/١).

(٢) هدي الساري مقدمة فتح الباري شرح صحيح البخاري (ص ٥٣).

(٣) سورة ق، آية رقم (١٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٤/٨) رقم (٧٦٧٣).

(٥) أخرجه مسلم (٤٩/١) رقم (١٨٢).

(٦) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤) رقم (٣٩٧٣)، وصححه لغيره الألبانيٌّ في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٦٦).

(٧) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (١١٣/٣).

،[٢]N ; : 9 8 7 6 5 4 2 1 0 / O،[١]N k j i h

وقوله r : ((من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة[٣] الخبال[٤]، حتى يخرج مما قال))[٥].

وقد كان أصحاب رسول الله r أعلمَ الناس بذلك، وأشدّهم التزامًا به؛ طاعةً لله ورسوله، وعرفانًا بحقوق إخوانهم المسلمين، وأداءً لها.

وكانت مواقفهم في حادثة الإفك من أعظم الأدلة على ذلك، فإن الناظر في النصوص الواردة في حادثة الإفك يعلم أن المجتمع المدني المؤمن لم يكن هو الذي ابتدأ الإفك لا اختلاقًا ولا إشاعة، وإنما كان الذي فعل ذلك وتولّى كِبره هو رأس النفاق عبد الله بن أبي ابن سلول[٦] والمنافقون من بعده.

وأما من خاض في الإفك من الصحابة فلم يذكر لنا منهم إلا ثلاثة، وهذا يدل على أنَّ الخائضين في الإفك من الصحابة الفضلاء قِلّة، وأن خوضهم فيه لا يعدو أن يكون أثرًا من آثار الكيد الذي أراده المنافقون من هذا الإفك.

وقد دلّت النصوص على أن ما وقع فيه أولئك الصحابة الثلاثة y شديد الضرر وعظيم الخطر على الفرد المسلم، وبما أن المسلم لَبِنةٌ من لَبِنات المجتمع فإن ما يقع فيه من

---

(١) سورة الأحزاب، آية رقم (٥٨).

(٢) سورة الحجرات، آية رقم (١٢).

(٣) الردغ: الماء والطين والوَحَل الكثير الشديدُ. لسان العرب (٨/٤٢٦).

(٤) الخبال: يقال إنّه صَدِيد أهل النّار، وقيل عصارة أهل النار. انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/٢٤٣)، ولسان العرب (١١/١٩٧).

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٣/ ٣٣٤) رقم (٣٥٩٩). وهو في صحيح الجامع (٦١٩٦).

(٦) انظر: صحيح البخاري (٥/٩٦)(٦/٨٤)، صحيح مسلم (٨/١١٢)، جامع البيان (١٧/ ١٩٥). وقال الحافظ ابن كثير: ((وقيل: بل المراد به [يعني: الذي تولى كِبر الإفك] حسان بن ثابت، وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن محاسنه أنه كان يذب عن رسول الله r بشعره، وهو الذي قال له رسول الله r : "هاجِهم وجبريل معك")). تفسير القرآن العظيم (٦/٢٥).

أمورٍ مخالفةٍ للشريعة ستكون له تبعاته الاجتماعيّة الخطيرة.

ومن مظاهر خطورة الخوض في عرض المسلم التي بيّنتها النصوص الواردة في حادثة الإفك ما يأتي:

أولاً- اتباع خطوات الشيطان.

في ثنايا آيات حادثة الإفك قال تعالى: O " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 N[١]، ففي هذه الآية تنفيرٌ وتحذيرٌ عن الخوض في عرض المسلم بأفصح عبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها، ففيها حذّرَ الله Y المؤمنين من سلوك سبيل الشيطان وطرقه، واقتفاء آثاره، فهو لا يأمر إلا بالفحشاء مِثل الزنا وقبائح الأفعال والمنكر من القول، فمن اتبعه في خطواته وقع فما يأمر به من الخطايا، وهذا فيه بيان أن الشيطان كان حريصًا على وقوع المسلمين في الإفك وإذاعتهم وروايتهم إياه عمن جاء به[٢].

فبذلك يتضح أنَّ من اتباع خطوات الشيطان: اختلاق الأخبار الكاذبة، والسعي في نشر الشائعات والأقاويل بمجرّدِ سماعها دون تثبّت، والخوض في أعراض المؤمنين بدون حق، وأن هذا مَزلقٌ شيطاني ماكر، القصد منه وقوع المجتمع المؤمن في الفحشاء والمنكر، وهذا أثر اجتماعي بالغ الخطورة للخوض في عرض المسلم بدون حق.

ثانيًا- استحقاق التوبيخ العظيم والعتاب الشديد.

ذكر بعض أهل التفسير أنه لم يقع في القرآن من التغليظ في شيء من المعاصي ما وقع في الإفك في عائشة -رضي الله عنها-، من الإيجاز في ذلك والإشباع والتفصيل والإجمال والتأكيد والتكرير، والاشتمال على الوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام القول في ذلك واستشناعه بطرق مختلفة وأساليب متقنة، كل واحد منها كاف في بابه، وما ذلك إلا لإظهار علو مترلة رسول الله r[٣].

---

(١) سورة النور، آية رقم (٢١).

(٢) انظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/ ٢٢١)، مدارك التتريل وحقائق التأويل (٣/ ٢٠٣)، زاد المسير في علم التفسير (٦/ ٢٣)، تفسير القرآن العظيم (٦/٣٠)، أيسر التفاسير (١/٢٦٩٤).

(٣) انظر: مدارك التتريل وحقائق التأويل (٣/ ٢٠٤)، فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٧-٤٧٨).

ومما يوضّح ذلك الآيات الآتية:

قال الله U: O B C D E F G H I J K L M N[(١)]،

فَـــ((عدل U عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر، ولم يقل: «ظننتم بأنفسكم خيرًا وقلتم»؛ ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات، وليدل التصريح بلفظ الإيمان على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن، وهذا من الأدب الحسن الذي قَلَّ القائم به والحافظ له، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه بإخوانه))[(٢)]. والمعنى: ((هَلاَّ إذْ سمعتم هذا القول الذي رُمِيَتْ به أم المؤمنين فقِسْتم ذلك الكلام على أنفسكم، فإذا كان لا يليق بكم فأمُّ المؤمنين أولى بالبراءة منه بالأحرى والأولى. وقال تعالى: هَلاَّ ظَنَّ المؤمنون الخير، فأم المؤمنين أهله وأولى به، وهَلاَّ قالوا بألسنتهم هذا كذبٌ ظاهر على أم المؤمنين، فإنَّ الذي وقع لم يكن فيه ما يريب، وذلك أنَّ عائشة جاءت راكبةً جهرة على راحلة صفوان بن المعطل السلمي، في وقت الظهيرة والجيش بكامله يشاهد ذلك، ورسول الله r معهم، فإنَّ ذلك ينفي كل شبهةٍ وشك، ولو كان في الأمر ما يُرتاب منه لم يكن هكذا جهرةً))[(٣)]، فعاتبهم الله بأنه ((كان ينبغي عليكم عند سماع ما أشاعه المنافقون من حديث الإفك والكذب والافتراء على أم المؤمنين الطاهرة أن تنصحوا بعدم الخوض فيه؛ لأنه غير لائق بكم، وأن تتعجبوا من اختراع هذا النوع من الكذب والبهتان، وأن تقولوا: لا ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام، ولا أن نذكره لأحد، تتره الله ربنا أن يقال هذا الكلام على ابنة الصديق زوجة رسول الله r فما هو إلا كذب وبهتان، وإننا لنبرأ إلى الله ربنا منه، ومن كل أفاك أثيم سولت له نفسه أن يكون الوسيلة في انتشار هذا القول الكاذب بين المؤمنين))[(٤)].

وقال تعالى: O o p q r s t u v w x y z { | }

---

(١) سورة النور، آية رقم (١٢).

(٢) مدارك التتريل وحقائق التأويل (٣/ ٢٠١).

(٣) أيسر التفاسير (١/٢٦٨٥).

(٤) المصدر السابق (١/٢٦٨٩).

~ N[(١)]، فعاتبهم سبحانه على ثلاثة أشياء، وهي: تلقيه بالألسنة (أي: السؤال عنه وأخذه من المسئول)، والثاني: قولهم ذلك، والثالث: أنهم حسبوه هينًا وهو عند الله عظيم:

فَـــ((فيه تعريض بحرصهم على تلقي هذا الخبر، فهم حين يتلقونه يبادرون بالإخبار به بلا تَرَوٍّ ولا تريث. وهذا تعريض بالتوبيخ))[(٢)]، ومعنى O p N: يأخذ بعضكم من بعض، وفي هذا الكلام وفي الذي قبله وبعده عتاب لهم على خوضهم في حديث الإفك، وإن كانوا لم يصدقوه، فإن الواجب كان الإغضاء عن ذكره والترك بالكلية[(٣)].

وقوله U: O r s t u v w x N ((فهذا بيان لسبب العتاب، وهو تلقي الباطل بالألسنة، والقول بالأفواه، وهما نوعان مُحَرَّمان: القول بالباطل، والقول بلا علم))[(٤)]، والمعنى: ((وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم من الأمر الذي تَرْوُونه، فتقولون: سمعنا أن عائشة فعلت كذا وكذا، ولا تعلمون حقيقة ذلك ولا صحته، O y z N وتظنون أن قولكم ذلك وروايتكموه بألسنتكم وتلقِّيكموه بعضكم عن بعض هيِّن سهل، لا إثم عليكم فيه ولا حرج، O } | { ~ N يقول: وتلقِّيكم ذلك كذلك وقولُكموه بأفواهكم عند الله عظيم من الأمر؛ لأنكم كنتم تؤذون به رسول الله r وحليلته))[(٥)]، ((وهذا عتاب -من اللّه تعالى- بليغ في تعاطيهم هذا الحديث وإن لم يكن المخبِر والمخبَر مصدقين، ولكنَّ نفس التعاطي والتلقي من لسانَ إلى لسان والإفاضة في الحديث هو الذي وقع العتابُ فيه))[(٦)].

وقال تعالى: O وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن © بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ N[(٧)]، ففيه توبيخ للخائضين في عرض المؤمن؛ لأنَّ المراد بقوله O قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ N: أن يقولوا ذلك

---

(١) سورة النور، آية رقم (١٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/١٧٨).

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٨٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٥/٣٣١).

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/ ٢١٨).

(٦) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٣/١١٢).

(٧) سورة النور، آية رقم (١٦).

للذين أخبروهم بهذا الخبر الإفك زجراً لهم وموعظة. والمعنى: ما يكون لكم أن تتكلموا بهذا. وهذا مسوق للتوبيخ على تناقلهم الخبر الكاذب، وكان الشأن أن يقول القائل في نفسه: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، ويقول ذلك لمن يجالسه ويسمعه منه. فهذا زيادة على التوبيخ على السكوت عليه[١]، فبين لهم سبحانه أنَّ الواجب عليهم أن يقولوا: ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد، سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة نبيه ورسوله وحليلة خليله[٢].

وقال تعالى: O يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن ´ µ ¶ ¸ كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ N[٣] أي: ((ينهاكم متوعدا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبدا، أي: فيما يُستقبَل، إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه وتعظمون رسوله r))[٤]، ((وفي هذا من الأدب الأخلاقي أن المرء لا يقول بلسانه إلا ما يعلمه ويتحققه وإلا فهو أحد رجلين: أَفِن الرأي يقول الشيء قبل أن يتبين له الأمر فيوشك أن يقول الكذب فيحسبه الناس كذابا...، أو رجل مموه مراء يقول ما يعتقد خلافه))[٥].

ثالثًا- التعرُّض للعقاب من الله.

توعّد الله سبحانه الخائضين في أعراض المؤمنين فقال: O ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ N[٦]، ففي الآية وعيد شديد لمن جاء بالإفك وتولّى كبره بالعذاب العظيم، ووعيد آخر لمن خاض في الإفك بأنه اكتسب من الإثم بقدر خوضه في الإفك، وقد كانت لهم عقوبتهم في الدنيا فَـــ((قد حدَّ النبي r منهم جماعة))[٧].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٨/١٨٠).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٦/٢٩).

(٣) سورة النور، آية رقم (١٧).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم (٦/٢٩).

(٥) التحرير والتنوير (١٨/١٧٨).

(٦) سورة النور، آية رقم (١١).

(٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص(٥٦٣).

كما بيّن سبحانه أن فضله ورحمته كانا سببين في منع العذاب العظيم عن المؤمنين الخائضين في الإفك، فقال: O _ ` a b c d e f g h i j k l m N[١].

قال السبكي: ((وأما الوقيعة في عائشة رضي الله عنها -والعياذ بالله- فموجبة للقتل لأمرين:

أحدهما- أن القرآن يشهد ببراءتها، فتكذيبه كفر، والوقيعة فيها تكذيب له.

والثاني- أنها فراش النبي r، والوقيعة فيها تنقيص له، وتنقيصه كفر.

وينبني على المأخذين سائر زوجاته r: إن علّلنا بالأول لم يقتل من وقع في غير عائشة -رضي الله عنها-، وإن عللنا بالثاني قُتِل لأن الكل فراش النبي r وهو الأصح على ما قاله بعض المالكية.

وإنما لم يقتل النبي r قَذَفَة عائشة لأن قذفهم كان قبل نزول القرآن، فلم يكن تكذيبًا للقرآن، ولأن ذلك حكم ثبت بعد نزول الآية فلم ينعطف حكمه على ما قبلها))[٢].

رابعًا- وجود الخَلل والنقص في الإيمان.

تكرّر ذكر الإيمان في الآيات الواردة في حادثة الإفك في أكثر من موضع، ومنها: O E F G H I N[٣]، O يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن ´ µ ¶ ¸ كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ N[٤]، O إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ N[٥]، O " # $ % & ' (N[٦]؛ مما يدل على أن من موجبات الإيمان ومقتضياته رعاية عرض المؤمن، وأن الخوض فيه بغير حق من علامات نقص الإيمان ووجود الخلل فيه، ويوضّح ذلك المعاني الآتية:

---

(١) سورة النور، آية رقم (١٤).
(٢) فتاوى السبكي (٢/٥٩٢).
(٣) سورة النور، آية رقم (١٢).
(٤) سورة النور، آية رقم (١٧).
(٥) سورة النور، آية رقم (١٩).
(٦) سورة النور، آية رقم (٢١).

١ - أنَّ الآيات دلّت على أن ((الاشتراك في الإيمان يقتضي أنْ لا يُصَدِّقَ مؤمن على أخيه وأخته في الدين ولا مؤمنةٌ على أخيها وأختها في الدين قولَ عائبٍ ولا طاعنٍ))[١].

٢ - أن الله أوجب على المسلمين في هذه الآيات أنهم ((إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه...، ولأجل هذا قال العلماء: إن الآية أصل في أن درجة الإيمان التي حازها الإنسان، ومنزلة الصلاح التي حلها المؤمن، ولبسة العفاف التي يستتر بها المسلم؛ لا يزيلها عنه خبر محتمل وإن شاع، إذا كان أصله فاسدا أو مجهولا))[٢].

٣ - أن في الآيات الكريمات ((التنبيه على أنَّ حق المؤمن إذا سمع قالة في مؤمن أنْ يبني الأمر فيها على الظنِّ لا على الشَّكِّ، ثم ينظر في قرائن الأحوال وصلاحيّة المقام، فإذا نسب سوء إلى من عرف بالخير ظنَّ أنَّ ذلك إفك وبهتان حتى يتضح البرهان. وفيه تعريض بأن ظن السوء الذي وقع هو من خصال النفاق التي سرت لبعض المؤمنين عن غرور وقلة بصارة، فكفى بذلك تشنيعا له، وهذا توبيخ على عدم إعمالهم النظر في تكذيب قول ينادي حاله ببهتانه وعلى سكوهم عليه وعدم إنكاره))[٣].

٤ - أن الآيات دلّت على أن المـؤمن يتّعظ بِعِظات الله، ويأتمر لأمره، وينتهي عما نهاه الله عنه، فلا يقع في عرض المسلم بغير حق، كما يدل عليه قوله تعالى: O ¸ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ N[٤].

خامسًا - ارتكاب عدد من المحرمات والكبائر بهذا الخوض الباطل.

وصف الله سبحانه الإفك الذي خاض فيه بعض الصحابة بأنه عظيم عنده سبحانه فقال: O y z { | } ~ N[٥]، ((وإنما كان عظيمًا لأنه مشتملٌ على منكرات كثيرة وهي: الكذب، وكون الكذب يطعن في سلامة العرض، وكونه يسبّبُ إحنًا عظيمةً بين

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/١٧٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٠٢).
(٣) التحرير والتنوير (١٨/١٧٥).
(٤) المصدر السابق (١٨/ ١٨٢).
(٥) سورة النور، آية رقم (١٥).

المفترين والمفترى عليهم بدون عذر، وكون المفترى عليهم من خيرة الناس وانتمائهم لأخير الناس من أزواج وآباء وقرابات، وأعظم من ذلك أنه اجتراء على مقام النبي r ومقام أم المؤمنين -رضي الله عنها-))[١].

سادسًا- الوقوع في الجهل والقول بغير علم.

نهى الله نبيّه محمدًا r عن القول بغير علم فقال: O وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ N[٢]، والخوض في عرض المؤمن بغير حق هو من القول بغير علم الذي يتضمّن الاتصاف بالجهل في هذه الحال، قال تعالى: O r s t u v w x N[٣]، فمعناه: أنهم كانوا يتكلمون بما لا علم لهم به، وأن قولهم هذا غير موافق لما في العلم، ولكنه عن مجرد تصور؛ لأن أدلة العلم قائمة بنقيض مدلول هذا القول، فصار الكلام مجرد ألفاظ تجري على الأفواه من غير أن تعلموا أنه حق، فهو لم يكن له مصداقٌ ومنشأٌ في القلوبِ؛ لأنَّه ليسَ بتعبيرٍ عن علمٍ به في قلوبكم، وذلك يدل على أنه لا يجوز الإخبار إلا مع العلم، فأما الذي لا يعلم صدقه فالإخبار عنه كالإخبار عما عُلِم كذبه في الحرمة، فذمهم الله U على الإقدام على القول بما لا علم لهم به[٤].

سابعًا- منافاة الأخوة الإيمانية:

الأخوة الإيمانيّة تقتضي احترامَ الأخ لأخيه المؤمن، وحفظَ حقوقه وأداءَها له، وعدمَ التعدي عليه بالظلم بالقول والفعل، والمجتمعاتُ إنما تبنى أواصرها على حفظ الحقوق، وهذا الأمر بيّنه الشارع الحكيم، فقال تعالى في سياق مدح المؤمنين: O N O P Q

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/١٨١).

(٢) سورة الإسراء، آية رقم (٣٦).

(٣) سورة النور، آية رقم (١٥).

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/٢١٨)، أحكام القرآن للجصاص (٥/١٦٢)، زاد المسير (٦/ ٢١)، مفاتيح الغيب (٢٣/٣٤٣)، تفسير القرآن العظيم (٦/٢٨)، التحرير والتنوير (١٨/١٧٨)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦/ ١٦٢)، تفسير السراج المنير (٢/٦٧٢)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص(٥٦٣).

N R[١]، ومن أعظم ما تكون به رعاية الأمانة والعهد: رعاية العقد الذي عقده المؤمن مع ربه تبارك وتعالى، وهو: عقد الإيمان به سبحانه وطاعته والامتثال لأمره واجتناب نهيه، ومن مستلزمات ذلك: رعاية الأخوة الإيمانيّة التي تقتضي المحبة والموالاة والنصرة والمعاونة، ويُناقِضها الخذلان والعدوان والتطاوُل.

وفي الآيات الواردة في حادثة الإفك بيّن ربنا تبارك وتعالى أن مقالة السوء من المسلم في أخيه تنافي الأخوة الإيمانية، فقال تعالى: O B C D E F G H I J K L M N[٢]، فبيّنت الآية الكريمة أن واجب الأخوة الإيمانية هو أن يظن المؤمنون بعضهم ببعض خيرا، وهو السلامة مما رموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل[٣]، ولذلك فسّر بعض السلف قوله تعالى (بأنفسهم): ((بأهل دينهم؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة))[٤].

هذه هي خطورة الخوض في أعراض المسلمين بغير حق، وكلّ واحدة منها كافية للعاقل لتجنّبه والبعد عنه؛ ليسلم له دينه ودنياه، فكيف بالداعية إلى الله؟، لا شك في أنه ممن يتأكّد في حقه ذلك، كما يتأكّد في حقه أيضاً أن يتأمل في النصوص الواردة في حادثة الإفك عن ذلك؛ ليكتسب منها الفوائد والعِبَر، ومنها:

١- يتعاهد الداعية نفسَه بالتربية، فيتأمّل في الأدلة الداعية إلى رعاية حق المؤمن، والمحذّرة من التعرض له بدون حق، ويطلع على أقوال السلف وأهل العلم فيها، فإن ذلك يزيد فيه قوة الإيمان التي تحجزه عن الوقوع في الخوض في عرض أخيه المسلم بدون حق.

٢- ويتعاهدها أيضًا بالإصلاح والتهذيب إذا حادت عن الطريق فخاضت في عرض المسلم بدون حق، ويراقبها ويذكّرها بوعيد الله وأليم عقابه، ويستغفر الله ويتوب إليه مما وقع فيه من ذلك.

---

(١) سورة المؤمنون، آية رقم (٨).
(٢) سورة النور، آية رقم (١٢).
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص(٥٦٣).
(٤) معالم التنزيل (٢٣/٦).

٣- كما يتعاهدها كذلك بالوقاية، فيتجنّب كل سبيلٍ يمكن أن يوقعه في الخوض في أعراض المسلمين بدون حق، ومن ذلك: مصاحبة أهل التقوى الذين سلمت قلوبهم وألسنتهم من هذا المنكر العظيم، وترك أهل الفساد والإفساد، والبعد عن مصاحبتهم، والحذر من طرقهم الماكرة وأساليبهم الخبيثة التي يروّجون بها الطعن في الأعراض.

٤- على الداعية مسؤولية عظيمة جداً في توعية المسلمين بما أمكنه من وسائل الدعوة الشرعية لبيان خطورة الخوض في عرض المسلم مهما كانت الوسيلة التي كان بها ذلك الخوض كالغيبة والنميمة والبهتان والشائعات.

٥- يعي الداعية إلى الله تعالى ويدرك خطورة الخوض في أعراض المسلمين، فهو لذلك:

- لا يخوض في عرض أخيه المسلم إلا بحق دلت عليه النصوص العامة من الكتاب والسنة.
- لا يتلقف الشائعة بمجرّدِ سماعها، لعلمه بضررها الفادح، وبأنَّ الأصل في المسلم سلامة الظنِّ فيه.
- لا تحمله نصرة مذهبه ولا طائفته ولا رأيه ولا عشيرته وقرابته على الخوض في عرض المسلم بدون حق.

" " "

المبحث الثالث

خطورة مقالة السوء من الداعية في المجتمع المسلم

يحرص الإسلام في تشريعاته أيّما حرصٍ على ترابط المجتمع كالجسد الواحد، وحفظ أمنه واستقراره، فيقرّر ما يبني ذلك ويقوّيه ويحميه، كالسلام والإهداء ونصرة المظلوم والتعاون على الحق والإنفاق، وينهى عن كل ما يؤثّر فيه أو يضعفه أو يُذهِبه كبيع المسلم على بيع أخيه وخطبته على خطبته والبيوع التي فيها جهالة وغرَر والنميمة والخروج على الوالي المسلم وارتكاب البدع والمنكرات، ومن ذلك: نهي الإسلام عن الإفك والبهتان ومقالة السوء من المسلم في أخيه المسلم بغير وجه حق.

وفي حادثة الإفك كان ابتداء مقالة السوء من المنافقين المترصّدين بالدين وأهله، والساعين بينهم بالفساد والإفساد والتفريق، مريدين بذلك تفتيت لحمة المجتمع المؤمن، وإيغار صدور أبناء المجتمع بعضهم على بعض، حتى تتولد الفتنة، ويحدث الانشقاق، فيحصلوا على أعظم ما يرومونه، وهو الضرر المتعدي وهو دمار المجتمعات الدينيّة؛ إذ بذلك يحصل انهدام الدين.

و لم يشارك المنافقين في ذلك أحدٌ من أفراد المجتمع المسلم، بل كان المجتمع المسلم بأسره ممتثلاً لأمر الله في عدم اختلاق الإفك والبهتان، وعدم ابتداء مقالة السوء في إخوانهم المسلمين، ومع ذلك بيّن الله سبحانه في كتابه الكريم خطورة ذلك على المجتمع بما يتضمّنه وينتج عنه من المفاسد والأضرار الاجتماعية التي تفتك بروابط المجتمع وأواصر العلاقة الحميمة بين أفراده، وتقودهم إلى الهلاك وتفرّق الصفّ والكلمة، وتُضعِف الجانب الأخلاقي فيهم، وذلك تنفيرًا وتحذيرًا للمسلمين عن الوقوع فيما وقع فيه المنافقون من مقالة السوء، فالاعتبار والاتعاظ من علامات العقل كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ﴾[1].

وهذه أهم الآثار السيئة والمفاسد العظيمة التي ذكرها الله في آيات حادثة الإفك عن خطورة مقالة السوء في المجتمع المسلم:

---

(١) سورة الحشر، آية رقم (٢).

أولاً- مقالة السوء من أسباب قطع أواصر المحبة والترابط والتكاتف والعلاقات الاجتماعية بين المسلمين.

يجمع المجتمع البشريَّ روابط تربط بعض أفراده ببعض، فقد تكون تلك الروابط في النسب، وقد تكون في المجاورة في السكن، وقد تكون في المصاهرة، وقد تكون في غير ذلك من الروابط التي تجمع أصناف المجتمع، وهذه العلاقات توجب المحبّة والألفة لما بينهم من مصالح مشتركة، ولكنَّ المجتمع المؤمن في عهد النبي r تربى على إعطاء الحقوق لأهلها بصفة إيمانيّة، قال الله Y: O ; < = > ? @ A B C D E F G N[1].

وحين نتأمل في سبب نزول قوله تعالى: O H I J K L M N O P Q R S T U V X Y [\ ] ^ _ ` b c d N[2]؛ ندرك تلك الخطورة التي نتجت عن مقالة السوء؛ فإن أبا بكر الصديق t -وهو أفضل الأمة بعد نبيها r - كان يصل قرابته بالبر، ومنهم مسطح بن أثاثة t وهو ابن خالته، فكان ينفق عليه لفقره، وكان مسطح ممن تكلّمَ بالإفك، فلما نزلت براءة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أقسم أبو بكر الصديق t أنْ لا ينفق على مسطح لما بدر منه تجاه ابنته، وقال: ((والله لا أنفق على مسطح شيئًا بعد الذي قاله في عائشة -رضي الله عنها-))، فبسبب مقالة السوء كادت تتقطع وشائج المحبة والصلة بين المؤمنين، ويتوقف بعضهم عن معونة بعض وسدّ حاجته والوقوف معه في ضائقته وفقره، وحدوث ذلك هو من أسباب تصدُّع بناء المجتمع المؤمن أو تهدُّمه، ولكن الله أزال ذلك بترغيبه لأبي بكر t بأن يعفو عن مسطح t ، فانقاد أبو بكر لأمر الله U وردَّ النفقة لمسطح، وأقسم على عدم نزعها منه أبدًا.

ثانيا- الإعانة على نشر الفحشاء بين المسلمين دون أن يشعر.

قِوام المجتمعات كلها في بضعة أمور عظيمة يقوم عليها كيانها وبقاؤها وعزها، ومنها: الدين الصحيح والعدل والأخلاق، والأخلاق لها مكانةٌ عليا ومنزلةٌ كبرى عند جميع العقلاء، فالحِفاظ

---

(١) سورة الرعد، آية رقم (٢١).

(٢) سورة النور، آية رقم (٢٢).

عليها ونشرها مما يحفظ المجتمع، وتضييعها والسعي في نشر ضدّها مما يفكّك المجتمع ويضعفه.

وقد بيّنت الآيات أن مقالة السوء في عرض المسلم من أسباب القضاء على الأخلاق الفاضلة وإحلال الأخلاق الذميمة مكانها عن طريق إشاعة الفحشاء في المسلمين، وأن من فعل ذلك كان مُحِبًّا لإشاعتها شعر بذلك أم لم يشعر، قال تعالى: O إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ N(١).

وقال رسول الله r : ((أيما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهو منها بريء يرى أن يشينه بها في الدنيا كان حقا على الله تعالى أن يرميه بها في النار))(٢) ثم تلا مصداقه من كتاب الله تعالى: O إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ N(٣)(٤).

وتأمُّل هذين الأثرين السيئين الواردين في آيات حادثة الإفك عن خطورة مقالة السوء في المجتمع المسلم يقود الداعية إلى ما يأتي:

١- أن يدرك أن مقالة السوء سبب من أسباب قطع أواصر المحبّة والألفة بين المسلمين، وهدم البناء الاجتماعي المؤمن وتفكيكه، فلا يصدر عنه ابتداءً أيُّ قول سوء في أخيه المسلم بدون حق، ويحذر أشَدَّ الحذر من فعل أمرٍ قد يهدم بناءَ مجتمعٍ أقيمَ عــلى طاعــة الله U، فيتسبب بذلك في قطيعة رحمٍ أو هجرانِ أخٍ مسلم دون حق.

٢- أن يسعى في إصلاح ذات البين، وإزالة غائلة الصدور من قلوب المؤمنين، لكي تشتدَّ الرابطة الاجتماعيّة بعظيم أثر الأخوة الإيمانيّة، فلا يستطيع أعداء الدين النفوذ إلى أوساط المجتمعات الإيمانيّة، وهذه رسالة مهمّة يجب على الدعاة فهمها والعمل بها استفادةً من حادثة الإفك.

٣- أن يكون ناشرًا وداعيةً للأخلاق الفاضلة والتمسُّك بها والثبات عليها وانتشارها بين أفراد المجتمع المسلم، ومحذِّرًا ومنفِّرًا من الأخلاق الذميمة وداعيًا إلى البعد عنها وتركها ونبذها والتوبة منها.

^ ^ ^

---

(١) سورة النور، آية رقم (١٩).

(٢) قال الألباني: ضعيف. صحيح وضعيف الجامع الصغير. (٤٩١/١١) رقم (٥٠٤٤).

(٣) سور النور، آية رقم (١٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٠٦/١٢).

الفصل الرابع

مقومات الداعية إلى الله
من خلال حادثة الإفك

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: الصبر على البلاء.

المبحث الثاني: العفو والصفح.

المبحث الثالث: حسن الظن بالله.

المبحث الرابع: الرجاء بالله.

المبحث الخامس: التواضع لله.

المبحث السادس: الصدق مع الله.

المبحث السابع: التثبت وعدم العجلة.

المبحث الأول

الصبر على البلاء

الصبر على البلاء وعدم الجزع أمرٌ مطلوب شرعًا، والأجر فيه بـقدر الصبر والتسليم لله U. وذلك لأن الابتلاء تمحيص للمؤمن واختبار له.

و(الصَّبْر) في اللغة: مَصدر الفِعلِ الثلاثيِّ المجرَّد (صَبَرَ)، يُقال: (صبرَ، يصبِر، صَبْرًا)[(١)]، وأصل مادته: الصاد والباء والراء؛ وهو أصل صحيح يدلُّ -في أحد أصولِه- على الحَبْس في ضيق[(٢)]؛ يُقال: (صَبَرْتُ) نفسي على ذلك الأمر: حَبَسْتُها[(٣)]. و(الصَّبْر): نقيض (الجَزَع)، أو: حبس النَّفس عن الجَزَع[(٤)].

وفي الشَّرْع: عرَّفه بعضُهم بأنَّه: "ترك الشَّكْوَى مِن ألم البلوى لغير الله، لا إلى الله"[(٥)]، وفي هذا قصورٌ؛ لاقتصارِه على بعض أنواع الصَّبْر (وهو: الصَّبر على الأقدار المؤلِّمَة). وقيل: هو "حَبْس النفس على ما يقتضيه العَقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه"[(٦)]. ولعل التعريف المختار أنَّ: "الصَّبْر هو: حَبْس النفس عن محارم الله، وحَبْسها على فرائضه، وحَبْسها عن التسخُّط والشكاية لأقداره"[(٧)]؛ وهو يتضمَّن أنواعَ الصبر الثلاثة: الصبر عن المعصية، والصبر على الطاعة، والصبر على الأقدار المؤلِمَة. والله أعلم.

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم (٣١٣/٨)، القاموس المحيط ص (٥٤١).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣٢٩/٣)، مفردات ألفاظ القرآن (٥٦٥/١)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٧/٣).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٧٠٧/٢)، معجم مقاييس اللغة (٣٢٩/٣).

(٤) العين (١١٥/٧)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٧٠٧/٢)، المحكم والمحيط الأعظم (٣١٣/٨)، مفردات ألفاظ القرآن (٥٦٥/١)، المصباح المنير (٣٣١/١).

(٥) التعريفات ص (١٧٢).

(٦) مفردات ألفاظ القرآن (٥٦٥/١).

(٧) رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه ص (٢٠). وانظر تعاريف أخرى للصَّبْر في: مدارج السالكين (١٥٦/٢)، الوابل الصيِّب من الكلام الطيب ص (٦)، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص (١٩).

والمراد بالصبر على البلاء: ((أنه يتلقى البلاء بصدر واسع لا يتلقاه بالضيق والسخط والشكوى))[١].

وفي بيان فضله وأهميته:

١- قال لله تعالى: O 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < N[٢]، ((وهذا إخبار من الله تعالى لأتباع الرسول r، أنه مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور، ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، ثم أمر نبيّه r أنْ يبشّر الصابرين على امتحانه بما امتحنهم به، والحافظين أنفسهم عن التقدم على نَهْيه عما نهاهم عنه، والآخذين أنفسهم بأداء ما كلفهم من فرائض، مع ابتلائه إياهم بما ابتلاهم به، القائلين إذا أصابتهم مصيبة: "إنا لله وإنا إليه رَاجعون". فأمره الله تعالى ذكره بأن يخصّ -بالبشارة على ما يمتحنهم به من الشدائد- أهلَ الصبر، الذين وصف الله صفتهم))[٣].

٢- أن امرأة أتت إلى النبي r تسـألـه أنْ يدعو لها بالشفاء من الصّرع، فنـدبها النبي r إلى الصبر على البلاء فقال لها: ((إن شئت صبرت ولك الجنّة، وإن شئت دعوت الله أنْ يعافيكِ))[٤]، فإن في الحديث ((أنَّ اختيار البلاء والصبر عليه يورث الجنّة))[٥].

٣- والمؤمن بالله U يعلم أنَّ الاختبار والتمحيص والابتلاء مما ينال به محبّة الله إذا هو صبر، قال تعالى: O q r s t u v w x y z { | N[٦]، أي: ((أظنَّ الذين خرجوا -يا محمد- من أصحابك من أذى المشركين إياهم أن نتركهم بغير اختبار ولا ابتلاء امتحان، بأن قالوا: آمنا بك يا محمد فصدّقناك فيما جئتنا به من عند الله، كلا

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص(٢١).

(٢) سورة البقرة، آية رقم (١٥٥).

(٣) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢/ ٧٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٧/١٥٠) رقم (٥٦٥٢)، ومسلم (٨/١٦) رقم (٦٧٣٦).

(٥) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/٣٧٦).

(٦) سورة العنكبوت، آية رقم (١).

لنختبرهم، ليتبين الصادق منهم من الكاذب))(١).

٤- وعن أنس t قال: قال رسول الله r : ((إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فعليه السخط))(٢)، ((وهذا الحديث يدل على أن البلاء إنما يكون خيرا، وأن صاحبه يكون محبوبا عند الله تعالى؛ إذا صبر على بلاء الله تعالى، ورضي بقضاء الله U))(٣).

٥- كما يدرك المؤمن أيضًا أنَّ معنى الصبر: حبس النفس على المكروه، وعقل اللسان عن الشكوى، ومكابدة الغصص في تحمله، وانتظار الفرج عن عاقبته، وهذا في طريق الخاصة تجلد ومناوأة، وجرأة ومنازعة، فإن حاصله يرجع إلى كتمان الشكوى في تحمل الأذى بالبلوى، وتحقيقه، الخروج عن الشكوى بالتلذذ بالبلوى، والاستبشار باختيار المولى(٤)، فلذلك يحرص على أن: ((يتلقى البلاء بصدر واسع لا يتلقاه بضيق أو تسخّطٍ أو شكوى))(٥)، قال تعالى: O) (* + , - . / 0 1 2 3 4 N(٦)، و((هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها وتمرينها عليها ومعرفة ما تؤول إليه تنقلب عند أرباب البصائر مِنَحًا يسرون بها، ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء))(٧)

---

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/ ٣٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/٦٠١) رقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٢/١٣٣٨) رقم (٤٠٣١)، وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٤٠٧).

(٣) انظر: كتاب الكبائر ص (١٠١).

(٤) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين ص (٣٩٨).

(٥) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص (٢١)، بتصرُّف.

(٦) سورة آل عمران، آية رقم (١٤٦).

(٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (١٥٠).

فالابتلاء يُظهر معادن البشر وحقيقة نفوسهم في: صبرها من جزعها، وإيمانها من نفاقها.

٦- وكلُّ من تقلَّد أمرَ الدعوة إلى الله تعالى على المنهج القويم، يعلمُ أنَّ قدوته -في دعوته وجميع شؤونه- رسول الله r الذي أمره الله بالصبر على البلاء: O فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ N[1]، ((يقول تعالى ذكره لنبيه محمد r ، مثبته على المضيّ لما قلَّده من عبْء الرسالة وثقل أحمال النبوّة r ، وآمره بالائتساء في العزم على النفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لَقُوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد: O فَٱصۡبِرۡ N يا محمد على ما أصابك في الله من أذى مكذّبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار O كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ N على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره ما نالهم فيه من شدّة))[2].

٧- وتتأكّدُ أهمية الصبر على البلاء -باعتباره خلقًا يتحلّى به الداعية إلى الله- بكون الداعية غالبًا ما يتعرّض للابتلاء، فإن أشدّ الناس بلاءً الأنبياء -وهم حملة الدعوة إلى الله-، قال النبي r : ((أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة))[3]، وقال علي بن أبي طالب t : ((ألا إنَّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأسُ بان الجسد)). ثم رفع صوته فقال: ((ألا لا إيمان لمن لا صبر له))[4].

٨- و((لا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع

---

(١) سورة الأحقاف، آية رقم (٣٥).

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/ ١٧٦).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٤/٦٠١) رقم (٢٣٩٨)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٤٠٢).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ٤٧، ١٣/ ٢٨٣) -دون آخره- ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٨٤٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٢٤) -واللفظ له- . وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٥٣٥).

وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية، فالابتلاء كِير[١] العبد ومحك إيمانه؛ فإما أن يخرج تبرا[٢] أحمر، وإما أن يخرج زغلاً[٣] محضا، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاء حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه ويبقى ذهبا خالصا، فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه: "اللهم أعني على ذكرك وشكر وحسن عبادتك"، وكيف لا يشكر من قيض له ما يستخرج خبثه ونحاسه وصيره تبرا خالصا يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره؟، فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء، فإن قويت أثمرت الرضا والشكر))[٤].

ولا شك في أن من أشدِّ أنواع البلاء ألمًا على نفس الإنسان: أن يرمى في شرفه وعرضه، وقد وقع ذلك في حادثة الإفك، حيث كان الابتلاء عامًا وواقعًا على المجتمع المدني المؤمن بأسره، فشمل: النبي r وأصحابه y، الراعي والرعية، القريب والبعيد، الرجل والمرأة، فكان من أشد أنواع البلاء الذي أصاب المؤمنين في المدينة، ومع شدته وعِظَمه وشناعة مضمونه وخطورة نتائجه ولوازمه فقد كان ذلك المجتمع المؤمن متحلِّيًا بالصبر بجميع أنواعه وصوره الشرعية:

- فصبروا عن محارم الله من الاعتداء والظلم والتقدّم بين يدي الله ورسوله والمشاركة الآثمة في الإفك.
- وصبروا على فرائض الله من حسن الظن وكمال اليقين والرجاء في الله وترقّب فرجه وقول الحق.
- وصبروا على البلاء فلم يقع منهم تسخُّط ولا شكاية من أقدار الله ولا جزعٌ ولا

---

(١) الكير بالكسر: كير الحداد وهو المبني من الطين. وقيل: الزق الذي ينفخ به النار والمبني: الكور. النهاية في غريب الحديث والأثر (٢١٧/٤).

(٢) التِّبر هو الذهب والفِضَّة قبل أن يُضْرَبَا دنَانير ودَراهم فإذا كانا عَيْنًا وقد يُطلق التِّبر على غيرهما من المعْدِنيَّات كالنحاس والحَدِيد والرَّصَاص وأكثر اخْتِصاصه بالذهب ومنهم من يجعلُه في الذهَب أصلا وفي غيره فَرْعا ومجَازا. المصدر السابق (١٧٩/١).

(٣) أي: صَبَّهُ دُفَعًا ومَجَّهُ. لسان العرب (٣٠٤/١١).

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص (٤١٧).

صورة من صوره.

فهذه الحادثة التي ابتُلي فيها أصفياء الله وأولياؤه في ذلك الزمان تقصّ علينا من أحسن القصص والمواعظ والعِبر ما يبيّن صبرهم واحتسابهم تعبّدًا لله U:

فالمتأمل للمواقف العصيبية التي مَرَّ بها النبي r في هذه الحادثة يدرك خطورتها، ومدى تأثيرها على النفوس البشريّة؛ ((ولكن لكمال صبره وثباته ورفقه وحسن ظنه بربه وثقته به؛ وفّى مقام الصبر والثبات وحسن الظن بالله حقه، حتى جاءه الوحي بما أقر عينه وسر قلبه وعظم قدره))[١]، بل لعله من ((الحكمة الإلهية في إجراء تلك القصة في بيت النبوة: بيان صبر النبيِّ، وثباته على أحكام الشرع، وعدم مجاوزته عن الحدود))[٢].

وكذلك بلغ ألمُ البلاء بأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- مبلغًا عظيمًا، ((فهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة، تلك السن المليئة بالحساسية المرهفة والرفرفة الشفيفة، وهي الطيبة الطاهرة، تجد نفسها رغم براءتها ووضاءة ضميرها ونظافة تصوراتها ترمى في أعز ما تعتز به، ترمى في شرفها، وهي ابنة الصديق الناشئة في العش الطاهر الرفيع، وترمى في أمانتها، وهي زوج محمد بن عبد اللّه من ذروة بني هاشم، وترمى في وفائها، وهي الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير.. ثم ترمى في إيمانها، وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام، من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة، وهي زوج رسول اللّه r، ترمى وهي بريئة غارة غافلة، لا تحتاط لشيء، ولا تتوقع شيئا فلا تجد ما يبرئها إلا أن ترجو في جناب اللّه، وتترقب أن يرى رسول اللّه r رؤيا، تبرئها مما رميت به. ولكن الوحي يتلبث، لحكمة يريدها اللّه، شهرا كاملا وهي في مثل هذا العذاب))[٣]، ولك أن تتصور شدة البلاء الذي نزل على أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- ((وهي تفاجأ بالنبأ من أم مسطح، وهي مهدودة من المرض، فتعاودها الحمى وهي تقول لأمها في أسى: سبحان اللّه وقد تحدث

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٢٦٣).

(٢) فيض الباري شرح البخاري (٦/١٦٥).

(٣) في ظلال القرآن (٤/٢٤٩٨).

الناس بهذا، فتجيبها أمها: نعم))[١]، إن الألم يلفها من كل جانب، والحزن يعتصر فؤادها أسىً وحزنًا، ويقطِّع نياط قلبها، حين ترى ((نبيها الذي تؤمن به، ورجلها الذي تحبه))[٢] يقول لها: ((أما بعد، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك اللّه تعالى، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري اللّه تعالى وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب اللّه عليه))، كلٌّ هذه المشاهد التي عصفت بأم المؤمنين قابلتها جميعًا بالصبر على البلاء، فالمتأمل في مواقفها كلها في حادثة الإفك لا يجد إلا دروسًا من الصبر والثبات عند الشدائد، ولا أدلَّ على ذلك من قولها: O Z [\ ] ^ _ ` a N[٣].

و((عاش أبو بكر t وأهل بيته، وعاش صفوان بن المعطل، وعاش المسلمون جميعا؛ هذا الشهر كله في مثل هذا الجو الخانق، وفي ظل تلك الآلام الهائلة، بسبب حديث الإفك الذي نزلت فيه تلك الآيات))[٤]، فكانوا أهل صبر على ذلك الموقف الصعب، والابتلاء الشديد.

فكان الصبر على الابتلاء في حادثة الإفك لذلك المجتمع المؤمن:

- من أعظم المقومات التي يتحلّى بها ويعرف مكانتها ويتقن تطبيقها.
- كما كان أيضًا من أعظم مقوّمات ذلك المجتمع على التعامل الشرعي الصحيح مع هذه الحادثة النازلة.
- وكان كذلك من أعظم مقوّماته على التصدي لما فيها من الفتنة.

ولذلك كله كان من العِبَر العظيمة المستفادة من حادثة الإفك:

- حمد عاقبة الصبر[٥].

---

(١) المصدر السابق (٤/٢٤٩٨).

(٢) في ظلال القرآن (٤/٢٤٩٨).

(٣) سورة يوسف، آية رقم (١٨).

(٤) في ظلال القرآن (٤/٢٤٩٨).

(٥) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٤/١٤٤).

- وأنَّ عاقبة الصبر الجميل: الغبطة والعزّة في الدارين[١].

وقد تضمّن قوله تعالى: O) (* + ، - . / 0 N[٢] الإشارة إلى تلك العاقبة الحسنة الحميدة للصبر في حادثة الإفك، ففيها: أن البلاء النازل على الأولياء خير؛ لأن حقيقة الشَّر: ما زاد ضره على نفعه، والشر الذي في البلاء (وهو ضرره من الألم) قليل في الدنيا، لكن خيره (وهو الثواب) كثيرٌ في الأخرى، فنبه الله تعالى عائشة وأهلها وصفوان في هذه الآية لرجحان النفع والخير على جانب الشر[٣].

وبما كان عليه النبي r وصحابته y من الصبر على البلاء الذي اتّصفوا به في حادثة الإفك يستنير الداعية، ويستنبط الفوائد، ومنها:

١- الداعية يُدرك أهميّة التحلّي بالصبر على البلاء من خلال سير الأنبياء -عليهم السلام-؛ لأنهم أشدُّ الخلق ابتلاء، وهم أهل الدعوة إلى الله تعالى.

٢- مقوّم الصبر على البلاء يحفظ الداعية إلى الله تعالى عن الوقوع في كثير من الأخطاء، والتي قد تشوّه صورته ودعوته وكل من ينتسب إليها لدى المدعوين.

٣- الصبر على البلاء إذا تمثّله الداعية إلى الله تـعالى فاز في الاختبار الذي يبتلي الله U به أولياءه وأصفياءه، ومِنْ ثَمَّ يُثبتُ بعمله صدقَه في إيمانه بقضاء الله وقدره، وينفي عن نفسه الكذب، وينال البشارة من الله U بالجنّة؛ بسبب صبره.

٤- من أسمى معاني الصبر على البلاء لدى الداعية إلى الله تعالى ألاَّ يرى الله U منه حال ابتلائه التسخط والتشكي والتضجر.

٥- الداعية المتأمل يلاحظُ أحوال ومواقف النبي r وأهل بيته في هذه الحادثة مما عانوه من ألم البلاء، وكيف كان صبرهم عليه، فيستنتج أنَّ من الحكمة الإلهية في تقدير البلاء على خير خلقه محمد رسول الله r وزوجته الطاهرة -رضي الله عنها- أنَّ الدعاة إلى الله تعالى مُعَرَّضونَ لوقوع البلاء عليهم، ولذلك يتحلّى بمقوّم الصبر على البلاء، ويهيئ نفسه للاتصاف والتحلّي به متى ما حصل له قريب من ذلك البلاء، ويحتسب الأجر في تحمّلِ ألم البلاء.

" " "

---

(١) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤٠/٨)، فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٨١/٨).

(٢) سورة النور، آية رقم (١١).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٩٨/١٢)، أحكام القرآن (٣٢/٦).

المبحث الثاني

العفو والصفح

العفو والصفح عن الناس من أجل ضروب فعل الخير[١]، وفيهما ((من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام، ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام))[٢].

و(العَفْو) في اللغة: مَصدر الفِعلِ الثلاثيِّ المجرَّد (عَفَا)، يقال: (عَفَا، يَعْفو، عَفْوًا، وعُفُوًّا، وعَفَاءً)، فهو (عافٍ، وعَفُوٌّ)[٣]، وأصل مادته: العين والفاء والواو المُعتَلّ؛ وهما أصلان صحيحان يدلُّ أحدُهما على: تركِ الشيء، والآخر على: طَلَبِه[٤]، وقيل: بل أصل مادة الباب تدلُّ على: القَصْد لتناول الشيء. ومن ذلك: قولهم (عَفَت) الرِّيحُ الدارَ: قصدتها متناولةً آثارَها، و(عفوتُ عنه): قصدتُ إزالةَ ذنبه صارفًا عنه، و(العَفْو): التجافي عن الذَّنب[٥].

وفي الشَّرْع: التجاوُز والتجافي عن الذَّنب، وترك العِقاب عليه[٦].

و(الصَّفْح) في اللغة: مَصدر الفِعلِ الثلاثيِّ المجرَّد (صَفَحَ)، يقال: (صَفَحَ عنه، يَصْفَح، صَفْحًا)، فهو (صَفوح، وصَفَّاح)[٧]، وأصل مادته: الصاد والفاء والحاء؛ وهو أصل صحيح مُطَّرِد يدلُّ على: عَرْض وعِرَض. ومن ذلك: (صفحَ) عنه: أعرضَ عنه؛ لأنه إذا أعرضَ عنه فكأنه قد ولاه صفحته وصُفحَه -أي: عُرضه وجانِبه-[٨]، وقيل: أوليتُه مني صفحة جميلة

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٣٥٨).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٣١٩).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٦٥)، المصباح المنير (٢/٤١٩).

(٤) معجم مقاييس اللغة (٤/٥٦).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن (٢/١٠٤).

(٦) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (٢/١٠٤)، التعريفات ص (٥١٨).

(٧) المحكم والمحيط الأعظم (٣/١٦٣)، المخصص (٤/٥٤).

(٨) تهذيب اللغة (٤/٢٥٦)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/٣٨٣)، معجم مقاييس اللغة (٣/٢٩٣)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٣٤).

معرضًا عن ذنبه، أو: لقيتُ صفحته متجافيًا عنه[١].

وفي الشرع: ترك التأنيبِ والتثريبِ على الذنب، وهو أبلَغ من (العَفْو)؛ لأنَّ الإنسان قد يعفو ولا يصفَح[٢].

والعفو والصفح من أزكى الأخلاق وأعلاها وأفضلها، وقد جاء الكتاب والسنة بفضلهما والحثّ على الاتصاف بهما، ومن ذلك:

١- قوله تعالى: O " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 | 9 : ; N[٣]، فَـ((دلّتْ هذه الآية على أنَّ كظم الغيظ والعفو عن الناس من صفات أهل الجنّة، وكفى بذلك حثًّا على ذلك، ودلّتْ أيضًا على أنَّ ذلك من الإحسان الذي يحبُّ الله المتصفين به))[٤].

٢- وفي بيان عاقبة العفو والصفح وأنهما من أسباب الحصول على عفو الله ومغفرته ورحمته يقول تعالى: O d e f g h i j k N[٥]، ((لأن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده كما يحبون وينفعهم، نال محبة الله ومحبّة عباده، واستوثق له أمره)) [٦].

ويقول في الآية الواردة في حادثة الإفك: O X Y | [\ ] ^ _ ` N[٧] فذكر الله فيها: ((ترغيبًا عظيمًا لمن عفا وصفح، فقال: O [ \ ] ^ _ ` N بسبب

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (١/ ٥٨٣).

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (٥٨٣/١)، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم ص (٢٠٣)، الكليات ص (٥٦٢)، التوقيف على مهمات التعاريف ص (٤٥٧).

(٣) سورة آل عمران، آية (١٣٣، ١٣٤).

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/ ١٨١).

(٥) سورة التغابن، آية رقم (١٤).

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص(٨٦٨).

(٧) سورة النور، آية رقم (٢٢).

عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للإساءة عليكم O b c d N أي: كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم، فكيف لا يقتدي العباد بربهم في العفو والصفح عن المسيئين إليهم؟))[١].

٣- ويبيّنُ الله U المنزلة الرفيعة للاتصاف بالعفو بقوله تعالى: O2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? N[٢]، ((وإنما يعني بذلك: أنَّ الله لم يزل ذا عفو عن عباده مع قدرته على عقابهم على معصيتهم إياه، يقول: فاعفوا أنتم أيضًا -أيها الناس- عمن أتى إليكم ظلمًا، ولا تجهروا له بالسوء من القول، وإن قدرتم على الإساءة إليه، كما يعفو عنكم ربكم مع قدرته على عقابكم، وأنتم تعصونه وتخالفون أمره))[٣]، ((وقد بيّن تعالى في هذه الآية أنَّ العفو مع القدرة من صفاته تعالى وكفى بذلك حثًّا عليه))[٤].

٤- ولقد ندب النبي r أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- للعفو والصفح ببيان أنهما من أسباب الرفعة والعلوّ وكمال المنزلة والقدر، فقال: ((يا أبا بكر ثلاثٌ كلّهنَّ حق: ما من عبد ظُلم بمظلمةٍ فيغضي عنها لله U إلا أعز الله بها نصره، وما فتح رجلٌ باب عطيّةٍ يريد بها صلةً إلا زاده الله بها كثرةً، وما فتح رجلٌ باب مسألةٍ يريد بها كثرةً إلا زاده الله بها قِلّةً))[٥].

٥- وبيّنَ النبي r لأمّته عظيم فضل العفو والصفح بأنهما من أسباب دخول الجنة فقال: ((من كظم غيظًا وهو قادرٌ على أنْ ينفذه دعاه الله U على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيّره الله في أي الحور شاء))[٦].

---

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم النفسير (٤/ ٢٥).

(٢) سورة النساء، آية رقم (١٤٩).

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧/ ٦٣٢).

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/ ١٨١).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/٤٣٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٣١).

(٦) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢/ ١٤٠٠) رقم (٤١٨٦)، وحسّنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٥٣).

٦- بل ندب الله عباده إلى أن يكون العفو والصفح من سجاياهم فقال U: O c d e f g N[١]، ((أي: سجيّتهم وخلقهم وطبعهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيّتهم الانتقام من الناس))[٢].

والداعية إلى الله U أولى الناس بالتحلي بالعفو والصفح في دعوته؛ فإن الله سبحانه أمر بذلك نبيه r -وهو القدوة للمؤمنين في جميع شؤونهم- فقال تعالى: Oفَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَN[٣]، ((والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه)) [٤]، والمعنى: ((فأعرض عنهم إعراضًا جميلاً واعف عنهم عفوًا حسنًا))[٥]، ووصفه في التوراة بالعفو والصفح فقال: ((يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا وحرزا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح...))[٦].

وكان السلف الصالح -وهم سلف الدعاة- من أعظم الناس تطبيقًا لهذا المقوّم العظيم للداعية إلى الله، فذُكرَ عن الإمام أحمد بن حنبل أنّه قال بعد انجلاء فتنة خلق القرآن: ((كل مـــن ذكرني ففي حِلٍّ إلا مبتدعًا، وقد جعلتُ أبا إسحاق -يعني: المعتصم- في حل، ورأيت الله يقول: O X Y [\ ] ^ _ ` N[٧]، وأمر النبي r أبا بكر بالعفو في قصة مسطح. قال أبو عبدالله: وما ينفعك أنَّ يعذّب الله أخاك المسلم في سببك))[٨].

وحادثة الإفك -مع ما فيها من الصور المختلفة والمتعددة للعدوان والظلم والافتراء والتجنّي- امتلأت في ثناياها وآثارها اللاحقة بأعظم صُور العفو والصفح في مناسبات عديدة:

---

(١) سورة الشورى، آية رقم (٣٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٢١٠).

(٣) سورة الحجر، آية رقم (٨٥).

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/١٦٠).

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/ ١٠٦).

(٦) أخرجه البخاري (٦/١٧٠،١٦٩) رقم (٤٨٣٨).

(٧) سورة النور، آية رقم (٢٢).

(٨) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٦١).

١- فأول ما يُبدَأ به من ذلك ويُذكَر: ما ذكره الله في كتابه عن نفسه U بأن عفوه سبحانه كان من موانع إنزاله العذابَ على من خاض في الإفك؛ فَـ((يقول تعالى ذكره: O _ ` a b N أيها الخائضون في أمر عائشة، المُشيِعُون فيها الكذب والإثم، بتركه تعجيل عقوبتكم O c N إياكم لعفوه عنكم Od e f N بقبول توبتكم مما كان منكم في ذلك؛ O g h i N خضتم فيه من أمرها عاجلا في الدنيا O l m N))[١].

ويتكرر ذكر العفو الإلهي مرة أخرى فيقول U: O وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ à ٱللَّهَ â رَّحِيمٌ N، ((يقول تعالى ذكره: ولولا أن تفضَّل الله عليكم أيها الناس ورحمكم، وأن الله ذو رأفة، ذو رحمة بخلقه؛ لهلكتم فيما أفضتم فيه، وعاجلتكم من الله العقوبة))[٢].

٢- وعندما مات عبدالله بن أبي بن سلول -وهو الذي تولى كبر الإفك اختلاقًا وإشاعةً-، صلى عليه النبي r صلاة الجنازة واستغفر له، وقال: إنّه قد قيل لي: O ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / N، فأنا استغفر لهم سبعين وسبعين وسبعين، وألبسه قميصه وهو عِرَق[٣].

فكان في فعله r أعظم تطبيقٍ للعفو والصفح عن ذلك الذي كان يتربّص به حتى بلغتْ به الجرأة أنْ آذاه في زوجه وعرضه الشريف.

٣- وأمر الله سبحانه أبـــا بكر الصديق t أنْ يعفو ويصفح عن مسطح t -مع كونه ممن خاض في الإفك في حق ابنته-فقال U: O X Y [\ ] ^ _ ` N[٤] ((يقول: وليعفوا عما كان منهم إليهم من جُرم، وذلك كجرم مِسطَح إلى أبي بكر في إشاعته على ابنته عائشة ما أشاع من الإفك، O Y N يقول: وليتركوا عقوبتهم على

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/ ١٠٦).

(٢) المصدر السابق (١٧/ ٢٢٠).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٥٩٩، ٦٠٠)، من حديث الشعبي -رحمه الله-. وأصله في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما-: أخرجه البخاري (١٢٦٩، ٤٦٧٠، ٤٦٧٢)، ومسلم (٢٤٠٠).

(٤) سورة النور، آية رقم (٢٢).

ذلك بحرمانهم ما كانوا يؤتونهم قبل ذلك، ولكن ليعودوا لهم إلى مثل الذي كانوا لهم عليه من الإفضال عليهم، O] \ [^ _ ` Nيقول: ألا تحبون أن يستر الله عليكم ذنوبكم بإفضالكم عليهم، فيترك عقوبتكم عليهاO b c N لذنوب من أطاعه واتبع أمره، O d N بهم أن يعذبهم مع اتباعهم أمره وطاعتهم إياه على ما كان لهم من زلة وهفوة قد استغفروه منها، وتابوا إليه من فعلها))[١].

((وكان مسطح يتيمًا في حجر أبي بكر ينفق عليه، فحلف لا ينفع مسطحًا بنافعة أبدًا. فأنزل الله O H I J K L M N إلى قوله O] \ [^ _ ` N. فقال أبو بكر: بلى والله يا رب، إني أحب أن تغفر لي وفاضت عيناه فبكى t))[٢].

ففي الآية بيان عِظَم أهمية هذا المقوّم للداعية إلى الله؛ إذ إنها تدل على أنَّ ((الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك))[٣]، وفيها أيضًا ((تمثيلٌ وحجّةٌ، أي: كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم، فكذلك اغفروا لمن دونكم)) [٤].

٤- وكما عفا وصفح الصديق عن مسطح؛ عَفَتْ وصَفَحَتْ ابنته الصديقة عن حسان بن ثابت t ، فبينما: ((كانت في الطواف -ومعهما أم حكيم بنت خالد بن العاص[٥]، وأم حكيم بنت عبد الله بن أبي ربيعة[٦]-، فذكرتا حسان بن ثابت وسبتاه، فقالت عائشة: إني لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبه عن النبي r بلسانه...، وبرأته من أن

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/ ٢٢٣).
(٢) تاريخ الإسلام (٢/٢٧٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/٣١).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٠٨).
(٥) هي-فيما يظهر والله أعلم-: أم حكيم بنت خالد بن هشام بن العاص بن هشام بن مغيرة المخزومي، زوجة هشام بن يحيى بن هشام بن العاص، ولدَت له يحيى وعبدالرحمن وإسماعيل. ولم أقِف على ترجمة لها أكثر من هذا. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٤٧٥).
(٦) هي -فيما يظهر والله أعلم-: أم حكيم بنت عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، والدها صحابي معروف مترجم في الإصابة (٤/ ٧٩)، ولم أقِف لها على ترجمة.

يكون افترى عليها، فقالتا: ألم يقل فيك؟ فقالت: لم يقل شيئًا))[١]، وقالت -رضي الله عنها- في مناسبةٍ أخرى: ((لعل الله أنْ يجعل ذلك العذابَ العظيمَ ذهابَ بصره في الدنيا. -رحمةً ورِقّةً عليه-))[٢].

٥- ومما يُستأنَس به في هذا المقام: ما أعقبتْه حادثة الإفك من تربية النبي r الصحابة t على العفو والصفح، فرُوي أنه بعد أن انتهى أمر الإفك ببراءة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، وأطفأ الله نار الفتنة التي أوقدها المنافقون، ((مكث رسول الله r أياما، ثم أخذ بيد سعد بن معاذ في نفر فخرج يقود به حتى دخل به على سعد بن عبادة ومن معه، فتحدثا عنده ساعة، وقرّب سعد بن عبادة طعاما، فأصاب منه رسول الله r وسعد بن معاذ ومن معه، ثم خرج رسول الله r ، فمكث أياما، ثم أخذ بيد سعد بن عبادة، ونفر معه فانطلق به حتى دخل مترل سعد بن معاذ، فتحدثا ساعة، وقرّب سعد بن معاذ طعاما، فأصاب رسول الله r وسعد بن عبادة ومن معهم، ثم خرج رسول الله r . وإنما فعل ذلك رسول الله r لأن يذهب ما كان في أنفسهم من ذلك القول الذي تقاولا))[٣].

لقد أفادت حادثة الإفك أن العفو والصفح من أعظم مقوّمات الداعية إلى الله، فقد دلت على أهميّة الاتّصاف والتحلّي بالعفو والصفح عن المسيء، وأن من أحسن إلى من أساء إليه أو صفح عنه وقعت له المغفرة بذلك من الذنوب[٤].

---

(١) أُسد الغابة (٢/ ٦).

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره (٥٠٤٤/٨).

(٣) ذكره الواقدي في المغازي (٢/ ٤٣٥) بلا إسنادٍ؛ وإنما صدَّره بقوله: "قالوا" ! والواقدي متروك! ولم أقف عليه عند غيره. وإن كان إسنادُه هو نفسه إسناد قصة الإفك (٢/ ٤٢٦)؛ فالإسناد من فوق الواقدي ضعيف أيضًا.

(٤) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١١٨/١٧)، شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤٢/٨)، فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٨١/٨).

كما أنه يُستفاد منها الدروس والعبر الآتية:

١ - يُدرِكُ الداعية إلى الله تعالى أهميّة العفو؛ لعلمه أنَّ الله U مُتّصِفٌ به، ويحبّه، ويجازي عليه بالعطاء العظيم.

٢ - مِنْ أهمِّ الصفات التي تُحبّبُ المدعوينَ في الداعية: اتصافه بالعفو والصفح.

٣ - بما أنه لا نجاح للداعية في دعوته إلا من خلال سلوك نهج النبي r في دعوته، فإنه يجب عليه التَحّلي بالعفو والصفح.

٤ - العفو والصفح عند المقدرة على الاقتصاص من الظالم المتعمّد أو المخطئ الجاهل من أعلى مقومات الداعية.

٥ - يستشعر الداعية تلك المواقف العظيمة التي تحلّى بها كلٌّ من النبي r ، وزوجته أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، وأبيها أبي بكر الصديق t ؛ مع الخائضين في الإفك، والتي تجسّدت فيها أعلى معاني العفو والصفح، فحين يواجه الداعيةُ إلى الله تعالى ابتلاءات من المدعوين أو الأعداء أو غيرهم -ومنها ما قد ينال من شرفه وعرضه- فإنّه يتحلّى بالعفو والصفح، ويُقَدّمُ مراد الله U على مراده، ويحتسب ذلك طاعة لله U؛ لأنّه يعلم أنَّ عفوه وصفحه عنهم موجبٌ لمغفرة الله U له منّةً وتكرّمًا منه سبحانه.

" " "

المبحث الثالث

حسن الظنِّ بالله

((حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل ظنُّه بربه أن يجازيه على أعماله، ويثيبه عليها، ويتقبلها منه، فالذي حمله على العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه حسن عمله))[١].

و(الظَّنُّ) في اللغة: مَصدر الفِعلِ الثلاثيِّ المضعَّف (ظنَّ)، وأصل مادته: الظاء والنُّون؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على معنيَيْن مختلِفَين: يقين وشَكّ[٢]، إلا أنه ليس بيَقين عِيانٍ؛ إنما هو يَقين تدبُّر، فأما يقين العِيان فلا يُقال فيه إلا (عَلِمَ)[٣].

فمن الأصل الأول: يقال: (ظننتُ) ظنًّا: أيقنتُ، و(مَظِنَّة) الشيء: مَعْلَمه ومكانه ومألفه الذي يُظَنُّ كونه فيه، والجمع: مظانّ[٤].

ومن الأصل الثاني: (ظننتُ) الشيء: إذا لم تتيقَّنه، و(الظِّنَّة): التُّهمة[٥].

فَـ(الظَنُّ): اسمٌ لما يحصل عَن أمارة، ومتى قويَت أدَّت إلى العِلْم، ومتى ضعُفَت جدًّا لم يتجاوز حد التوهُّم[٦].

ومعنى (حُسْن الظَّنِّ بالله تعالى): أن يَظُنَّ أن الله تعالى يرحمه ويعفو عنه، ويكون في حالة الصحة خائفًا راجيًا، ويكونان سواء، وقيل: يكون الخوف أرجح. فإذا دَنَت أمارات

---

(١) الداء والدواء ص (٤٨).

(٢) تهذيب اللغة (٣٦٢/١٤)، معجم مقاييس اللغة (٣/ ٤٦٢)، المحكم والمحيط الأعظم (٨/١٠).

(٣) المحكم والمحيط الأعظم (٨/١٠).

(٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢١٦١/٢)، معجم مقاييس اللغة (٤٦٢/٣)، المصباح المنير (٣٨٦/٢).

(٥) العين (١٥١/٨)، تهذيب اللغة (٣٦٣/١٤)، المحيط في اللغة (١٢/١٠)، معجم مقاييس اللغة (٤٦٢/٣)، أساس البلاغة (٦٢٨/١).

(٦) مفردات ألفاظ القرآن (٥٤/٢).

الموت غلَّب الرجاءَ أو محَّضه[(١)].

والأشمل من ذلك: أنَّ معناه: ظنُّ الإجابة عند الدُّعاء، وظنُّ القبول عند التوبة، وظنُّ المغفرة عند الاستغفار، وظنُّ قَبول الأعمال عند فعلِها على شروطها؛ تمسُّكًا بصادِق وَعْده سبحانه وجزيل فضلِه[(٢)].

وهذا المعنى العظيم جاءت الآيات والأحاديث في بيان فضله وأهميته، ومن ذلك:

١- أن الله جعله من صفات المؤمنين وأهل الجنة، فقال U: O ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ N [(٣)]، وإنما كان ذلك ((لأنهم لم يعاينوا، فكان ظنهم يقيناً، وليس ظنًا في شك))[(٤)]، وقال U في شأن المؤمن: O r s t u v N ، وهذه نتيجة منطقية؛ لأنَّ ((المؤمن أحسنَ الظن بربه فأحسن العمل، وإنَّ المنافق أساء الظنَّ بربه فأساء العمل))[(٥)].

٢- وثبت في الصحيحين عن النبي r أنه قال: ((يقول الله: أنا عندَ ظنِّ عبدِي بي))[(٦)]، أي: ((بالغفران له إذا استغفر، والقبول إذا تاب، والإجابة إذا دعا، والكفاية إذا طلب، وقيل: المراد به الرجاء وتأميل العفو))[(٧)].

٣- وعن النبي r قال: ((لا يموتن أحدكم إلاّ وهو حسن الظن بالله))[(٨)].

كما تظهر أهمية حسن الظن بالله مما يشتمل عليه أو ينتج عنه من المعاني الإيمانية العظيمة، وكذلك مما له من عواقب حميدة في الدارين، ومن ذلك:

---

(١) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/٢١٠)، المجموع شرح المهذَّب (٥/١٠٨)، فتح الباري شرح صحيح البخاري (١١/٣٠١)، فيض القدير (٢/٤٤٦، ٦/٤٥٥)، عون المعبود (٨/٢٦٥)، تحفة الأحوذي (٧/٥٣)(١٠/٥٠).

(٢) المُفهِم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ٥).

(٣) سورة البقرة، آية رقم (٤٦).

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١/ ٦٢٥).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٢٧٠).

(٦) أخرجه البخاري (٩/١٤٨) رقم (٧٤٠٥)، ومسلم (٨/٦٢) رقم (٦٩٨١).

(٧) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/٢).

(٨) أخرجه مسلم (٨/١٦٥) رقم (٧٤١٠).

١ - أن حسن ظن المؤمنين بالله هو ((الذي خفف عليهم العبادات، وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونفّس عنهم الكربات، وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات))[1].

٢ - أنه ((كلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه؛ فإن الله لا يخيب أمله فيه ألبتة، فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل))[2].

٣ - أنه يورث المؤمن عظيم التوكل والرجاء بالله U، ((فعلى قدر حسن ظنه بربه ورجائه له يكون توكله عليه، ولذلك فسَّر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله، والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه؛ إذ لا يُتصوَّر التوكل على من ساء الظنُّ به، ولا توكُّلَ على من لا ترجوه))[3].

٤ - أنه ((لا ريب أنَّ حسن الظنِّ إنما يكون مع الإحسان، فإنَّ المُحسِنَ حَسَنُ الظنِّ بربّه أنْ يجازيه على إحسانه ولا يُخلفَ وعده، ويقبل توبته))[4].

ومن أعظم مواقف الصحابة التي ظهرت فيها عاقبة حسن الظن بالله: قصّة الصحابة الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك، فإنهم لّما اشتدَّ بهم البلاء، ورأوا ابتعاد المجتمع المؤمن من الصحابة عنهم طاعة لله U؛ أحسنوا الظنّ بربهم سبحانه، فأثنى الله عليهم فقال: O / O 1 2 3 4 5 6 N[5]، فـ((أيقنوا بقلوبهم أن لا شيء لهم يلجأون إليه مما نزل بهم من أمر الله من البلاء بتخلفهم خِلافَ رسول الله r، ينجيهم من كربه، ولا مما يحذرون من عذاب الله، إلا الله))[6]، فأنزل الله عليهم رحمته فتاب عليهم.

وهذه الفضائل والمزايا الرفيعة لحسن الظن بالله تجعله من أهم المقومات التي يجب أن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص(٥١).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٤٧١/١).

(٣) المصدر السابق (١٢١/٢).

(٤) الداء والدواء ص (٤٢).

(٥) سورة التوبة، آية رقم (١١٨).

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/ ٥٤).

يتحلى بها الداعية.

وفي حادثة الإفك اشتدّ البلاء بالبيت النبوي على صاحبه أفضل صلاة وأزكى تسليم، وببيت أبي بكر الصديق t ، وفي كلا البيتين الطاهرين عانت الزوجة والبنت عائشة -رضي الله عنها- أشدّ الألم والمعاناة في مواقف متعددة متلاحقة متتابعة، وذلك: ((لتتم العبوديّة المرادة من الصديقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم، ولتشتدَّ الفاقة والرغبة منها ومن أبويها، والافتقار إلى الله، والذل له، وحسنُ الظنِّ به))[(١)]، حتى جاء ذلك الموقف العصيب الذي سألها فيه النبي r عما يتكلّمُ الناس به، والأبوان في غاية الحزن؛ لما يريان من الأسى الذي اعترى ابنتهما، حتى إنَّ أبا بكر الصديق t ليقول: ((فجعلتُ أنظرُ إلى رسول الله r فأخشى أنْ يترل من السماء ما لا مرد له، وأنظرُ إلى وجه عائشة فإذا هو منبق فيطمعني ذلك منها))[(٢)]، وأم المؤمنين في ذلك الموقف العصيب لا تَجدُ لها ملاذًا ومُلتجئًا إلا الله سبحانه، فيتعلّق قلبها وروحها به، ولا تظن به إلا أنه سينصرها ويظهر براءها ولا يظلمها، فتقول: ((ثمَّ تحولت فاضطجعتُ على فراشي، وأنا والله حينئذٍ أعلم أنّيَّ بريئة، وأنَّ الله مبرئي ببراءتي))، وفي رواية: ((فأما أنا حين رأيتُ من ذلك ما رأيت -يعني: عند رؤية أمارات نزول الوحي على رسول الله r - فوالله ما فزعتُ ولا باليتُ (وفي رواية الواقدي: فوالله لقد فرحتُ به)، قد عرفتُ أني بريئة وأن الله -عز وجل- غير ظالمي))[(٣)]، وفي رواية: ((فأما أنا حين رأيتُ من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليتُ، قد عرفت أني بريئة، وأن الله -عز وجل- غير ظالمي))[(٤)].

كما كانت في الحادثة صورة أخرى من صور حسن الظن بالله، وهي حسن ظن

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٢٦٢).

(٢) سبق تخريجه ص (١١٩).

(٣) أخرجه محمد بن إسحاق في سيرته (٢/ ٣٠٢ - ابن هشام) -ومن طريقه: الطبري في تاريخه (٢/ ١١٤)- ، والواقدي في المغازي (٢/ ٤٣٣)، من حديث عبَّاد بن عبدالله بن الزبير عن عائشة -رضي الله عنها-، ومن حديث غيره. وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في تخريج فقه السيرة للغزالي (ص ٢٢٤).

(٤) سبق تخريجه ص (١١٨).

الصحابة بأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، فمن حسن الظن بالله: أن نظنَّ أنه سبحانه وتعالى لا يُقَدِّر هذا ولا يرضاه لزوجة نبيه ومصطفاه r ، وفي هذا إحسان ظنٍّ بأمِّنا -رضي الله عنها- أيضًا. فالواجب على كلِّ مسلمٍ: وذلك أنه من حسن الظنِّ بالله U ((حُسنُ الظنِّ بالمسلمين، لا سيّما بأهل الفضل، وأنّه لا يلتفت إلى افتراء مفترٍ عليهم، كما اعتقده جمهور المسلمين في شأن عائشة))[١]، كما قال تعالى: O B C D E F G H I J K L M N[٢].

وفي المقابل عاتب الله U الذين حسبوا الخوض في الإفك أمرًا هينًا؛ لكونكم أيها الخائضون ((تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيرًا سهلاً ولو لم تكن زوجة النبي r لما كان هينا، فكيف وهي زوجة النبي الأمي، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل! الله يغار لهذا، وهو سبحانه وتعالى، لا يقدر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك، حاشا وكلا ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة؟! ولهذا قال تعالى: O y z { | } ~ N[٣]))[٤].

وثمة صورة ثالثة أيضًا، هي أن جُلَّ الصحابة الأطهار y كــانوا يــحسنون الظــنَّ بالله U من خلال تنزيهه سبحانه عن أنْ يُقَدّر على رسوله وخيرته من خلقه وزوجه الطاهرة المعروفة بالخير والشرف ذلك الإفك المبين الذي افتراه المنافقون، كما قال تعالى: Oوَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن © بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ N[٥].

لقد كان في هذه الصور فوائد ودروس وعِبَر لا يستغني عنها الداعية في دعوته، ومنها:

١- ينبغي للداعية أن يجعل حسن الظن بالله رفيقه وأنيسه، فيصطحبه في كل أحواله

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/٢٨٩).

(٢) سورة النور، آية رقم (١٢).

(٣) سورة النور، آية رقم (١٥).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم (٦/٢٨).

(٥) سورة النور، آية رقم (١٦).

وشؤونه في دعوته.

٢ - إن حسن الظن بالله من أعظم ما ينجي الداعية إلى الله تعالى عند اشتداد البلاء ونزول المصائب عليه.

٣ - لكي يحصل الداعيةُ إلى الله تعالى على حُسن الظنِّ بالله U يلزمه إحسان العمل، ومنه: الاهتمام بالأعمال القلبيّة كالتوكّل والإنابة والإخلاص.

٤ - من إحسان الظنِّ بالله U إحسان الظنِّ بالمؤمنين، والداعية يُدرك أهميّة ذلك في مجاله الدعوي.

٥ - الداعية إلى الله تعالى وهو يقرأ تلك المواقف المؤلمة بأحداثها، والمفيدة بنتائجها، والتي تألّمَ منها البيتان الطاهران (بيتُ الرسول r وبيتُ أبي بكر الصديق t)، ليدركُ أهميّة حُسنِ الظنِّ بالله U وآثاره الحسنة، فإذا قَدّرَ الله U عليه موقفًا فيه بلاء فإنّه يحسنُ الظنَّ بربه، ويتذكّر حينها كل عملٍ صالح قام به لله U، ويطْمئن حينها أنَّ ربّه لن يخذله، وأنّه ناصره ومؤيّده.

" " "

المبحث الرابع

الرجاء بالله

الرجاء بالله من أجل المنازل وأعلاها وأشرفها، وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله[١].

و(الرَّجاء) في اللغة: مَصدر الفِعْلِ الثلاثيِّ المجرَّد (رَجَا)، يقال: (رجا، يرجو، رَجْوًا، ورَجَاءً)، فهو (راجٍ)، والشيء (مَرْجُوٌّ)[٢]، وأصل مادته: الراء والجيم والألف المُعتَلّ؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على: الأَمَل[٣]، يُقال: (رجوتُ) الأمر، أرجوهُ، رجاءً، و(الرَّجاء): التوقُّع والأَمَل والإرادة[٤]، وهو نقيض اليأس[٥]، وقد يُستعمَل بمعنى: الخوف -ومنه قوله تعالى: OO N54 3 21[٦]؛ أي: تخافون الله عظمةً-[٧]؛ فالرَّجاء والخوف متلازِمان[٨]؛ لأن الرَّاجي يخاف أنه لا يُدرِك ما يترجَّاه[٩].

و(الرَّجاء) في الاصطلاح قريبٌ من معناه اللُّغوي؛ فهو: «ظنٌّ يقتضي حصول ما فيه

---

(١) انظر: مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٣٥).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/٢٣٥٣)، المخصص (١/٢٨٢)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٢٠٧)، القاموس المحيط ص (١٦٦٠)، المعجم الوسيط (١/٣٣٣).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٢/٤٩٤).

(٤) معجم مقاييس اللغة (٢/٤٩٤)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٢٠٧)، المصباح المنير (١/٢٢١).

(٥) العين (٦/١٧٦)، القاموس المحيط ص (١٦٦٠).

(٦) سورة نوح، آية رقم (١٣).

(٧) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/٢٣٥٣)، مفردات ألفاظ القرآن (١/٣٨٩)، المصباح المنير (١/٢٢١).

(٨) مفردات ألفاظ القرآن (١/٣٨٩).

(٩) معجم الفروق اللغوية للعسكري ص (٧٣)، المصباح المنير (١/٢٢١).

مَسَرَّة))[١]، وقيل: ((تعلُّق القَلْب بحصول محبوب في المستقبَل))[٢]، وقيل: ((هو الظنُّ بوقوع الخير الذي يعتري صاحبه الشكّ فيه، إلا أن ظنَّه فيه أغلب، وليس هو من قبيل العلم))[٣]، وقيل: ((الطَّمَع فيما يمكن حصوله))[٤]، ومما يجمع هذه التعريفات: تعلّق القلب بحصول محبوب مستقبلاً، بحيث يترقّب الانتفاع بما تقدّم له سببٌ ما، فيظنُّ حصول ما فيه مسرّةٌ[٥].

والرجاء بالله من أعظم الأعمال القلبية التي أمر الله بها ومدح من اتصف بها، ومما يبيّن أهميته وفضله:

١- أن الله جعله من الصفات اللازمة لمن أراد حُسْن الاقتداء بالنبي r ، فقال تعالى: O لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا N[٦].

٢- وجعله الله من أسباب المغفرة الواسعة منه سبحانه، ففي الحديث القدسي فيما يرويه النبي r عن ربه U: ((يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي))[٧].

٣- وأخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أهم يتقربون بعبادهم إياهم إلى الله تعالى، فوصفهم بأفضل صفاهم، وأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماهم، ومنها الرجاء[٨]، فقال تعالى: O قُلِ ٱدْعُواْ © زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا ´ µ ¶ ¸ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (٣٨٩/١).

(٢) التعريفات ص (١٤٦).

(٣) معجم الفروق اللغوية ص (٢٤٨).

(٤) الكليات ص (٤٦٨).

(٥) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف (٣٥٦/١).

(٦) سورة الأحزاب، آية رقم (٢١).

(٧) قطعة من حديث قُدُسيٍّ، أخرجه الترمذيُّ (٥٤٨/٥) رقم (٣٥٤٠)، من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-. وحسَّنه لغيرِه العلامةُ الألبانيُّ -رحمه الله- في السلسلة الصحيحة (١٢٦/١) رقم (١٢٧)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (١٢٤/٢) رقم (١٦١٦) و (١٧٥/٣) رقم (٣٣٨٢).

(٨) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٤١/٢).

عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا N[(١)].

٤- وأثنى الله U على عباده المؤمنين المصلّين المتصدّقين بهذه الصفة الجليلة فقال U: Oيَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ N[(٢)]، ((أي: يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله))[(٣)].

٥- ومما يؤكّدُ فضله كونه حُلّةُ الصالحين، فقد سألَ النبيُ r بلالاً عند صلاة الفجر فقال له: ((يا بلال، حدّثني بأرجى عمل عملته في الإسلام منفعة؛ فإنّي سمعت الليلة خَشْفَ[(٤)] نعليك بين يديّ في الجنّة)). قال: ما عملت عملا أرجى عندي من أنّي لم أتطهّر طهورا في ساعة ليل أو نهار إلا صلّيت بذلك الطّهور ما كتب لي أن أصلّي[(٥)].

٦- أن في الرجاء بالله تعبُّدًا عظيمًا بأسماء الله، فالرجاء بالله له ((تعلّق باللّه من حيث اسمه: المحسن البَرّ، فذلك التّعلّق والتّعبّد بهذا الاسم والمعرفة باللّه هو الذي أوجب للعبد الرّجاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري، فقوّة الرّجاء على حسب قوّة المعرفة باللّه وأسمائه وصفاته وغلبة رحمته غضبه))[(٦)].

٧- أن للرجاء بالله من الآثار العظيمة في العمل والتعبّد الشيء العظيم، فَـ((لولا روح الرّجاء لعطّلت عبوديّة القلب والجوارح، وهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم اللّه كثيرا، بل لولا روح الرّجاء لما تحرّكت الجوارح بالطّاعة، ولولا ريحه الطّيّبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات))[(٧)].

٨- أنه لا يمكن للعبد أن يعبد الله العبادة الصحيحة المشروعة الحَقّة إلا بالرجاء في الله مع محبته سبحانه والخوف منه، فَـ((الرّجاء والخوف جناحان بهما يطير المقرّبون إلى

(١) سورة الإسراء، الآيتان رقم (٥٦-٥٧).
(٢) سورة فاطر، آية رقم (٢٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/٥٤٥).
(٤) الخَشْفة بالسكون: الحِسُّ والحرَكة. النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٣٤).
(٥) أخرجه مسلم (٧/١٤٦) رقم (٦٤٧٨).
(٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٤٢).
(٧) المصدر السابق (٢/٤٢).

كلّ مقام محمود، ومطيّتان هما يقطع من طرق الآخرة كلّ عقبة كئود))[١]، ((فتأمّل هذا الموضع حقّ التّأمّل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبوديّة والمحبّة، فكلّ محبّة مصحوبة بالخوف والرّجاء، وعلى قدر تمكّنها من قلب المحبّ يشتدّ خوفه ورجاؤه))[٢].

والرجاء بجوانبه الثلاثة وهي: تعلّق القلب بحصول محبوب مستقبلاً، وترقّب الانتفاع بما تقدّم له سببٌ ما، وظنُّ حصول ما فيه مسّرةٌ؛ تمثلته أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- حين قالت: ((ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله r في النوم رؤيا يبرئني الله U بها))، وفي رواية أخرى قالت: ((فأما أنا حين رأيتُ من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليتُ، قد عرفت أني بريئة، وأن الله -عز وجل- غير ظالمي))[٣]، وفي رواية قالت: ((وأنا-والله- حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي))، ففي هذا الموقف العظيم:

- كان قلبها متعلّقًا بحصول ما تحبّه فيما يُستقبَل ويأتي من الأحداث، وكان هذا المحبوب هو أن يترل الله براءهّا ويظهره على رؤوس الأشهاد وبين كافة الناس.
- وإنما كانت تترقّب ذلك وتأمله وترجوه لكونها تعلم من نفسها وجود ما يقتضي ذلك ويكون سببًا له، وهو أنها لم ترتكب جرمًا، بل لم يخطر في بالها شيء مما أُفِك فيها، فقد كانت ((بريئة غارة غافلة، لا تحتاط لشيء، ولا تتوقع شيئا، فلا تجد ما يبرئها إلا أن ترجو في جناب اللّه، وتترقب أن يرى رسول اللّه رؤيا، تبرئها مما رميت به))[٤]. كما أنها تعلم يقينًا وتؤمن بأن الله لا يظلمها وهو العدل سبحانه.
- فغلب على ظنها حصول ما فيه مسرّةٌ وفَرَج لها من نزول براءهّا برؤيا يريها اللهُ نبيَّه r .

فتحقّقت فيها -رضي الله عنها- هذه العبادة العظيمة التي هي من أعلى مقامات الأولياء والأصفياء، وكان ذلك من الحِكَم العظيمة المستفادة من هذه الحادثة، وهي: أن

(١) إحياء علوم الدين (٤/١٤٢).
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٤٣).
(٣) سبق تخريجه (١١٨).
(٤) في ظلال القرآن (٤/٢٤٩٨).

((ينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأس من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق))[١]، فيتمحّض رجاؤها بالله تعالى.

((ولهذا وَفّتْ هذا المقام حقه لما قال لها أبواها: قومي إليه -وقد أَنزل الله عليه براءها-، فقالت: والله لا أَقوم إليه ولا أَحمد إلا الله، هو الذي أَنزل براءتي))[٢]؛ فإن من علامات اتصاف العبد بالرجاء حقًا وصدقًا: ((أن يكون إذا أحاط به الإحسان أُلْهِمَ الشكر راجيا لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة وتمام عفوه عنه في الآخرة))[٣]، وهذا ما أكدته بقولها -رضي الله عنها-: ((ولا أحمدُ إلا الله هو الذي أنزل براءتي)).

وتحقّقت في الصديق t صورة عظيمة أخرى من صور الرجاء، وهي الرجاء بالله من خلال رجاء ثوابه ومغفرته ورحمته، فإنه t لما قال بعد أن أنزل الله براءة ابنته: ((والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال))، وعَلِمَ بالآيات التي نَزَلتْ على النبي r وما فيها من ترغيب من ربّه U له بمغفرة ذنبه إذا عفا وغفر عن مسطح، وفيها: [O \ ] ^ _ ` a b c d N[٤]؛ بادر إلى امتثال أمر ربه، وقدّم طاعته على رغبة نفسه؛ من باب عظيم رجائه في ربه تبارك وتعالى، وقال: ((بلى والله، إنا لنحب أنْ يغفر الله لنا))[٥]، ولذا قال بعض العلماء: ((هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى))[٦].

لقد كان في موقفي أم المؤمنين الصدِّيقة وموقف أبيها الصدِّيق ما يجب أن يتمعّن فيه الداعية إلى الله، فيستفيد منه دروسًا وعبرًا تكون له نعم المعين في دعوته، ومنها:

١- الرجاء بالله U من أهم العبادات القلّبية التي يجب على الداعية إلى الله U التحلي بها.

٢- الرجاء بالله له صور، منها: رجاء مغفرة الله وعفوه ورحمته، ورجاء نصره

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٢٦٢).

(٢) المصدر السابق (٣/٢٦٢).

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٣٦).

(٤) سورة النور، آية رقم (٢٢).

(٥) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/٢٠٩).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٠٨).

ورجاء تحقيق ما يأمله العبد في أمور حياته كافّة، ورجاء الثواب على العمل الصالح، وكل هذه الصور يجب على الداعية أن يتحلى بها.

٣- لا يكون الرجاء بالله صحيحًا إلا إذا اقترن بالخوف منه سبحانه، وذلك مما يجعل الداعية حريصًا أشدَّ الحرص على فعل الطاعات وترك المعاصي، فيعمل العمل وهو يرجو نصر الله ورحمته ومغفرته، ويخاف في الوقت نفسه ألا يُقبَل عمله أو ألا يحقّق الله له رجاءه بسببٍ منه من فعل معصية أو ترك طاعة.

٤- الرجاء بالله يكون في جميع الأحوال، لكنه عند اشتداد البلوى يعظُم ويقوى، وهذا من سمات الداعية المسدد بنور القرآن والسنّة.

٥- من دلائل وجـــود صفة الرجاء في الداعية: أنّه إذا أحاط به الإحسان أُلْهِمَ الشكر لله U، فليتأمّل الداعية في نفسه وحاله إذا حقّق الله له رجاءه من نصرٍ أو تحقُّق مرغوب أو دخول مدعوٍّ في الدين أو رجوعه إلى الحق؛ هل هو:

- ممن يشكر الله وحده على ذلك: فيكون ممن حقّق الرجاء وأتى به صحيحًا، فيحمد الله على هذه النعمة أيضًا ويرجو مزيد فضله وتتابع توفيقه.
- أو ينسب الفضل إلى نفسه أو ينسى شكر ربه: فيكون رجاؤه ناقصًا أو زائفًا، وهذا من أعظم المصائب والمعايب، فإما أن يتوب إلى الله ويصلح من حاله، أو يكون على خطرٍ في نفسه وفي صدق دعوته وقبول الناس لها.

٦- من الصفات التي يتصف بها أهل الرجاء الصحيح بالله U، ويمتحن بها الداعية صدقه هو في الرجاء بالله: تقديم مراد الله ومراد رسوله r على مراد النفس رجاءَ ما عنده سبحانه من الثواب.

٧- الداعية إلى الله تعالى قد يتعرّض لأمرٍ يدْهمُهُ، إما بافتراءٍ هو منه بريء، أو موقفٍ لم يحسب له حسابًا، ويجدُ نفسه تحت أصابع الاتهام من المجتمع الذي يحيطُ به، فليعلم أنه لا ملجأ له من الله إلا إليه، فليتّخذ من الرجاء بالله مؤنِسًا، فيخلِص في رجائه بربه، ويمحِّضه، ويقطع رجاءه من أحد إلا من الله، ويترقّب منه سبحانه النصر والفرج، ولا ينقطع عن ذلك طرفة عين، فإنه يوشك -بإذن الله- أن يرى من الله ما تقرّ به عينه وتطمئن له نفسه.

" " "

المبحث الخامس

التواضع لله

((في التواضع مصلحة الدين والدنيا؛ فإن الناس لو استعملوه في الدنيا لزالت بينهم الشحناء، ولاستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة))[(١)].

و(التَّواضُع) في اللغة: مَصدر الفِعْلِ الثلاثيِّ المَزيد (تَواضَعَ)، وأصل مادتـه: الـواو والضاد والعين؛ وهو أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الخَفْض للشيء وحَطِّه -وهو أعمُّ من الحَـطِّ-، يُقال: (وَضَعْتُه) بالأرض وضعًا، و(وضَعَت) المرأة ولـدَها[(٢)]، و(وَضَـعتُ) عنـه دَينَـه: أسقطته[(٣)]، و(تواضعَ) الرَّجلُ لله: خشعَ وذلَّ[(٤)]، و(التَّواضُع): التذَلُّل[(٥)].

وفي الشَّرْع: ((الاستسلام للحقِّ، وترك الاعتراض على الحكم))[(٦)]، وقيـل: ((تـذلُّل القلوب لعلام الغيوب، بالتسليم لمجاري أحكام الحقِّ))[(٧)]، وقيل: ((إظهار التنزُّل عن المرتبة لمن يُراد تعظيمه))[(٨)]. فيمكننا -على هذا- تعريف (التَّواضُع لله تعالى) بما يشمل جانبين:

الأول- خُشُوع القلب لله تعالى، وإظهار التذلُّل له سبحانه، والاستسلام والانقيـاد المُطلَق لأوامره تعالى، وتَرْك الاعتراض على أقدارِه.

والثاني- إظهار خفضِ الجناح ولين الجانب لمن هو مثله أو دونه من الخلق، وإظهـار التنزل عن المرتبة لمن يراد تعظيمه، وتعظيم من هو فوقه.

والتواضع من أرفع الأخلاق التي يحبها الله، وله في حياة المسلم الدينية والدنيوية

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٣٤١/١١).

(٢) معجم مقاييس اللغة (١١٧/٦)، مفردات ألفاظ القرآن (٥٢٠/٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (١٩٨/٥)، المصباح المنير (٦٦٢/٢).

(٤) المحكم والمحيط الأعظم (٢٩٥/٢)، المصباح المنير (٦٦٣/٢).

(٥) العين (١٩٦/٢)، تهذيب اللغة (٧٤/٣)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١٣٠١/٣).

(٦) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم ص (٢١٧).

(٧) التوقيف على مهمات التعاريف ص (٢١٢)، وانظر: معجم مقاليد العلوم ص (٢١٧).

(٨) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٣٧٦/٣).

والأخروية أهمية بالغة، ومما يبين ذلك:

١- ((أنَّ الجنة دار المتواضعين الخاشعين، لا دار المتكبرين الجبارين، سواء كانوا أغنياء أو فقراء))[١]، قال الله U: O تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ N[٢]، فربنا تبارك وتعالى ((يخبر أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علوا في الأرض، أي: ترفعا على خلق الله وتعاظما عليهم وتجبرا بهم، ولا فسادا فيهم))[٣].

٢- أنّ التواضع لله U يُعْليْ قَدْر العبد ويزيد من درجته عند ربه وعند الخلق، قال النبي r: ((من تواضع لله رفعه))[٤].

٣- أن التواضع مطلبٌ عظيم من مطالب الدين، ومقصدٌ هامٌّ يتعيّن الوصول إلى تحقّقه بين المسلمين، كما في قول النبي r: ((إن اللّه أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد))[٥].

٤- وقد أمر الله به إمام الدعاة وقائدهم أفضل خلقه وأكرم رسله محمدًا r في قــوله U: Oوَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ N[٦]، ((أي: أَلِنْ جانبك لمن آمن بك وتواضع لهم))[٧].

٥- وهو من وصايا الأولياء والصالحين وأخلاقهم، فقال تعالى حاكيًا وصية لقمان لابنه: O وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ N[٨]، أي: ((لا تتكبر فتحقِّر الناس وتعرض عنهم بوجهك إذا

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/١٢٩).

(٢) سورة القصص، آية رقم (٨٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/٢٥٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/٤٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣٢٨)، وفي صحيح الجامع (٦١٦٢).

(٥) أخرجه مسلم (٨/١٦٠) رقم (٧٤٨٩).

(٦) سورة الحجر، آية رقم (٨٨).

(٧) الجامع لأحكام القرآن (١٠/٥٧).

(٨) سورة لقمان، آية رقم (١٨).

كلموك))[١].

٦- وامتدح النبي r من اتصف به، وجعله من علامات إخلاصه وصدقه، فقال: ((طوبى[٢] لعبد آخِذٍ بعنان[٣] فرسه في سبيل الله، أشعث[٤] رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة[٥] كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع))[٦]، فَـ((فيه ترك حب الرياسة والشهرة، وفضل الخمول ولزوم التواضع لله))[٧].

وعلى هذا الخلق الرفيع كان صحابة رسول الله r ، ومن أخبارهم في ذلك: أن أبا بكر الصديق t -قبل أن يتولى الخلافة- كان ((يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا مَنَايِح[٨] دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهنَّ))[٩].

وكما كان الصدِّيق متواضعًا كانت كذلك ابنته الصِّدِّيقة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- في حادثة الإفك، فإننا عند التأملِ في كلامها وهي تقول: ((ولشأني كان أحقر في نفسي مِن أن يتكلم الله U فيَّ بأمر يتلى))، وفي رواية: ((وايم الله لإنْ كنت أحقرَ في نفسي

---

(١) معالم التتريل (٦/٢٨٩).

(٢) طُوبَى: اسمُ الجنَّة. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/١٤١).

(٣) العنان: اللجام الذي تُمسَك به الدابة. انظر لسان العرب (١٣/٢٩٠).

(٤) أشعث: أي لا يُحْتَفَلُ به لحقارته. النهاية في غريب الحديث والأثر (١/١٨).

(٥) السَّاقةُ: جمعُ سائق وهم الذين يَسُوقون جَيش الغُزَاة ويكونون من ورَائه يحفظُونه. المصدر السابق (٢/٤٢٤).

(٦) أخرجه البخاري (٣/١٠٥٧) رقم (٢٧٣٠).

(٧) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/٨٤).

(٨) المنحة: بكسر الميم والمنِيحة بفتحها مع زيادة الياء هي العطية، وتكون في الحيوان وفي الثمار وغيرهما. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٧/ ١٠٦).

(٩) طبقات ابن سعد (٣/١٨٦).

وأصغر شأنًا من أنْ ينزل فيَّ قرآنًا يقرؤه الناس في صلاتهم))[١]؛ نجد ذلك المعنى العظيم من التواضع قد امتزج بقلبها وروحها، فظهر فيها عُمْقُ التواضع لله تبارك وتعالى بما يتضمنه من: تعظيم الله وإجلاله، والإيمان بتفرده بالتفضل والإنعام، واحتقار النفس ومعرفة قدرها، ((وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها، واستصغارها لنفسها...، فهذه صِدِّيقة الأمة، وأم المؤمنين، وحب رسول الله، وهي تعلم أنها بريئة مظلومة، وأن قاذفيها ظالمون لها مفترون عليها، قد بلغ أذاهم إلى أبويها وإلى رسول الله، وهذا كان احتقارها لنفسها، وتصغيرها لشأنها))[٢].

ومن موقفها العظيم هذا استشهد العلماء على أهمية التواضع، وضرورة الاتصاف به، وأنه من الموازين التي تُعرَف بها معادن الناس وصدقهم وإخلاصهم:

فقال القرطبي: ((الذي يتعين على أهل الفضل والعلم والعبادة والمنزلة: احتقار أنفسهم، وترك الالتفات إلى أعمالهم ولا إلى أحوالهم، وتجريد النظر إلى لطف الله ومنته وعفوه ورحمته وكرمه ومغفرته.

وقد اغتر كثير من الجهال بالأعمال فلاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات وإجابة الدعوات، وزعموا أنهم ممن يتبرك بلقائهم، ويغتنم صالح دعائهم، وأنهم يجب احترامهم وتعظيمهم، فيتمسح بأثوابهم، وتقبل أيديهم، ويرون أن لهم من المكانة عند الله بحيث ينتقم لهم ممن تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال، وهذه كلها نتائج الجهل العميم، والعقل غير المستقيم، فإنَّ ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه، غافل عن جرمه وذنبه، مغتر بإمهال الله U له عن أخذه))[٣].

ولقد لازمت هذه الصفة الحميدة أمَّ المؤمنين حتى وهي تجود بروحها، فلقد: ((اشتكت فاستأذن ابن عباس عليها وأتاها يعودها، فقالت: الآن يدخل علي فيزكيني، فأذنت

---

(١) المغازي (٤٣٣/١).

(٢) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام r (١/ ٢٣٩).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (٣٧٤/٧)، ولابن القيم كلام نحوه في جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام r (٢٣٩/١).

له، فقال: أبشري -يا أم المؤمنين-، تقدمين على فرط صدق: تقدمين على رسول الله r وعلى أبي بكر، قالت: أعوذ بالله أن تزكيني))[(١)].

إن هذا الخلق الرفيع من أعظم الأخلاق التي يجب أن يتصف بها الداعية، فهو من أعظم مقوماته في دعوته، كما أن عليه وهو يقرأ هذه المواقف الجليلة عن أم المؤمنين أن يستخرج منها ما يُفيد منه في دعوته، ومن ذلك:

١- من أهمْ ما يجب على الداعية لله U التحلي به حتى يؤثر في المدعوين: صفة التواضع لله U وللخلق.

٢- التواضع من الصفات التي يحبها الله U، وهي سمة بارزة في النبي r وأولياء الله الصالحين، ولذلك يحرص الداعية على الاتصاف بها.

٣- التواضع يُكْسِبُ الداعية إلى الله U رفعة في الدارين.

٤- الداعية يأخذ عبرة وهو يقرأ هذا الموقف العصيب الذي مرَّ على أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها-، وكيف تجلّى على نفسها ذلك التواضع، فيُصوّر لنفسه موقفًا شبيهًا له، ليعيش بفكره ويرى هل سيكون منه ذلك الكلام النفيس، فإن كان لا يستطيعه؛ فيحرص على تقويم شخصيّته الدعويّة بذلك الخلق القويم.

" " "

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٧١) مختصرًا، وأبو بكر الشافعي في فوائده الشهير بالغيلانيات (٨٩٥)، والإسماعيلي وأبو نعيم في المستخرج - كما في فتح الباري (٨/ ٤٨٤) - ، من حديث القاسم بن محمد عن عائشة أنها اشتكت... فذكره.

المبحث السادس

الصدق مع الله

((منزلة الصّدق من أعظم منازل القوم، الذي نشأ منه جميع منازل السالكين، وهو الطّريق الأقوم الذي من لم يَسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميّز أهل النّفاق من أهل الإيمان، وسكّان الجنان من أهل النّيران، وهو سيف اللّه في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أزاله وصرعه، فهو روح الأعمال، ومحلّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال))[١].

و(الصِّدْق) في اللغة: مَصدر الفِعْلِ الثلاثيِّ المجرَّد (صَدَقَ)، يقال: (صَدَقَ، يَصْدُق، صِدْقًا)، فهو (صادِقٌ، وصدوقٌ)[٢]، وأصل مادته: الصاد والدال والقاف؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على: قوّةٍ في الشيء قولاً وغيرَه[٣]. ومن ذلك: (الصِّدْق) وهو: نَقيض الكَذِب؛ سُمِّيَ بذلك لقوّته في نفسه، ولأنَّ الكذِبَ لا قُوَّة له -وهو باطلٌ-[٤]، و(الصِّدِّيق): الملازِم للصِّدْق وكثير الصِّدْق[٥]، و(صَدَقَ) فلانًا الحديثَ والوعيدَ: أنبأه بالصِّدْق وصَدَقَه[٦]، و(صَدَّقه): قَبِلَ قولَه ونسبَه إلى الصِّدْق[٧].

وفي الشَّرْع: ((الإبانة عما يخبَر به على ما كان))[٨]، وقيل: ((قَوْل الحق في مواطِن

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (؟/ ٩٩١).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم (١٧٥/٨)، المصباح المنير (٣٣٥/١).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٣٣٩/٣).

(٤) العين (٥٦/٥)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١٥٠٦/٤)، معجم مقاييس اللغة (٣٣٩/٣)، المحيط في اللغة (٢٥٧/٥)، المحكم والمحيط الأعظم (١٨٩/٦)، المصباح المنير (٣٣٥/١).

(٥) معجم مقاييس اللغة (٣٣٩/٣)، المحيط في اللغة (٢٥٨/٥).

(٦) العين (٥٦/٥)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١٥٠٦/٤)، المحيط في اللغة (٢٥٧/٥)، المحكم والمحيط الأعظم (١٨٩/٦)، المصباح المنير (٣٣٥/١).

(٧) المحكم والمحيط الأعظم (١٨٩/٦)، المصباح المنير (٣٣٥/١).

(٨) التعريفات ص (١٧٤).

الهلاك))، وقيل: ((أن تصدُقَ في موضِعٍ لا ينجيك منه إلا الكَذِب))[١]، وقيل: ((تحرِّي الصَّواب في القول والعمل))[٢]؛ ولعلَّ هذا التعريف الأخير هو المختار؛ لعُمُومِه وشُمولِه؛ فإن الصدق يكون في((القول والعمل والحال، فالصّدق في الأقوال: استواء اللّسان على الأقوال كاستواء السّنبلة على ساقها. والصّدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرّأس على الجسد. والصّدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص. واستفراغ الوسع وبذل الطّاقة))[٣]، وبذلك يظهر أن الصدق له جانبان: جانبٌ بين العبد وربه، وجانبٌ بين العبد والخلق.

والصدق مع الله يقوم عليه الدين كله، فما من عملٍ من أعمال الدين إلا ويتوقّف قبوله على وجود الصدق مع الله، فهو أول شرطٍ يجب توفُّره لقبول العمل، ولأنّه من المعاني التي يشتمل عليها: الإخلاص، وقد قال تعالى: ﴿كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ... بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ ...﴾[٤]، ولذا؛ فلا عجب أن ترِد الأدلة الكثيرة في الكتاب والسنة في بيان فضله وأهميته والتأكيد عليه، ومن ذلك:

١- أنه من أخصِّ صفات المتقين، مدح الله ﷻ به الأنبياء -عليهم السلام- وأتباعهم المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿...﴾[٥]، ((والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكرهُ عَنَىَ بقوله: ﴿...﴾: كلّ من دعا إلى توحيد الله وتصديق رسله والعمل بما ابتعث به رسوله من بين رسل الله وأتباعه والمؤمنين به، وأن يقال: الصدق هو القرآن وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدّق به: المؤمنون بالقرآن، من جميع خلق الله كائنا من كان من نبيّ الله وأتباعه))[٦].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص ٢٠٦).
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٢٧٠)، بتصرف يسير.
(٤) سورة الكهف، آية رقم (١١٠).
(٥) سورة الزمر، آية رقم (٣٣).
(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/ ٢٠٦).

٢- أنَّ الله U أمَرَ عباده المؤمنين به، فقال تعالى: O B C D E F G H I N[١]، ففي هذه الآية يأمر الله U عباده المؤمنين أنْ يكونوا ((مع من صَدَق اللهَ الإيمانَ به، فحقَّق قوله بفعله، و لم يكن من أهل النفاق فيه، الذين يكذِّب قيلَهم فعلُهم))[٢].

٣- أن الله U: ((جعل الصدق عَلَم أهل الجنة وشعارهم))[٣]، كما في قوله r: ((عليكم بالصدق، فإنه يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا))[٤].

٤- أنه من أعظم أسباب حُسنِ الخاتمة، فقد جاء رجلٌ إلى النبي r مسلمًا ومهاجرًا: ((فأوصى به النبي r بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غَنِمَ النبي r سبيا، فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟، قالوا: قَسْمٌ قسمه لك النبي r ، فأخذه فجاء به إلى النبي r فقال: ما هذا؟، قال: قسمته لك، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أُرمَى إلى ها هنا -وأشار إلى حلقه- بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال: إن تصدق الله يصدقك. فلبثوا قليلا ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتِيَ به النبي r يُحمَل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي r: أَهُوَ هُوَ؟، قالوا: نعم، قال: صَدَق الله فصدقه))[٥].

٥- أنّه سبب من أسباب منجاة العبد من الهَلَكةِ إذا ضاقتْ به السُّبُل، وادلهمّتْ به الخطوب، كما في قصة النفر الثلاثة الذين انسدت بهم الصخرة، فإنه ما نجاهم الله من شدة

---

(١) سورة التوبة، آية رقم (١١٩).
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/ ٦٧).
(٣) إعلام الموقعين (١/١١٩).
(٤) أخرجه مسلم (٨/٢٩) رقم (٦٨٠٤).
(٥) أخرجه النسائي في سننه (٤/٦٠) رقم (١٩٥٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٩٥)، وغيرهما، من حديث شداد بن الهاد -رضي الله عنه-، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٥٦)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (١٣٣٦).

الكرب إلا بصدقهم معه سبحانه في أعمالهم الصالحة التي توسّلوا بها إليه، فأنجاهم الله بها[١].

وكان الصدق في الأقوال والأفعال والنوايا من أعظم صفات النبي r قبل الإسلام، فقد عاش بين ظَهراني المشركين أربعين سنة ما سمعوا عليه كذبةً واحدة، ولما صعَدَ جبل الصفا وقال لهم: ((أرأيتم إنْ أخبرتكم أنَّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مُصَدّقيَّ؟))، قالوا: ما جرّبنا عليك كذبًا[٢].

وفي حادثة الإفك أشرقت مواقف الصحابة بهذا الخلق النبيل، وازَّيَّنت بذلك العمل الصالح الجليل، فكانوا خير من يمتثل أمر الله ورسوله في الصدق، سواء ما كان منه في جانب الله أو ما كان منه في جانب المخلوقين، ومن تلك المواقف:

١ - موقف صفوان بن المعطل t لما وجد أم المؤمنين:

مما لاشك فيه أنَّ الصحابة y كانوا على درجةٍ عالية من الصدق مع الله U، ومن الشواهد على ذلك في حادثة الإفك: ذلك الموقف العظيم المؤثّرْ حين وجد صفوان بن المعطّل السلمي t أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- في العراء وحدها، فلم يتكلّمْ معها بكلمة واحدة، بل: ((استعمل معها الصمت اكتفاء بقرائن الحال؛ مبالغة منه في الأدب وإعظاما لها وإجلالا))[٣]، وما كان منه إلا ما بيّنته -رضي الله عنها- في قولها: ((فاسترجع وأعظم مكاني))[٤]، ((أي: حين رآني وحدي))[٥]، وهذا لا شك في أنّه ناتجٌ عن الصـــدق مع الله U، حيث ظهر في هذا الموقف معنى مراقبة الله سبحانه في السِّرّ كما هي في العَلَن،

---

(١) أخرجه البخاري (٨/٣) رقم (٥٩٧٤)، ومسلم (٨/٨٩) رقم (٧١٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦/٢٢١) رقم (٤٩٧١)، ومسلم (١/١٣٤) رقم (٥٢٩).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٦٣).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ١١١)، من حديث أبي أويس عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها-، ومن حديث أبي أويس عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة عنها -رضي الله عنها-. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٣٦): "رجاله رجال الصحيح" اهـــ.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٦٣).

وظهر فيه أيضًا ((حسن الأدب مع الأجنبيات -لاسيما في الخلوة بهن عند الضرورة في برية أو غيرها، كما فعل صفوان من إبراكه الجمل من غير كلام ولا سؤال))[(١)].

٢ - موقف الصحابة الذين استشارهم النبي r أو سألهم في أمر أم المؤمنين:

استشار النبي r بعض صحابته في أمر زوجه عائشة -رضي الله عنها-، ((فأما أسامة ابن زيد t فأشار على رسول الله r بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال أسامة: "يا رسول الله، هم أهلك، ولا نعلم والله إلا خيرًا"، فلم يكنْ يعلم في سابق أمرها وكذلك الظنُّ بها في مستقبل أمرها إلا الخير فقاله، وذكرها عند رسول الله r بلفظ الجمع: ((لإرادة تعظيمها))[(٢)].

وكذلك الأمر في بريرة -رضي الله عنها- حين قالت: ((والله لعائشة أطيب من طيب الذهب، وما بها عيب))[(٣)]، وفي رواية: ((والله لعائشة أطيب من طيب الذهب... ولئن كانت صنعت ما قال الناس ليخبرنك الله))[(٤)].

فكلا الصحابيين كان صادقًا فيما يعتقده، وصادقًا في نصحه ومشورته، وصادقًا في ذكر ما يعلمه.

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١١٦/١٧).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٦٨/٨).

(٣) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (٥٥٦/٢) رقم (١١٣١)، والطبري في تفسيره (١٧/ ٢١١) -واللفظ له-، من رواية ابن حاطب عن علقمة وغيره عن عائشة -رضي الله عنها-. وإسناده صحيح.
وأخرجه الواقدي في المغازي (٢/ ٤٣٠)، من حديث عبَّاد بن عبدالله بن الزبير عن عائشة -رضي الله عنها-.

(٤) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١١٣١)، والطبري في تفسيره (١٧/ ٢١١) -واللفظ له-، من رواية ابن حاطب عن علقمة وغيره عن عائشة -رضي الله عنها-. وإسناده صحيح.
وأخرجه الواقدي في المغازي (٢/ ٤٣٠)، من حديث عبَّاد بن عبدالله بن الزبير عن عائشة -رضي الله عنها-.

٣- موقف أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله عنها- وهي تُسأَل عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-:

سأل رسول الله r زينب بنت جحش عن أمر عائشة -رضي الله عنها-، فقالت: ((يا رسول الله؛ أحمي سمعي وبصري، واللهِ ما علمت عليها إلا خيرًا))، فكان موقفها هذا ناطقًا بالصدق مع الله، حيث صَدَقَتْه سبحانه في خوفها منه ورعاية سمعها وبصرها عن معصيته سبحانه، وصَدَقَت في بيان ما تعلمه من أمر عائشة -رضي الله عنها-، ولذا قالت عائشة -رضي الله عنها-: ((فعصمها الله بالورع))، أي: حفظها ومنعها مما تُخشَى سوء عاقبته بورَعها ومحافظتها على دينها[١]، والورع نتيجة من نتائج الصدق مع الله U وثمرة من ثماره.

٤- موقف أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بعد أن أنزل الله براءتها:

من صفات الصادق مع الله U أنّه متجّردٌ في توحيده لله U ويردُّ الفضل لأهله، وقد كانت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- كذلك؛ فحين أنزل الله براءتها -بعد ما أَلَمَّ بها ذلك الخطب الجلل والبلاء العظيم مما أُفِكَ به عليها- أمرتْها أمها بأنْ تشكر رسول الله r فأبت إلا أن تحمد الله وحده، وكان ذلك من عظيم فقهها وكمال إيمانها وصدقها مع الله سبحانه، وقد ((أقرها النبي r وأبوها على مثل هذا الكلام الذي نفت فيه أن تحمد رسول الله r وأن تحمد أحدًا إلا الله تعالى؛ لأن الله تعالى هو الذي أنزل براءتها بغير فعل أحد، ولم يقل أحد: هذا سوء أدب عليه))[٢]؛ لأن ذلك ((إذا كان في سياق توحيد الرب سبحانه ونفي خصائصه عما سواه لم يجز أن يقال: هذا سوء عبارة في حق من دون الله تعالى من الأنبياء والملائكة، فإن المقام أجل من ذلك، وكل ما سوى الله تعالى يتلاشى عند تجريد توحيده))[٣].
توحيده))[٣].

لقد كان في هذه المواقف العظيمة مواعظ وعبر جليلة يفيد منها الداعية في دعوته

---

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٨/٨).
(٢) انظر: الرد على البكري (٦٤٨/٢).
(٣) المصدر السابق (٦٤٧/٢).

ومنها:

١- الصدق مع الله U من أعظم مقومات الداعية إلى الله تعالى -إن لم يكن أعظمها على الإطلاق-؛ لأنه يشمل دعوة الداعية كلها: أولها وآخرها، وظاهرها وباطنها، وسابقها ولاحقها، وأفعالها القلبية والقولية والعملية، وما كان منها متعلّقًا بالله سبحانه أو بخلقه.

٢- يجب على الداعية أن يستشعر دائمًا عظيم آثار الصدق مع الله في نفسه وفي دعوته، وأنه يقتضي الولاية والنصرة المحققة من الله U، وهذه النصرة لها أشكال متعددة، فمنها ما أيّد الله به أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بالوحي من السماء، ومنها ما رأته ورآه صفوان بن المعطل t من تأييدِ غالب المجتمع المؤمن لهما، وعلى رأسهم النبي r حين اعتلى المنبر فأثنى عليهما بالخير وأقسم على ذلك فقال: ((فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي))، فذلك من النتائج الباهرة للصدق مع الله U، وبذلك يجتمع للداعية الصادق مع الله U الرفعة والشرف والفوز في الدارين.

٣- الداعية إلى الله U يعلم أنَّه قد يترل به من البلاء ما يكون فيه امتحان واختبار له، فيُعِدّ العُدَّة لذلك بالصدق مع الله في كل أحواله، ويربّي نفسه ويهيِّئها على أنه إن نزل به البلاء كان صادقًا مع الله في المراقبة والقول والعمل، كما أنه إذا نزل به من البلاء ما هو من جنس ما نزل بأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- فاتُّهِم في عرضه وشرفه وسمعته بما هو بريء منه؛ أيقن أن فيما أَسْلَف من الصدق مع الله سبحانه منجاة له من البلاء والكرب، ونصرة له ولدعوته على من ظلم واعتدى.

" " "

المبحث السابع

التثبت وعدم العجلة

((الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة. فالواضحة البيِّنة لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل. وأما الأمور المشكلة غير الواضحة فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟، فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشرور عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله ورزانته، بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها قبل أن يتبين له حكمها))(١).

و(التثبُّت) في اللغة: مَصدر الفِعْلِ الثلاثيِّ المَزيد (تَثَـبَّتَ)، وأصل مادته: الثاء والباء والتاء؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على: دوامِ الشيءِ(٢)، يقال: (ثَبَتَ) فلانٌ بالمكان، يثْبُتُ، (ثباتًا وثُبُوتًا)، فهو (ثابِت، وثَبْت): أقامَ به(٣)، و(تثبَّتَ) في رأيه وأمره: إذا لم يَعْجَل وتأنَّى فيه، و(استثبتَ) فيه: شاورَ وفحصَ عنه(٤)، ورجل (ثَبْت) و(ثَبيت): شُجاع وقور ثابِت العَقْل(٥).

وفي الاصطلاح: ((الأناة وعدم العجلة والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر))(٦)، وقيل: ((تَفريغ الوُسع والجهد لمعرفة حقيقة الحال المراد))(٧)، وهو ضِد

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (١٩٤).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣٩٩/١).

(٣) تهذيب اللغة (٢٦٧/١٤)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢٤٦/١)، معجم مقاييس اللغة (٣٩٩/١)، المحكم والمحيط الأعظم (٤٧٣/٩).

(٤) تهذيب اللغة (٢٦٧/١٤)، المحكم والمحيط الأعظم (٤٧٣/٩).

(٥) تهذيب اللغة (٢٦٧/١٤)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢٤٦/١)، المحكم والمحيط الأعظم (٤٧٣/٩).

(٦) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم النفسير (٥/ ٨٦).

(٧) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٤٢/١٠).

الإقدام والعَجَلة والتسرُّع[١].

والتثبُّت وعدم العجلة من أهم الصفات التي ينبغي للعبد أن يتحلّى بها، ومما يبيّن أهميته:

١- أن الشارع الحكيم أمر بالتحَلّي بالتثبت في مواقف عديدة، فقال U: t O u v w x y z { | N[٢]، ففي هذه الآية الكريمة ((يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهادًا في سبيله وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة))[٣].

وقال سبحانه: O / 0 1 2 3 4 5 6 N[٤].

٢- وقال r: ((التأني من الله تعالى، والعجلة من الشيطان))[٥].

وفي حادثة الإفك كان التثبت من الثمار النافعة المفيدة الناتجة عنها، كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة: O - . / 0 N، أي: حين أُمِرْتُم بالتثبت والتبيُّن والعِظَة[٦]، كما أن النبي r وصحابته y كانوا أثناء الحادثة في أعلى درجات التثبت وعدم العجلة، وقد دلّت على ذلك المواقف المختلفة، فأعرضها هاهنا بحسب من وقعت منه:

١- مواقف النبي r التي تبيّنُ التثبت وعدم العجلة:

عدم استعجاله r في اتخاذ أي حكم حتى أنزل الله عليه الوحي:

عائشة -رضي الله عنها- أحب أزواج النبي r إليه، يعرف صدقها وعفّتها وكمال أدبها ورجحان عقلها، ولا يعلم عنها إلا الخير، فماضيها كله نور، ليس فيه خلل ولا دنس ولا سوء، ومع ذلك كله لم يبادر r إلى تبرئتها، ولم يستعجل في ذلك، بل تأنى وانتظر ما يأتي به الوحي من عند الله تبارك وتعالى.

---

(١) انظر: البحر المحيط (٣/٣٤٢)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٤/٧٤).

(٢) سورة النساء، آية رقم (٩٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص(١٩٤).

(٤) سورة الحجرات، آية رقم (٦).

(٥) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٠٤)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٢٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٥٧٢).

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٨/٢٥٤٤).

وصفوان بن المعطل t صحابي جليل له سابقته في الإسلام، ولا يُعلَم عنه إلا الخير، فلم يتعجَّل النبي r في تبرئته.

ومن اختلق الإفك منافقون أفّاكون، يعلم المسلمون جميعًا ما فعلوه قبل ذلك من تخذيلٍ واستهزاء وإرجاف، فتأنّى r في أمرهم، ولم يتعجل فيحكم بكذبهم وإفكهم.

فكان r متثبتًا متأنيًا ((لم يجزم في القصة بشيء قبل نزول الوحي))(١).

عدم استعجاله r في مواجهة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بأمر الإفك:

مع ما كان يجده النبي r من الشدة والكرب والألم؛ فإنه لم يستعجل فيواجه أم المؤمنين بما أُفِك فيها لا إخبارًا ولا سؤالاً، بل تأنى وكان غاية أمره أن يدخل عليها فيسلّمُ ثم يقول: ((كيف تيكم؟)) ثمَّ ينصرف.

استشارته r بعض صحابته وسؤاله إياهم في أمر فراقه لأم المؤمنين:

كان r شديد التثبّت في معرفة الأمور على حقائقها، بعيدًا عن العجلة والتسرّع، فَلم يفارق عائشة -رضي الله عنها- لأنه لم يصدق ما قيل أَولاً، ولما حصل له الشك واشتبه عليه أمرها -رضي الله عنها- وتردد: هل يطلق لما بلغه عنها أم يمسكها؟؛ استشار عليا وزيد ابن حارثة، وسأَل الجارية لتخبره بباطن أمرها؛ لينظر إن كان حقا فارقها، حتى أَنزل الله براءها من السماء(٢).

٢ - مواقف عائشة -رضي الله عنها- التي تبيّنُ التثبت وعدم العجلة:

عندما رأت نفسها وحيدةً في العراء:

تجسّدَت صفتا التثبّتُ وعدم العجلة في أوّلِ موقف يعّصِفُ بأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، فعندما قضت حاجتها ثم رجعت إلى الجيش فلم ترَ منهم أحدًا ((أقامت في منزلها إلى أن أصبحت، وكأنه تعارض عندها أن تتبعهم فلا تأمن أن يختلف عليها الطرق فتهلك قبل أن تدركهم -ولا سيما وقد كانت في الليل-، أو تقيم في منزلها لعلهم إذا فقدوها عادوا إلى مكانها الذي فارقوها فيه...، وهكذا ينبغي لمن فقد شيئا أن يرجع بفكره

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٨٠/٨).

(٢) انظر: الفتاوى الكبرى (١٨٢/٣)، منهاج السنة النبوية (٧/ ٢٣٦).

القهقرى إلى الحد الذي يتحقق وجوده ثم يأخذ من هناك في التنقيب عليه))[١].

عندما لحظَت شيئًا من التغيُّر في معاملة النبي r لها:

أَخْبَرَتْ -رضي الله عنها- عن أنها في مرضها بعد عودتها إلى المدينة لم تكن ترى من النبي r ما كانت تعهده عنه من اللطف الذي كانت تراه منه كلما اشتكت ومرضت، ولم تكن تعرف السبب في ذلك، ومع ذلك ((لم تبالغ في التنقيب عن ذلك حتى عرفته))[٢].

عندما أخبرتها أم مسطح بخبر الإفك:

لقد كان ذلك الموقف موقفًا مفاجئًا عصيبًا مؤلًما، ومن طبيعة هذه المواقف غالبًا عدم التركيز وظهور الأخطاء فيها، لكن ظهر نقيض ذلك من أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، فقد تأنّت ولم تستعجل في ردّة الفعل، بل عمدت إلى الرغبة في التثبّت من خلال استئذانها من النبي r أن تذهب لبيت أبويها، وكان مرادها من ذلك أن تتثبت منهما مما أخبرتها به أم مسطح، فكان في صنيعها الحكيم هذا ((البحث عن الأمر المقول ممن يدل عليه المقول فيه...، وطلب الارتقاء من مرتبة الظن إلى مرتبة اليقين))[٣].

٣- مواقف أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- التي تبيّنُ التثبت وعدم العجلة:

عدم استعجاله في تبرئة ابنته الطاهرة:

مع ما انفطر به قلب الصديق من ذلك الإفك في حق ابنته؛ فقد كان متثبِّتًا في الأمر؛ ((لأنه لم ينقل عنه في هذه القصة مع تمادي الحال فيها شهرا كلمة فما فوقها إلا ما ورد عنه في بعض طرق الحديث أنه قال: "والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام؟"[٤]))[٥]، ولقد قالت له أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بعد أن نزلت براءتها:

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٦١).

(٢) المصدر السابق (٨/٤٦٥).

(٣) المصدر السابق (٨/٤٨٠).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ١٢٤)، من حديث عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما-. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٠): "فيه إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي؛ وهو كذَّاب" اهـ.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٨٠، ٤٨١).

((ألا عذرتني؟، فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت ما لا أعلم))[١].

تأنّيه وعدم استعجاله لما طلبت منه ابنته أن يجيب النبي r عن كلامه معها في إعلان براءها أو التوبة من ذنبها -إن أذنبت-:

بعد أن انتهى النبي r من كلامه مع عائشة -رضي الله عنها- المتضمِّن طلبه منها أن تعلن براءها -إن كانت بريئة- أو تتوب إلى الله -إن كانت مذنبة-؛ طلبت -رضي الله عنها- من أبيها أن يجيب عنها، فلم يستعجل t بالجواب؛ لأن النبي r لم يسأله هو، ولم يبادر إلى تبرئتها؛ لأنه تأنى وانتظر أن يحكم الله في ذلك ورسوله، بل قال: ((لا أدري ما أجيب به رسول الله))؛ ((لأنه كان كثير الاتباع لرسول الله r ، فأجاب بما يطابق السؤال في المعنى، ولأنه وإن كان يتحقق براءها لكنه كره أن يزكى ولده))[٢].

عدم استعجاله في معاقبة مسطح مع كلامه في ابنته:

كان أبو بكر الصديق t ينفق على مسطح بن أثاثة t لقرابته منه وفقره، وكان مسطح ممن خاض في الإفك مع من خاض، ومع ذلك لم يستعجل أبو بكر فيقطع عنه النفقة، بل تأنى حتى أنزل الله براءة ابنته فعامله على ضوء حكم الله، وقال: ((والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال))، وقوله هذا ((يؤخذ منه مشروعية ترك المؤاخذة بالذنب ما دام احتمال عدمه موجودا؛ لأن أبا بكر لم يقطع نفقة مسطح إلا بعد تحقيق ذنبه فيما وقع منه))[٣].

إن اتصاف أفضل الخلق (محمد r) وأحب الرجال والنساء إليه (أبي بكر الصديق، وعائشة أم المؤمنين) -رضي الله عنهما- في هذه الحادثة العظيمة بالتثبت وعدم العجلة لهو مما

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (٢٦٦٥ - كشف الأستار)، والطبري وأبو عوانة -كما في فتح الباري (٨/ ٤٧٧)-، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٢/ ٢٦٠)، من حديث مجاهد عن عائشة -رضي الله عنها- أنه لما نزل عذرها قبَّل أبو بكر رأسها فقالت... فذكره. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٠): "رجاله رجال الصحيح" اهـ، وصحَّح إسنادَه: السيوطيُّ في الدر المنثور (١٠/ ٦٩٢)، والألبانيُّ في السلسلة الصحيحة (٦/ ١/ ٢٨).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٥).

(٣) المصدر السابق (٨/٤٧٨).

يتعين للداعية أن يقف عنده وقفات ووقفات؛ ليستلهم العِبر ويستنبط الفوائد ويترسّم الخُطى، ومما يستفيده:

١ - ينبغي على الداعية إلى الله أن يستشعر أهميّة التثبت وعدم العجلة في حياته بعامة وفي دعوته بخاصة، فيحرص على الاتصاف والتحلي بهما؛ لأنهما من عوامل النجاح، ومن أدوات التأثير في المدعوين، ومن عوامل السلامة من الأخطاء.

٢ - الداعية إلى الله يرى أن عائشة -رضي الله عنها- تتوخى أفضل السبل، وتسلك آمن الطرق، وتتثبت ولا تعجل في اتخاذ القرار حين ذهب الجيش عنها، بل تثبت في مكانها مؤملةً أن يفقدها القوم فيرجعوا إليها. فالداعية حين يُمرُّ به في طريق دعوته مواقف عصيبة كهذا الموقف المؤلم، يقف متأملاً فيما قد يؤولُ إليه تصرفه إنْ قام به، وهل فيه ضرر يتعداه ولا يقتصر عليه، أو نفعٌ يشمله مع غيره.

٣ - على الداعية أن يعلم يقينًا أنَّ للتثبت وعدم العجلة ثمارًا عظيمة تجنيها الدعوة إلى الله تعالى حين يتحلّى بهما، فليحرص على الاتصاف بهما وليقتد في ذلك بالنبي r ، فيكون بذلك داعيًا إلى الله تعالى على هدىً وبصيرة.

٤ - بالتثبت وعدم العجلة تسعد الأُسر والمجتمعات، وتُحقَن الدماء، وتُحفَظ الأرواح والحقوق، وتأتلف القلوب، وتستقر المجتمعات.

^ ^ ^

الفصل الخامس

معوقات الداعية إلى الله من خلال حادثة الإفك

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الغضب غير المحمود.

المبحث الثاني: الاستعجال وعدم التثبت.

المبحث الثالث: الحميّة ونصرة القبيلة.

المبحث الأول

الغضب غير المحمود

((الغضب من المخلوقين شيء يداخل قلوبهم، ومنه محمود ومذموم، فالمذموم ما كان في غير الحقّ، والمحمود ما كان في جانب الدّين والحقّ))[١]، والغضب غير المحمود صفةٌ ((تُخْرِجُ عن سياسة العقل والدّين والطّاعة، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار بل يصير في صورة المضطر))[٢].

و(الغَضَب) في اللغة: مَصدر الفِعلِ الثلاثيِّ المجرَّد (غَضِبَ)، يقال: (غَضِبَ، يَغْضَبُ، غَضَبًا ومَغْضَبَةً)[٣]، وأصل مادته: الغين والضاد والباء؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على: شِدَّةٍ وقوَّةٍ، ومنه: الغَضْبَة: الصَّخرة الصُّلبة. قالوا: ومنه اشتُقَّ الغَضَب؛ لأنه اشتداد السُّخْط[٤]، و(الغَضَب): نقيض الرِّضا[٥]، و(غاضبَ) فلانٌ فلانًا: أغضب كلٌّ منهما الآخر[٦]، أو: هجره وتباعد عنه[٧].

وفي الاصطلاح: تغيُّر يحصل عند غليان دم القلب، بشهوة الانتقام؛ ليحصل عنه الشفاء للصدر، لكن كثيرًا ما يعقبه النَّدَم والخسران[٨]، وقيل: ((إرادَة الإضرار بالمغضوب عليه"[٩]. وعرَّفه مجمَّع اللغة العربية بأنه: "استجابة لانفعالٍ، تتميز بالمَيل إلى الاعتداء))[١٠].

---

(١) لسان العرب (٦٤٩/١).

(٢) إحياء علوم الدين (١٦٧/٣).

(٣) العين (٣٦٩/٤)، تهذيب اللغة (١٦/٨)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١٩٤/١)، معجم مقاييس اللغة (٤٢٨/٤)، المحكم والمحيط الأعظم (٤١١/٥)، المصباح المنير (٤٤٨/٢).

(٤) معجم مقاييس اللغة (٤٢٨/٤).

(٥) المحكم والمحيط الأعظم (٤١١/٥).

(٦) المحكم والمحيط الأعظم (٤١١/٥)، المصباح المنير (٤٤٨/٢)، المعجم الوسيط (٦٥٤/٢).

(٧) المعجم الوسيط (٦٥٤/٢).

(٨) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (١٥٤/٢)، التعريفات ص (٢٠٩)، دستور العلماء (٦/٣).

(٩) الكليات ص (٦٧١).

(١٠) المعجم الوسيط (٦٥٤/٢).

وقد جاءت الشريعة الإسلاميّة بالتنفير الشديد والتحذير الأكيد من الغضب غير المحمود، إضافة إلى ما يشتمل عليه الغضب أو ينتج عنه من الأخلاق والآثار السيئة التي يأباها العقل والفِطَر السليمة، ومما يبيّن ذلك أنّه:

١ - ((لّما كانت المعاصي كلها تتولد مِن الغضب والشهوة، وكان نهايةُ قوة الغضب القتل، ونهايةُ قوة الشهوة الزِّنى، جمع الله تعالى بين القتل والزِّنى، وجعلهما قرينين في سورة الأنعام، وسورة الإسراء، وسورة الفرقان، وسورة الممتحنة))[١].

٢ - أن الغضب غول[٢] العقل، يغتاله كما تغتاله الخمر؛ ولهذا نهى النبي r: أن يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان[٣]، والغضب من أعظم أنواع الإغلاق، والإغلاق يحجبُ صاحبه حسن التصور والقصد، ويمنعه من معرفة ما يقوله ويقصده، وفي هذا الحال هو بمنزلة المجنون والسكران، بل قد يكون أسوا حالاً من السكران؛ لأن السكران قد لا يقتل نفسه ولا يلقي ولده من علو، والغضبان يفعل ذلك، ولشؤمه أوصى بعض العلماء وليَّ أمر فقال: إياك والغلق والضجر، فإن صاحب الغلق لا يقدم عليه صاحب حق، وصاحب الضجر لا يصبر على حق))[٤].

٤ - أنّه يسبب لصاحبه جملةً من الأضرار التي تلحِق الدمار بالفرد والجماعة، فقد يقع صاحبه في لفظ الطلاق دون شعور، فيتسبب بذلك في هدم بنـــاء أسرتـــه، ولكـــنْ من رحمة الله U بعباده أن شَرَع عدم انعقاد الطلاق في حال الغضب بشروطه المذكورة في كتب الفقه، كما قال النبي r: ((لا طلاق ولا عتاق في غلاق))[٥]، ((قال أبو داود: والغلاق:

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/٤٦٣).
(٢) الغول: كل شيء ذهب بالعقل. لسان العرب (١١/٥٠٨).
(٣) أخرجه البخاري (٩/٨٢) رقم (٧١٥٨)، ومسلم (٥/١٣٢) رقم (٤٥٨٧).
(٤) انظر: إعلام الموقعين (٢/١٧٥)(٣/ ٥٣).
(٥) أخرجه أبو داود (٢/٢٢٤) رقم (٢١٥٩)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٦/٣٩٦) رقم: (١٩٠٣).

أظنّه الغضب))[١]، وربما دعا على نفسه وماله: ((ومن هذا قوله تعالى: O J K
L M N P Q R N[٢]، وهو الرجل يدعو على نفسه وأهله بالشر في حال الغضب))[٣]، ((ولهذا لا يجاب دعاؤه على نفسه وماله، ولا يلزمه نذر الطاعة فيه))[٤].

٥- جاء أحد الصحابة إلى النبي r فقال: يا رسول الله، أوصني، فقال له النبي r: ((لا تغضب))، فكرّر الصحابي طلب الوصية مرتين أُخريين، وكان النبي r يوصيه في كل مرة بالعبارة نفسها: ((لا تغضب))[٥]. والمراد: ((لا تعمل بمقتضى الغضب إذا حَصَل لك، بل جاهِد نفسَك على ترك تنفيذه والعمل بما يأمر به، فإنَّ الغضب إذا ملك ابنَ آدم كان كالآمر والناهي له))[٦].

٦- ((أن أعظم ما ينشأ عنه الغضب: الكبر؛ لكونه يقع عند مخالفة أمر يريده فيحمله الكبر على الغضب، فالذي يتواضع حتى يُذهب عنه عزة النفس يسلم من شر الغضب))[٧].

٧- أن الغضب من الجهل؛ فإنه ((يحمل المرء على فعل ما يضره، وترك ما ينفعه، وهذا من الجهل الذي هو عملٌ بخلاف العلم، حتى يقدم المرء على فعل ما يعلم أنه يضره، وترك ما يعلم أنه ينفعه))[٨].

٨- أن ((أول الغضب جنون، وآخره ندم، ولا يُقَوَّمُ الغضب بذل الأعذار، وربما كان العطب في الغضب))[٩].

وفي حادثة الإفك خطب النبي r في أصحابه y في مسجده في شأنِ ما يسمعه من

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٣٨٩/٩)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٣٥٥/٢٠).

(٢) سورة الإسراء، آية رقم (١١).

(٣) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان ص(٣٤).

(٤) انظر: المبدع (٢٣٣/٧)، الإنصاف (٣٢٠/٨)، الفروع (١٠/٩).

(٥) أخرجه البخاري (٣٥/٨) رقم(٦١١٦).

(٦) جامع العلوم والحكم ص(١٤٥).

(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٥٢٠/١٠).

(٨) انظر: مجموع الفتاوى (٥٤٠/٧).

(٩) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢٠٥/١).

أهل الإفك وما يستوشونه بين الناس في أهله؛ وكان من ضمن ما أراد من تلك الخطبة نصرته على من خاض في الإفك، ومعذرته إن أراد معاقبة أحدٍ منهم، فكان ذلك الموقف الإيماني النبيل من سعد بن معاذ t حين قال: ((أنا والله أعذرك منه -يا رسول الله-، فإن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك))، فكان سياق الكلام منه t لا يخرج عن نيّةِ نصرة النبي r فيما اشتكى منه مِنْ أذيّة المنافقين الذين يؤذونه في أهل بيته الأطهار، لكن لما فهم سعد بن عبادة من كلام سعد بن معاذ النقيصةَ من قدر الخزرج وأنهم ليسوا بأهل منَعة وقوّة؛ ردّ على سعد بن معاذ قوله؛ مما أدى إلى حصول غضب غير محمود بين الصحابة الحاضرين في المسجد، ولما كان ((الغضب يُخْرِجُ الحليم المتقي إلى ما لا يليق به؛ فقد أخرج الغضب هؤلاء الأخيار من هذه الأمة بحضرة رسول الله r إلى مالا يشك أحد من الصحابة أنها منهم زلة))[١].

ومما يثبت لنا أنَّ ذلك الغضب الذي انبعث من الصحابة الفضلاء غير محمود: ما اشتمل عليه، وما نتج عنه من نتائج مُحزِنة، فقد وقع بحضرة النبي r وبين يديه، وعَلَتْ فيه أصوات الصحابة y، تقول عائشة -رضي الله عنها-: ((فثار الحيان الأوس والخزرج؛ حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله r قائم على المنبر. فلم يزل رسول الله r يخفضهم؛ حتى سكتوا وسكتَ))، وفي رواية: ((فلم يزل يومئ بيده إلى الناس ها هنا وها هنا حتى هدأ الصوت))[٢]، وفي رواية: ((فنزل فخفضهم حتى سكتوا))[٣]، وفي رواية: ((حجز بينهم))[٤]، وتُحمَل هذه الروايات: ((على أنه سَكَتَهُمْ وهو على المنبر ثم نزل إليهم أيضا ليكمل تسكيتهم))[٥]، ثمَّ غادر رسول الله r مسجده دون أن يجتمع الصحابة على نصرته ومعذرته

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٨١).

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١١٣١)، والطبري في تفسيره (١٧/ ٢١١)، من رواية ابن حاطب عن علقمة وغيره عن عائشة -رضي الله عنها-. وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، من رواية ابن شهاب الزهري.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ٧٧)، وفي مسند الشاميين (٣/ ٣٣٥)، من رواية عطاء الخراساني عن ابن شهاب الزهري.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٤).

ممن خاض في الإفك.

ومما يجب التنبيه عليه أنَّ ذلك الغضب الذي حصل من الصحابة الفضلاء y لا يغمص عليهم في دينهم، بل هم على أعلى رتبةٍ في الإيمان والفضل بعد نبينا r ، ومواقفهم في نصرته عظيمة، فلقد بذلوا في سبيل ذلك أرواحهم وأموالهم، ومن سابقيهم إلى ذلك الفضل سعد بن عبادة t ، لكنَّ الغضب: ((بلغ منه، ومع ذلك لم يغمص عليه في دينه))[١].

لقد كان في هذا الموقف من العِظات والعِبر التي يستفيدها الداعية إلى الله ما يأتي:

١- الغضب غير المحمود آفةٌ خطيرة، توقعُ الداعية في مواقف حرجة، وتؤثر على شخصيته عند الخاصة والعامة.

٢- عندما لا يتمالك الداعية نفسه مع الغضب غير المحمود فإنه قد يتسبب بسلوكه الخاطئ فيما لا يحسن في حق الدعوة ومن ينتسبُ إليها.

٣- الداعية المتصف بالغضب غير المحمود قد يؤثّر على من حوله من الناس أو من الدعاة؛ فينساقوا خلف سلوكه الخاطئ، فيكون سببًا لوقوع المجتمع المحيط به في الخطأ أو الهلكة.

" " "

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٩/ ١١٩).

المبحث الثاني

الاستعجال وعدم التثبت

الاستعجال ((نوع من الجهل والخرق))[١]، وهو من شيم الأحمق؛ فإنّه -لاستعجاله وعدم تأنيه- يتكلّم في الساعة بكلامٍ يعجز عنه غيره، ويتكلّمُ في الساعة الأخرى بكلامٍ مثله[٢].

و(الاستِعْجَال) في اللغة: مَصدر الفِعْلِ الثلاثيِّ المَزيد (اسْتَعْجَلَ)، وأصل مادته: العين والجيم واللام؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على: الإسراع[٣]، يُقال: (عَجِل)، يَعْجَل، (عَجَلَةً، وعَجَلاً): أسرعَ[٤]، و(العَجَل) و(العَجَلَة): السُّرعة وخلاف البُطء[٥]، و(الاستعجال) و(الإعجال) و(التعجُّل): الاستحثاث وطلب العَجَلَة[٦]، و(العاجل): نقيض الآجِل في كلِّ شيء[٧].

وفي الاصطلاح: طَلَب الشيء وتحرِّيه قبل أوانه[٨].

---

(١) الآداب الشرعيّة والمنح المرعية (٢/ ٦٥).

(٢) انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص(١٢١).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٤/٢٣٧).

(٤) العين (١/٢٢٧)، تهذيب اللغة (١/ ٣٦٩)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/١٧٦١)، مقاييس اللغة (٤/٢٣٧)، المحيط في اللغة (١/٢٥٧)، المحكم والمحيط الأعظم (١/٣٢٢)، المصباح المنير (٢/٣٩٤)، القاموس المحيط ص (١٣٣١)، المعجم الوسيط (٢/٥٨٦).

(٥) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/١٧٦١)، المحيط في اللغة (١/٢٥٧)، المحكم والمحيط الأعظم (١/٣٢٢).

(٦) تهذيب اللغة (١/٣٧٢).

(٧) العين(١/٢٢٨)، تهذيب اللغة (١/٣٧٠)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/١٧٦١)، معجم مقاييس اللغة (٤/٢٣٧)، المحيط في اللغة (١/٢٥٧، ٢٥٨)، المحكم والمحيط الأعظم (١/٣٢٤)، القاموس المحيط ص (١٣٣١).

(٨) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (٢/٦٧)، التعريفات ص (٣٦)، التوقيف على مهمات التعاريف ص (٥٨).

وثَمَّةَ فرقٌ بين المبادرة والاستعجال من جهة الحقيقة والحكم:

أما من جهة الحقيقة: فَــ((العجلة طلب أخذ الشيء قبل وقته، فهو لشدة حرصه عليه بمترلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها كلها، فالمبادرة وسط بين خلقين مذمومين؛ أحدهما: التفريط والإضاعة، والثاني: الاستعجال قبل الوقت))[١].

وأما من جهة الحكم: فإن المبادرة ممدوحة في الشّرعِ والعقل ومندوب إليها، والاستعجال مذموم في الشّرعِ والعقل ومحذّرٌ منه، فعند التأمـــل في القـــرآن الكـــريم نجد أنَّ الله U يأمر عباده: ((بالتثبت وعدم العجلة في الأمور التي يخشى من سوء عواقبها، ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التي يخشى فواقما. وهذه القاعدة في القرآن كثير: قال تعالى في القسم الأول: O t u v w x y z { | N[٢]، وفي قراءة: Oفتثبتوا N، وقال تعالى: O / 0 1 2 3 4 5 6 N[٣] وقد عاتب الله المتسرعين إلى إذاعة الأخبار التي يخشى من إذاعتها، فقال تعالى: O Z [\ ] ^ _ ` a b d e f g h i j k l m n o N[٤] وقال تعالى: O µ ¶ لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ N[٥]))[٦].

وقد جاء الشرع بتحذير المسلم عن الاتصاف بالاستعجال وعدم التثبت في مختلف الأحوال والصور، كما أن العاقل الذي يطلب السلامة لدينه ودنياه يبتعد عن الاتصاف به، ((ولهذا كانت العجلة من الشيطان، فإنها خفة وطيش، وحِدَّة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها، وتجلب عليه أنواعا من الشرور

---

(١) الروح ص (٢٥٨).
(٢) سورة النساء، آية رقم (٩٤).
(٣) سورة الحجرات، آية رقم (٦).
(٤) سورة النساء، آية رقم (٨٣).
(٥) سورة يونس، آية رقم (٣٩).
(٦) القواعد الحسان في تفسير القرآن ص (٨٩، ٩٠).

وتمنعه أنواعا من الخير، وهي قرين الندامة، فَقَلَّ من استعجل إلا ندم))[١].

ومما يبيّن خطر الاستعجال وعدم التثبت وضرره وكونه من المعوّقات للمرء -فضلاً عن الداعية إلى الله- في دينه ودنياه ما يأتي:

١- أن الاستعجال من مقتضى الشهوة؛ فلذلك صار مذمومًا في عامَّة القرآن[٢].

٢- أنه من أعظم أسباب عدم إدراك الأمور على حقائقها، والوقوع -من ثَمَّ- فيما لا يُحمَد من الأقوال والأفعال التي يندم عليها المرء أشدّ الندم، كما في قوله تعالى: O / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? N[٣]، فبيّنت الآية الكريمة أن في الاستعجال في قبول خبر الفاسق مجرّدًا دون تثبّت ((خطرًا كبيرًا، ووقوعًا في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل حُكِم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سببًا للندامة))[٤]، وبذلك يظهر أن الاستعجال مناقِض للتثبت الذي أمر الله به، فإن ((المراد من التبيُّن: التعرف والتفحص، ومن التثبت: الأناة وعدم العجلة والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر))[٥].

٣- أنه من موانع استجابة الدعاء، كما في قول النبي r : ((يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي))[٦]، والمراد من ذلك: أنّه ((يسأم الدعاء ويتركه فيكون كالْمانِّ بدعائه، وأنه قد أتى من الدعاء ما كان يستحق به الإجابة، فيصير كالمبخِّل لربّ كريم لا تعجزه الإجابة، ولا ينقصه العطاء، ولا تضره الذنوب، وإنما يعجل العبد إذا

---

(١) الروح ص(٢٥٨).

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (٢/٦٧).

(٣) سورة الحجرات، آية رقم (٦).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص(٧٩٩).

(٥) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم النفسير (٥/ ٨٦).

(٦) صحيح البخاري (٨/٩٢) رقم (٦٣٤٠)، وصحيح مسلم (٨/٨٧) رقم (٧١١٠).

كان غرضه من الدعاء نيل ما سأل، وإذا لم ينل ما يريد ثقل عليه الدعاء))[١].

٤- وقد نهى الله U نبيّه محمّدًا r عن الاستعجال فقال: Oوَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْN[٢]، ((أي: لا تستعجل العذاب -يا محمد للكفار-. لمَّا أمره سبحانه بالصبر، ونهاه عن استعجال العذاب لقومه؛ رجاء أن يؤمنوا))[٣]، ففي الآية أثرٌ من أسوأ آثار الاستعجال، وهو عدم حصول هداية المدعويين.

٥- أنَّ الاستعجال وعدم التثبّت من أسباب الوقوع في الكذب، فقد قال النبي r: ((كفى بالمرء كذبًا أنْ يحدّثَ بكل ما سمع))[٤]، ومراد النبي r من ذلك: ((أنَّ من حَدّثَ بكل ما سمع حصل له الحظ الكافي من الكذب؛ فإن الإنسان يسمع الغث والسمين والصحيح والسقيم، فإذا حدث بكل ذلك حدَّث بالسقيم وبالكذب، ثم تحمل عنه، فيكذب في نفسه أو يكذب بسببه))[٥].

٦- أنه من عجائب الآثار السيئة للاستعجال: دعوة الإنسان على نفسه وولده وماله بالشرّ، كما قال U: O J K L M N P Q R N[٦]، أي: ((ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشرّ فيقول: اللهمّ أهلكه والعنه -عند ضجره وغضبه-، O كدعائه بالخيرN يقول: كدعائه ربه بأن يهب له العافية ويرزقه السلامة في نفسه وماله وولده، يقول: فلو استجيب له في دعائه على نفسه وماله وولده بالشرّ كما يستجاب له في الخير هلك، ولكن الله بفضله لا يستجيب له في ذلك))[٧].

كما أنَّ الاستعجال نوعٌ من السّفه، قال الحسن[٨] بن عليّ -رضي اللّه عنهما-:

---

(١) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/١٠٠).

(٢) سورة الأحقاف، آية رقم (٣٥).

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم النفسير (٥/ ٣٩).

(٤) صحيح مسلم، حديث رقم (١/٨) رقم (٧).

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (١/١١٧).

(٦) سورة الإسراء، آية رقم (١١).

(٧) جامع البيان عن تأويل القرآن (١٤/ ٥١٢).

(٨) الحسن بن علي بن أبي طالب، ابن عبدالمطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، الإمام السيد، ريحانة =

((اعلموا أنّ الحلم زينة، والوفاء مروءة، والعجلة سفه...))[١].

وما أجمل كلام الحافظ ابن حجر حين قال: ((إن الذي يتصدى لضبط الوقائع[٢] يلزمه التحري في النقل فلا يجزم إلا بما يتحققه، ولا يكتفي بالقول الشائع، ولا سيما إن ترتب على ذلك مفسدة من الطعن في حق أحد من أهل العلم والصلاح، وإن كان في الواقعة أمر فادح[٣] في حق المستور فينبغي ألا يبالغ في إفشائه، ويكتفي بالإشارة لئلا يكون قد وقعت منه فلتة، فإذا ضُبِطَت عليه لزمه عارها أبدًا، ولذلك يحتاج المسلم أن يكون عارفًا بمقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم، فلا يرفع الوضيع، ولا يضع الرفيع))[٤].

وفي حادثة الإفك جاءت الآيات القرآنية مقرِّرة التحذير من الاستعجال وعدم التثبت، ومبيِّنة خطره وضرره في العاجل والآجل، والدين والدنيا، بمختلف الأساليب اللغوية البلاغية؛ مما يقرِّر كونه من أعظم المعوِّقات للداعية:

١- ففي قوله تعالى: O B C D E F G H I J K L M N[٥]

تربية وتعليم من الله U المؤمنين على التثبت فيما يُتنَاقَلُ على ألسنة البشر، وعدم الاستعجال في الإخبار به، وأنه لا ينبغي لمن صفتهم الإيمان بالله تعالى أن تكون هذه أخلاقهم، بل ((كان

=

رسول الله r وسبطه، وسيد شباب أهل الجنة، أبو محمد القرشي الهاشمي المدني الشهيد، مولده في شعبان سنة ثلاث من الهجرة، وقيل: في نصف رمضانها، وعق عنه جده بكبش، وحفظ عن جده أحاديث، وعن أبيه، وأمه، توفي سنة ٤٩، وقيل سنة ٥٠، وقيل ٥١، وغلظ أبو نعيم الملائي، وقال: سنة ٥٨. سير أعلام النبلاء (٣/٢٤٥).

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٢٥٩)، من حديث الحرمازي قال: خطب الحسن بن علي بالكوفة؛ فقال: "اعلموا يا أهل الكوفة أن الحلم..." فذكره.

(٢) من الأقوال والأفعال والرجال.

(٣) سواء كان قولاً أو فعلاً أو موقفًا.

(٤) نقله الحافظ السخاوي في كتابه التبر المسبوك في ذيل الملوك (ص ٤)، عن شيخه الحافظ ابن حجر العسقلاني -رحمهما الله تعالى-، بتصرف يسير.

(٥) سورة النور، آية رقم (١٢).

ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم فذلك في عائشة وصفوان أبعد))[١]، والمعنى: هلا كان منكم -وأنتم تسمعون ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين- أن يظن بعضكم ببعضٍ خيرًا، وأن تقيسوا ذلك الكلام على أنفسكم، فإن كان لا يليق بكم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى؟، وهلا ظننتم الخير؟، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن، وتقولون بألسنتكم: إنَّ ذلك كذب ظاهر على أم المؤمنين، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله r بين أظهركم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا -لو قدر- خفية مستورا، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة[٢].

وفي هذا توبيخ على عدم إعمالهم النظر في تكذيب قولٍ ينادي حاله ببهتانه، وعلى سكوتهم عليه وعدم إنكاره، وفيه تعريض بحرصهم على تلقي هذا الخبر، فهم حين يتلقونه يبادرون بالإخبار به بلا تروٍّ ولا تريثٍ، وهذا تعريضٌ بالتوبيخ أيضًا[٣].

كما أن التصريح بلفظ (الإيمان) في الآية فيه توبيخ على الاستعجال وعدم التثبت في مثل هذا المقام، وذلك أن الاشتراك في الإيمان يقتضي أن لا يصدق مؤمنٌ على أخيه وأخته في الدين، ولا مؤمنةٌ على أخيها وأختها في الدين؛ قولَ عائب ولا طاعن.

وفيه أيضًا قاعدة من قواعد إبطال الاستعجال، وهي: التنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في مؤمن أن يبني الأمر فيها على الظن لا على الشك، ثم ينظر في قرائن الأحوال وصلاحية المقام، فإذا نسب سوء إلى من عرف بالخير ظن أن ذلك إفك وبهتان حتى يتضح

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠٢/١٢).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٢٧/٦).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٧٥/١٨، ١٧٨).

البرهان[١].

٢- وفي قوله سبحانه: O O P Q R S U V W X Y Z [\ ] N[٢] ((يقول تعالى ذكره: هلا جاء هؤلاء العصبة الذين جاءوا بالإفك، ورموا عائشة بالبهتان؛ بأربعة شهداء يشهدون على مقالتهم فيها وما رَمَوها به، فإذا لم يأتوا بالشهداء الأربعة على حقيقة ما رَمَوْها به فإن العُصْبة الذين رَمَوها بذلك عند الله هم الكاذبون فيما جاءوا به من الإفك))[٣]، وفي هذا تقرير قاعدة عظيمة من قواعد إبطال الاستعجال، وهي: ((أن الذي يخبر خبرا عن غير مشاهدة يجب أن يستند في خبره إلى إخبار مشاهد، ويجب كون المشاهدين المخبرين عددا يفيد خبرهم الصدق في مثل الخبر الذي أخبروا به، فالذين جاءوا بالإفك اختلقوه من سوء ظنونهم، فلم يستندوا إلى مشاهدة ما أخبروا به، ولا إلى شهادة من شاهدوه ممن يقبل مثلهم؛ فكان خبرهم إفكًا))[٤].

٣- وفي قوله تعالى: O _ ` a b c d e f g h i j k l m N[٥] بيانٌ لأثرِ خطير من آثار الاستعجال وعدم التثبت، فقد بيّنت الآية الكريمة أنه بسبب التعجّلِ وعدم التثبّتِ كاد أنْ يهلكَ المؤمنون الخائضون في الإفك، والمعنى: ولولا ما امتن الله به عليكم من فضل ورحمة -أيها الخائضون في أمر عائشة، المُشِيعُون فيها الكذب والإثم- بتركه تعجيل عقوبتكم O c N إياكم لعفوه عنكم Od e f N بقبول توبتكم مما كان منكم في ذلك O g h i N خضتم فيه من أمرها عاجلا في الدنيا O l m N[٦].

٤- وفي قـــوله تعالى: Oo p q r s t u v w x y z {

(١) انظر: المصدر السابق (١٨/١٧٥).

(٢) سورة النور، آية رقم (١٣).

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/ ٢١٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/١٧٥).

(٥) سورة النور، آية رقم (١٤).

(٦) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/ ٢١٤).

| { ~ N[١] عتاب من الله U لمن خاض في الإفك من المؤمنين على استعجالهم وعدم تثبّتهم في تلقي خبر الإفك، والقول به باللسان دون ما في القلب، والقول بغير علم ويقين وتثبّت، وبيان أنهم يحسبون أنَّ ما قاموا به هين يسير لا يلحقهم فيه إثم، بينما هو عند الله عظيم[٢].

لقد كان في هذه الآيات الكريمات الواردة في حادثة الإفك أعظم تنبيه وبيان وتقرير على خطورة الاستعجال وعدم التثبت، وعلى كونه من أعظم المعوقات في الدعوة إلى الله، وذلك مما يوجب على الداعية إلى الله أن يعمل بما اشتملت عليه الآيات من الدروس والعبر، ومنها:

١- يحذرُ الداعية إلى الله تعالى أشدَّ الحذر من الحكم على أي أمر يرِدُ إليه دون تثبّتٍ أو تروٍّ؛ لأن ذلك يسبب له التوبيخ والتكذيب.

٢- يتجنّبُ الداعية إلى الله تعالى تقديم الظنَّ السيئ بالمؤمنين، خاصّةً في المواقف التي لا تحتمل التّهمة؛ لأنّه بذلك يُعرضُ نفسه للعتاب، وبالتالي يقلُّ تأثيره في المدعوين، وكفى بذلك ندمًا.

٣- يحذر الداعية من الاستعجال وعدم التثبّتِ خاصّةً في الأمور التي تتعلّق بأعراض المسلمين؛ لأنَّ ذلك سبب للعذاب العظيم، ولأنَّ ذلك مخالفٌ لما يقتضيه الإيمان.

٤- يتجنّبُ الداعية إلى الله تعالى بناء تصوراته أو أحكامه على الظنِّ والحسبان، دون وجود قرائن قويّة تؤيّد تصوره أو ظنّه.

٥- قد يمرُّ على الداعية في طريقه الدعوي موقف يشابه ذلك الحدث المؤلم، فيجب عليه حينها أن يعلم أنَّه سيُحاسَب على كلمته أو حكمه الذي قد يقوله، فيحذر من الاستعجال والحكم على ما يراه أو يسمعه دون بيّنة أو قرينة قويّةٍ تؤيّدُ ما قد يقوله أو يحكم به.

٦- من القواعد الجليلة التي تحفظ الداعية إلى الله من الاستعجال وعدم التثبت:

---

(١) سورة النور، آية رقم (١٥).
(٢) انظر: الجامع لأحام القرآن (٢٠٤/١٢)، تفسير القرآن العظيم (٢٨/٦).

١) ((وجوب حسن الاعتقاد في المؤمنين، ومحبة الخير والصلاح، والزجر عن إشهار الفاحشة واستنباطها بدقائق الحيل والحكم بالظن))[١].

٢) ((الواجب لمن كان ظاهره العدالة أن يظن به خيرا ولا يقوم مستبشرا، وهو يوجب أن يكون أمور المسلمين في عقودهم وأفعالهم وسائر تصرفهم محمولة على الصحة والجواز، وأنه غير جائز حملها على الفساد، وعلى ما لا يجوز فعله بالظن والحسبان))[٢].

٧- الداعية إلى الله تعالى مطلوب منه التثبت وعدم العجلة فيما يسمع من الأخبار، وبخاصة الأخبار المحتملة التي لا يقطع بصدقها ولا كذبها ولا يعلم مصدرها، وكذلك الأخبار التي يكون مصدرها غير موثوق به.

" " "

(١) أحكام القرآن لعلي بن محمد الكياهراسي (٣٠٩/٤).
(٢) أحكام القرآن للجصاص (١٦١/٥) .

المبحث الثالث

الحميّة ونصرة القبيلة

الحميّة -إذا تمكّنت من القلب- أفسدت أخلاق الدين القويم، فيمتنع صاحبها من الإعانة والنصرة الواجبة عليه في الكتاب والسّنة والإجماع، إما محاباة، أو حميّة لذلك الظالم، وكم عطّلت هذه الحميّة الجاهليّة من حدود، وضيّعت من حقوق، وأكلَ بسببها القوي الضعيف!، ((وهذا يقع كثيرًا في الرؤساء من أهل البادية والحاضرة، إذا استجار بهم مستجير، أو كان بينهما قرابة أو صداقة، فإنهم يرون الحمية الجاهلية، والعزة بالإثم، والسمعة عند الأوباش[١]: أنهم ينصرونه -وإن كان ظالمًا مبطلا- على المحق المظلوم؛ لا سيما إن كان المظلوم رئيسا يناديهم ويناويهم، فيرون في تسليم المستجير بهم إلى من يناويهم ذلاً أو عجزًا؛ وهذا -على الإطلاق- جاهلية محضة. وهي من أكبر أسباب فساد الدين والدنيا))[٢].

و(الحميَّة) في اللغة: مَصدر الفِعْلِ الثلاثيِّ المجرَّد (حَمِيَ)، يقال: (حَمِيتُ من الشيء، وحَمَيْتُ، أَحْمَى، حَمِيَّةً): أنِفْتُ وغَضِبتُ[٣]، وأصل مادته: الحاء والميم والياء؛ وهو يدلُّ على: الحرارة المتولِّدَة من القوَّة الحارَّة في البَدَن[٤]، و(الحميَّة): الأنَفَة والغَيرة[٥]، يُقال: (إنَّه لرجلٌ حَمِيٌّ): لا يحتمِل الضَّيْم، ويقال (فلان ذو حميَّة منكرة): إذا كان ذا غَضَب وأنَفةٍ[٦].

و(الحميَّة) في الاصطلاح: عُرِّفت بأنها "المحافظة على المَحْرَم والدِّين من التُّهمة"[٧]، إلا أن هذا التعريف لا يشمل جميع صُور الحمية وأنواعها، فقد بيّن الله في كتابه -كما سيأتي-

(١) الأوباش: الأخلاط والسفلة. تاج العروس من جواهر القاموس (١٧/٤٣٧).

(٢) السياسة الشرعيّة في إصلاح الراعي والرعية ص (١١٣).

(٣) العين (٣/٣١٢)، تهذيب اللغة (٥/٢٧٤)، المحيط في اللغة (٣/٢٣٠).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن (١/٢٦٧).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٤٤٧)، المصباح المنير (١/١٥٣).

(٦) تهذيب اللغة (٥/ ٢٧٤).

(٧) التعريفات ص (١٢٦)، وبنحوه في معجم مقاليد العلوم ص (٢٠٣)، والتوقيف على مهمات التعاريف ص (٢٠٧)، واعتمدَه مجمع اللغة العربية -كما في المعجم الوسيط (١/ ٢٠١)-.

أن من الحمية ما تكون حقيقته الأَنَفَة عن اتباع الحق، ومنها ما يكون الدافع له الأَنَفة عن الأَنَفَة عن قبول الحق؛ ومن ثمَّ فيمكن تعريف الحمية تعريفًا أوسَع وأشمل، بأن نقول: هي الأَنَفَة والغَيرة التي تدفع صاحِبَها إلى الانتصار لنفسِه أو دينِه أو مَن يلزمه أمرُه، سواء كان في حقٍّ أو باطلٍ.

وهناك فرقٌ بَيّنٌ بَيْنَ ((الحمية لله، والحمية للنفس، فالأولى يثيرها تعظيم الأمر والآمر، والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها، فالحمية لله أن يحمى المؤمن قلبه لله، وذلك بتعظيم حقوقه، وهي حال عبدٍ قد أشرق على قلبه نورُ سلطان الله فامتلأ قلبه بذلك النور، فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذي ألقي على قلبه))[١].

فالمراد بالحمية هنا: الحميّة للباطل كنصرة الظالم على المظلوم لكون الظالم قريبًا في النسب أو مشاكِلاً في الدين أو الصنعة ونحو ذلك، أو الحمية بالباطل كقول الزور وإنكار الحق ونحو ذلك لنصرة الباطل.

وقد دلّ الكتاب والسنة على أن الحميّة للباطل عمومًا، والحمية للقبيلة خصوصًا بنصرها بالباطل، محذّرٌ منها شرعًا، كما في الأدلة الآتية:

١- قال تعالى: bO c d e f g h i j k l m n o p q N[٢]، ففي الآية بيان أن الحمية بالباطل من صفات الجاهلية المنكرة التي جاء الإسلام بإبطالها ومحاربتها والقضاء عليها ودعوة المسلمين إلى نبذها والبعد عنها[٣]، وأنها من صفات أهل الكفر والشرك المحاربين للحق، وفي ذلك ذم شديد أكيد لها، فإن ((المتأمل في هذه الآية الكريمة يرى ألوانا من المقابلات التي تدل على مدح اللّه تعالى للمؤمنين، وعلى احتقاره للكافرين:

فقد عبر سبحانه في جانب الكافرين بكلمة (جعل) التي تشعر بأن الكافرين كأنهم قد ألقوا هذه الحمية الجاهلية في قلوبهم إلقاء بدون تعقل أو تدبر، بينما عبر في جانب المؤمنين

---

(١) الروح ص(٢٣٤).

(٢) سورة الفتح، آية رقم (٢٦).

(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ص (٦٩).

بكلمة (أنزل) التي تشعر كأنَّ السكينة كانت في خزائنه تعالى ثم أنزلها بعد ذلك على قلب رسوله r وعلى قلوب المؤمنين، ليزدادوا إيمانا على إيمانهم.

ونرى الفاعل لِـ(جعل) هو (الذين كفروا)، بينما الفاعل لِـ(أنزل) هو (اللّه) U.

ونرى المفعول لِـ(جعل) هو الحمية، وهي كلمة مُشْتَعِلة مُنَفِّرة، وقد كررها سبحانه ليزداد العقلاء نفورًا منها، ونرى المفعول لِـ(أنزل) هو السكينة، وهي كلمة فيها ما فيها من الوقار والسكون والثبات والطمأنينة.

ونرى (الحمية) قد أضيفت إلى (الجاهلية)، بينما السكينة أضيفت إلى (اللّه) تعالى.

ونرى أن اللّه تعالى قد أضاف كل ذلك مدحا عظيمًا لعباده المؤمنين حيث ألزمهم كلمة التقوى، وجعلهم أحق بها وأهلا لها دون أعدائهم الذين آثروا الغي على الرشد، والباطل على الحق، وفي ذلك ما فيه من الثناء على المؤمنين والتحقير للكافرين))[١].

٢- وقال النبي r: ((ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية))[٢] ومما تشتمل عليه (دعوى الجاهلية): نصرةُ القبيلة والحميةُ لها بالباطل[٣].

٣- وقال r: ((من تعزّى بعزاء الجاهليّة فأَعِضّوه بِهَنِ أبيه[٤]، ولا تكنوا))[٥]، ففيه أبلغ تشنيع على من دعا إلى الحمية ونصرة القبيلة بالباطل[٦].

٤- وقال r: ((أربعٌ في أمتي من أمر الجاهليّة لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة))[٧]. ففيه ذَمٌّ لهذه الأمور الأربعة -ومنها: الفخر بالأحساب- بأنها من أمور الجاهلية، وإذا كان ذلك فيمن افتخر بحسبه

(١) التفسير الوسيط (٢٨٢/١٣).
(٢) أخرجه البخاري (١٠٣/٢) رقم (١٢٩٧).
(٣) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣٢٦/٩).
(٤) الهن: الذكر. أي قولوا له: اعضض ذكر أبيك. ولا تكنوا: أي: صرّحوا بلفظ الذكر بدون كناية. انظر: شرح السنّة (١٢١/١٣).
(٥) أخرجه النسائي (١٣٦/٨) رقم (٨٨١٣).
(٦) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣٥٧/١).
(٧) أخرجه مسلم (٤٥/٣) رقم (٢٢٠٣).

وحسب فكيف بمن أخذته الحمية لنسبه وقبيلته بالباطل؟، لا شك أن ذلك أعظم إثمًا وأفحش جرمًا.

٥- وقال r : ((إن الله U قد أذهب عنكم عُبِّيَّة[١] الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان[٢] التي تدفع بأنفها النتن))[٣]، ففيه بيان شناعة وخطورة الحمية ونصرة القبيلة بالباطل من خلال آثارها ونتائجها السيئة.

وفي حادثة الإفك كاد مكر المنافقين أن يؤتي أكله بين الأوس والخزرج من خلال ما حصل بين سعد بن معاذ (سيد الأوس) وسعد بن عبادة (سيد الخزرج) -رضي الله عنهما-:

فسعد بن معاذ t حين أعلن نصره القاطع وموافقته التامة لما يراه رسول الله كان فعله هذا من قبيل الحمية المحمودة التي هي لله سبحانه ورسوله، ولا شك البتة في أن ((الحمية لله ورسوله لا تذم))[٤]، وقوله t : ((إن كان من الأوس ضربت عنقه)) إنما قاله لأن الأوس قومه، و لم يقل: من الخزرج لما كان بين الأوس والخزرج من التشاحن قبل الإسلام، ثم زال بالإسلام وبقي بعضه بحكم الأنفة، ولكنه ذكر أنه إن كان من الخزرج فلرسول الله r أن يأمر فيه بما شاء.

وسعد بن عبادة t نظر إلى أن الأوسيَّ يرى أن من كان من الخزرج فهو ضعيفٌ لا حامي له، فلحق به وبأهل قبيلته هوانٌ وذلٌّ، فأخذته الحميَّةُ، فقال ما قال.

وقول سعد بن عبادة: ((لا تقدر على قتله)) -مع أن سعد بن معاذ لم يقل بقتله كما قال في حق من يكون من الأوس- لأنه فهم أن قول سعد بن معاذ: ((أمرتنا بأمرك)) أي: إن أمرتنا بأمرك (أي: أمرتنا بقتله) قتلناه، وإن أمرت قومه بقتله قتلوه، فنفى سعد بن عبادة قدرة سعد بن معاذ على قتله إن كان من الخزرج؛ لعلمه أن النبي r لا يأمر غير قومه بقتله

---

(١) عُبِّيَّة: أي: الكِبْرَ. لسان العرب (٥٧٤/١).

(٢) الجعلان: حيوان معروف كالخنفساء. لسان العرب (١١٠/١١).

(٣) أخرجه أبو داود -واللفظ له- (٤٩٢/٤) رقم(٥١١٨)، والترمذي (٧٣٤/٥، ٧٣٥) رقم (٣٩٥٥، ٣٩٥٦)، وحسّنه الألباني في غاية المرام (٣١٢).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٨٠/٨).

فكأنه أيأسه من مباشرة قتله، وذلك بحكم الحمية التي أشارت إليها عائشة، ولا يلزم من ذلك أنه يردُّ أمر النبي r بقتله ولا يمتثله -حاشا لسعد من ذلك-[١].

ولم يُرِد سعد بن عبادة بقوله هذا الرضا بما نُقِل عن عبد الله بن أبي وغيره ممن خاض في الإفك من الخزرج، وإنما بمعنى قول عائشة: ((وكان قبل ذلك رجلا صالحا)) أي: لم يتقدم منه ما يتعلق بالوقوف مع شيء من علائق الحمية، ولم ترد أنه ناضل عن المنافقين[٢].

وفي موقفٍ آخر في حادثة الإفك كانت حمنة بنت جحش -رضي الله عنها- ممن خاض في الإفك حميّة لأختها أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله عنها-، فشرعت تحارب لأختها وتخوض فيما قاله أهل الإفك؛ لتنخفض منزلة عائشة وترتفع منزلة أختها زينب عند النبي r[٣].

لقد كان موقفا الصحابيين سعد بن عبادة وحمنة بنت جحش -رضي الله عنهما- دليلاً واضحًا على الحمية وأنها من أعظم معوقات الدعوة والدعاة، وفي ذلك فوائد ودروس دعوية عديدة، منها:

١- الداعية إلى الله تعالى يَنْظُرُ إليه المدعوّونَ منظرَ القدوة، ولذلك يحذر أشدَّ الحذر من الحمية ونصرة القبيلة بالباطل.

٢- حين يتّصَفُ الداعية بالحمية ونصرة القبيلة بالباطل فإنّه يهدمُ المُثُل الرفيعة، ويُشوِّه صورة الدعاة لدى المدعوين، ويكون سببًا في ردِّ ورفض ما يدعو إليه من خيرٍ غالبًا.

٣- من أعظم ما ينهض بالمجتمع ويرقى به: ترابطه ووحدته وإحساس أفراده بالمساواة وفق ما جاءت به الشريعة، فإذا اتصفَ الداعية بالحمية ونصرة القبيلة بالباطل كان معولَ هَدمٍ في المجتمع، يفرِّق ولا يجمع، وينفِّر ولا يبشِّر، وينصر الباطل أو يكون عونًا له أو مانعًا من انتصار الحق وتنفيذه، وهذا كله من خوارم الإخلاص، ونواقص الصلاح، ونواقض

---

(١) انظر: المصدر السابق (٤٧٣/٨).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٣/٨)، فيض الباري شرح البخاري (٤٨٠/٨)، حاشيّة السندي على صحيح البخاري (١٦/٣).

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٩/ ١٢١).

صحة الدعوة، ودليل على أنه يسعى لحظ نفسه وليس لاتباع أمر الله ورسوله.

٤- لو قَدّر الله U على الداعية إلى الله موقفًا يستثير لديه الحمية ونصرة القبيلة بالباطل، وأحسَّ من نفسه ضعفًا واضطرابًا؛ فإنّه يُقدّمُ مرادَ الله U على مراد نفسه، ويضع الأنفة تحتَ أقدامه، طاعة لله U ورسوله r ، فيكون داعيًا إلى الصفات الحميدة قولاً وعملاً.

^ ^ ^

الفصل السادس

الوسائل والأساليب الدعوية في حادثة الإفك

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: الحكمة.

المبحث الثاني: الموعظة الحسنة.

المبحث الثالث: ضرب المثل.

المبحث الرابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الخامس: الترغيب والترهيب.

المبحث السادس: الخطابة.

المبحث الأول

الحكمة

((كمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قُوَّتيه العلمية والعملية، فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك))(١).

و(الحِكْمَة) في اللغة: اسْم مُشتَقٌّ من الفِعْلِ الثلاثيِّ المجرَّد (حَكَمَ)، وأصل مادته: الحاء والكاف والميم؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على: المَنْع لإصلاح. ومن ذلك: (الحُكْم) وهو: المَنْع من الظُّلم، ومنه سمِّيَتْ (حَكَمَة) الدابّة بذلك؛ لأنها تمنعُها، يقال: (حَكَمتُ) الدابةَ و(أحْكَمتها)، ويُقال: (حَكَمتُ) السفيه (وأحكمته): أخذتُ على يدَيه(٢)، وكُلُّ شَيْءٍ مَنَعْته من الفَسَادِ أو عمَّا يريد فقد (حَكَمْته)، و(أحْكَمْت) الشيء (فاستحكَمَ): أتقنته(٣)، ولذلك كان من معاني (الحِكْمَة): العَدْل، والعِلْم، والحِلْم، والنُّبوَّة، والقرآن(٤).

وفي الاصطلاح: إصابة الحقِّ بالعِلْم والعَقل(٥)، وقيل: معرفة أفضَل الأشياء بأفضَل العُلُوم، وقيل: ((هي اللمُّ بالحق والعمل به))(٦)، وقيل: كلُّ كلمة وعظَتْك وزجرَتْك، ودعَتْك إلى مَكْرُمَة، أو نهَتْك عن قبيح؛ فهي حِكْمَة وحُكم(٧)، وكل هذه التعريفات من باب تعريف

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص(١١٥).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١٩٠٣/٥)، معجم مقاييس اللغة (٩١/٢)، مفردات ألفاظ القرآن (٢٥١/١).

(٣) تهذيب اللغة (١١١/٤، ١١٢)، معجم مقاييس اللغة (٩١/٢)، المحيط في اللغة (٣٨٧/٢)، المحكم والمحيط الأعظم (٥٠/٣)، القاموس المحيط ص (١٤١٥).

(٤) العين (٦٦/٣)، المحكم والمحيط الأعظم (٥٠/٣)، القاموس المحيط ص (١٤١٥).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن (٢٥٢/١).

(٦) الرد على المنطقيين ص(٤٦٨).

(٧) جمهرة اللغة (٥٦٤/١).

الشيء ببعض صفاته أو أنواعه، ولذلك يمكن التعبير عنها بعبارة مختصرة؛ فنقول: "الحِكْمَة: وَضْع الشيء في مَوْضِعِه"[١]، أو: "هي صَواب الأمر وسَداده"[٢].

((والحكمة حكمتان: علمية وعملية؛ فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خَلقًا وأمرًا قدرًا وشرعًا، والعملية...: وضع الشيء في موضعه))[٣].

وللحكمة مكانة عظيمة في الدين الإسلامي، ومنزلة رفيعة عند أولي الألباب، وقد دلّ الكتاب والسنة على ذلك، مما يبيّن أنها من أعظم الأساليب والوسائل الدعوية، ومما جاء في ذلك:

١- أنَّ الله U وصف القرآن الكريم بها، كما في قوله تعالى: O n o p q r s t N[٤]، ((O s N يعني: والقرآن O t N، يعني: ذي الحكمة الفاصلة بين الحقّ والباطل))[٥]، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: ((O t N الذي قد كَمُلَ في حكمته))[٦].

٢- وكما وصف الله بها كتابه فقد وصف بها سنة رسوله r، التي هي وحيٌ منه U، وهي الأصل الثاني في التشريع الإسلامي، قال تعالى: O كَمَآ أَرۡسَلۡنَا © رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ´ µ ¶ ¸ تَعۡلَمُونَN[٧]، ففي

(١) التعريفات ص (١٢٤)، الكليات ص (٣٨٢).

(٢) الكليات ص (٣٨٢).

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٤٧٨).

(٤) سورة آل عمران، آية رقم (٥٨)، ونظائرها في: سورة يونس، الآيتان رقم (١-٢)، وسورة لقمان، الآيتان رقم (١-٥).

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/ ٤٥٨).

(٦) المصدر السابق (٥/ ٤٥٩).

(٧) سورة البقرة، آية رقم (١٥١)، ونظائرها في سورة البقرة، آية رقم (٢٣١)، وآل عمران، آية رقم (٤٨)، وآية رقم (٨١)، وآية رقم (١٦٤)، وسورة المائدة، آية رقم (١١٠)، وسورة الأحزاب، آية رقم (٣٤)، وسورة الجمعة، آية رقم (٢).

هذه الآية ((يُذَكّرُ تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد r إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبينات ويزكيهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب (وهو القرآن)، والحكمة (وهي السنة)، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون))[١].

٣- وجعلها الله من مِنَنه العظيمة على العبد، فقال تعالى: O µ ¶ ¸ يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاN[٢]، ففي هذه الآية الكريمة بيان الفضل العظيم الذي خُصَّ به مَنْ مَنَّ الله عليه وآتاه الحكمة (وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها)، وأن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيرا كثيرا، وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما؟[٣].

٤- كما امتدح بها سبحانه بعض أوليائه الصالحين، فقال تعالى: O ! " # $ N[٤]، أي: ((ولقد آتينا لقمان الفقه في الدين والعقل والإصابة في القول))[٥].

٥- وجعلها الله من أهم ما ينبغي أن تتصف به الـــدعوة إلى الله، فأمر نبيّه r بها - وهو قدوة الدعاة-، فقال تعالى: O v w x y z { | N[٦]، ((يقول تعالى ذكره لنبيه محمد r: O v N يا محمد من أرسلك إليه ربك بالدعاء إلى طاعته O w x y N يقول: إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو الإسلام O z N يقول: بوحي الله الذي يوحيه إليك وكتابه الذي يترله عليك O { | N يقول: وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه، وذكّرهم بها في تتريله...))[٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٤٦٤).

(٢) سورة البقرة، آية رقم (٢٦٩).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص(١١٥).

(٤) سورة لقمان، آية رقم (١٢).

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/ ٥٤٥).

(٦) سورة النحل، آية رقم (١٢٥).

(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/ ٤٠٠).

٦- ودعا النبي r بها لبعض أصحابه، فقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: ((ضمني النبي r إلى صدره وقال: اللهم علمه الحكمة -وفي رواية الكتاب-))[١]، والأقرب أن المراد بها: الفهم في القرآن[٢]، وأيُّ أمرٍ يبلغ من الأهميّة مبلغ أهمية فهم الداعية نصوصَ القرآن الكريم؟.

٧- وجعلها النبي r إحدى خصلتين اثنتين توجِب لصاحبها أن يغبطه المسلمون عليها[٣]، فقال r: ((لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فَسُلِّطَ على هلكته في الحقِّ، ورجلٌ آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها))[٤].

وفي حادثة الإفك كانت مواقف أهل الإيمان مليئة باستعمال الحكمة والتعامل بها، ومن تلك المواقف:

من جانب النبي r:

١- كان ما فعله r مع زوجه عائشة -رضي الله عنها- حين كان يدخل عليها ويقول: ((كيف تيكم؟))، -هو- عينَ الحكمة في التعامل؛ لأنَّ فيه: ((ملاطفة الرجل زوجته وحسن المعاشرة))[٥]، فالداعية الحصيف لا تغيب عنه هذه الحكم في تعامله مع أهل بيته عند اشتداد البلاء ونزول المصائب.

٢- وفي هذا الموقف نفسه حكمة نبوية عظيمة من جهة أخرى، وهي: أنه إذا عرض للرجل عارض بأن سمع عن زوجه شيئا فإنه يقلل من اللطف ونحوه؛ لتفطن هي أن ذلك؛ لعارض؛ فتسأل عن سببه؛ فتزيله[٦].

٣- وفيه كذلك تطبيق نبوي عظيم للحكمة في الدعوة يستفيد منه الدعاة فائدة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥، ٣٧٥٦، ٧٢٧٠).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/١٧٠).

(٣) انظر: المصدر السابق (١٣/١٢١).

(٤) أخرجه البخاري (١/٢٥،٢٦) رقم (٧٣) -واللفظ له-، ومسلم (٢/٢٠١) رقم (١٩٣٣).

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/١١٧).

(٦) انظر: المصدر السابق (١٧/١١٧).

عظيمة، وهو: ((السؤال عن المريض، والإشارة إلى مراتب الهجران بالكلام والملاطفة، فإذا كان السبب محققا فيُترك أصلاً، وإن كان مظنونًا يخفف، وإن كان مشكوكًا فيه، أو محتملاً فيَحسُنُ التقليل منه لا للعمل بما قيل، بل لئلا يظن بصاحبه عدم المبالاة بما قيل في حقه؛ لأن ذلك من خوارم المروءة))(١).

٤- وتأمل حكمة النبي r في اختياره من يستشيرهم في أمر فراقِ زوجته عائشة -رضي الله عنها-، حيث كان الموقف يتطلّب صراحة وجرأة، فاختار r شابين هما: علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد -رضي الله عنهما-، ((وذلك أن للشاب من صفاء الذهن ما ليس لغيره، ولأنه أكثر جرأة على الجواب بما يظهر له من المسن؛ لأن المسن غالبًا يحسب العاقبة فربما أخفى ما يَظْهَرُ له رعايةً للقائلِ تارةً والمسئوول عنه أخرى))(٢).

٥- والموقف نفسه أبرز حكمةً أخرى من حِكَمِ النبي r ، فلم ينفرد برأيه مع أنه أكمل الخلق رأيًا وأصوبهم قرارًا، بل استشار في الأمر أقرب الناس منه، ومن له الفضل، واستشار من هو دونه وأصغر منه، وهذا الأمر يدل على أهمية استشارة المرء أهل بطانته ممن يلوذ به بقرابة وغيرها، وتخصيص من جربت صحة رأيه منهم بذلك ولو كان غيره أقرب، واستشارة الأعلى لمن هو دونه(٣).

٦- كما يَبْرُزُ لنا جانب آخر من الحكمة النبويّة في هذه الحادثة، وذلك في تعامله r مع المواقف الحرجة، فعندما ردَّ أسيد بن حضير على سعد بن عبادة -رضي الله عنهما- بقوله: ((كذبت -لعمر الله-، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين))، تَرَكَ النبي r الإنكار على أسيد بن حضير t ؛ لأن أسيدًا لم يُرِد نفاق الكفر، وإنما أراد أنه كان يظهر المودة للأوس ثم ظهر منه في هذه القصة ضد ذلك، فأشبه حال المنافق؛ لأن حقيقته إظهار شيء وإخفاء غيره، ولعل هذا هو السبب في ترك إنكار النبي r عليه))(٤).

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٩/٨).

(٢) المصدر السابق (٤٦٩/٨).

(٣) انظر: المصدر السابق (٤٨٠/٨).

(٤) المصدر السابق (٤٧٤/٨).

٧- وفيما فعله r من إشارته للصحابة y بالسكوت حين تثاور الأوس والخزرج، استخدام للحكمة في الدعوة، وهي: ((قطع الخصومة، وتسكين ثائرة الفتنة، وسد ذريعة ذلك، واحتمال أخف الضررين بزوال أغلظهما))(١)، وهذا الفعل هنا متضمن لأعلى مراتب الحكمة، حيث وقع بسببه إطفاء نار الفتنة التي كادت تُحْرِقُ المجتمع المؤمن بأسره.

٨- وفي تبشير النبي r عائشةَ ببراءتها حكمة دعوية عظيمة، وهي: ((تبشير من تجددت له نعمة أو اندفعت عنه نقمة، والضحك والفرح والاستبشار عند ذلك، ومعذرة من انزعج عند وقوع الشدة لصغر سن ونحوه))(٢).

٩- وفيه أيضًا حكمة دعوية عظيمة أخرى، هي: ((تدريج من وقع في مصيبة فزالت عنه لئلا يهجم على قلبه الفرح من أول وهله فيُهلكه، يؤخذ ذلك من ابتداء النبي r بعد نزول الوحي ببراءة عائشة بالضحك، ثم تبشيرها، ثم إعلامها ببراءتها مجملة، ثم تلاوته الآيات على وجهها، وقد نص الحكماء على أن من اشتد عليه العطش لا يُمَكّنُ من المبالغة في الري في الماء؛ لئلا يفضي به ذلك إلى الهلكة بل يُجَرّعُ قليلاً قليلا))(٣).

من جانب أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-:

١- كان من تعاملها بالحكمة: احترازها مما قد يُفْهَمُ من لفظها على غير الوجه الذي أرادتْ، يتضح ذلك في قولها عن صفوان بن المعطل t لما حملها على بعيره: ((واللهِ ما يُكَلِّمُني كلمةً))، حيث عبّرت بالفعل المضارع ((إشارةً إلى استمرار ترك الكلام، وتجدد هذا الاستمرار، فإنَّه قد يُفْهَمُ مِنَ التعبير بالماضي اختصاص النفي بحالةٍ، بخلاف الُمضارعِ))(٤).

٢- وفي قولها -رضي الله عنها-: ((فإن قلت لكم إني بريئة -والله U يعلم أني لبريئة-؛ لا تصدقوني بذلك! ولئن اعترفت لكم بأمر -والله U يعلم أني منه بريئة-؛ لتصدقوني!))، تعاملٌ بالحكمة يستفيد منه المؤمنون عامّةً، والدعاة خاصّةً، وهي: أنه ((لا

(١) المصدر السابق (٨/٤٨٠).
(٢) انظر: المصدر السابق (٨/٤٨١).
(٣) انظر: المصدر السابق (٨/٤٨١).
(٤) طرح التثريب (٨/٢٦٠).

يجب لأحد أن يعترف على نفسه بما لم يفعله وإن عَلِمَ أنه في إنكاره يُكَذّبْ وفي اعْتِرَافِهِ يُصَدّقْ لقرينة تدل على ذلك، بل لا يجب أن لا يقول إلا الحق))[(١)]، وكذلك تُرشِدُ بفعلها إلى ((أن الاعتراف بما فشا من الباطل لا يَحِلُّ ولا يَحْمُلُ))[(٢)].

من جانب الصحابة y:

١- أبرز صفوانُ بن المعطل t التعاملَ بالحكمة في المواقف الحرجة بما يناسب الحال، وذلك حين رأى أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- في الخلاء وحدها، فإنه لم يوقظها بندائه لها أو تكليمه إياها؛ صيانةً لحرمة النبي r، بل استرجع ورفع صوته بالاسترجاع حتى استيقظت بسبب ذلك[(٣)]، كما قالت: ((فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني)).

٢- وكان من التعامل بالحِكمة من على بن أبي طالب t أنّه قام إلى بريرة -رضي الله عنها- فضربها ضربًا شديدًا، وجعل يقول: أُصدقي رسول الله r؟، فتقول: والله لا أعلم إلا خيرًا، وما كنت أعيب على عائشة إلا أني كنت أعجن العجين فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله. فأظهر هذا الفعل من ذلك الصحابي الجليل أن من الحكمة استخدام شيء من السياسة في بعض المواقف التي تقتضيها للوصول إلى الغاية الشرعية الحميدة[(٤)].

٣- ومن التعامل بالحكمة لدى بريرة -رضي الله عنها- أنها لما أرادت بيان ما في عائشة -رضي الله عنها- من عيب (وهو نومها عن العجين) لم تبادر بذكر العيب، بل قدّمت لها العذر (وهو أنها حديثة السن)؛ مما يقتضي أن يكون ذلك العيب ليس عيبًا على الحقيقة؛ لأنه من طبيعة الإنسان في ذلك العمر[(٥)].

٤- ومما تتابع عليه أكثر الصحابة من التعامل بالحكمة: ((أن يُستر عن الإنسان ما

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢٩٩/٨).
(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤٠/٨).
(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١٤٧/٨).
(٤) انظر: تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام (٢٦٢/٤).
(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٨٠/٨).

يقال فيه إذا لم يكن في ذكره فائدة، كما كتموا عن عائشة -رضي الله عنها- هذا الأمر شهرًا))[١].

لقد كان التعامل بالحكمة ظاهرًا تمام الظهور في ذلك المجتمع المؤمن الذي هو محل الاقتداء والتأسي لكل داعية إلى الله، وكان في مواقفهم جملة من المواعظ والدروس والعبر، منها:

١- قراءة سيرة النبي r وسِيَر الصحابة الفضلاء، والتأمل في ردود أفعالهم في المواقف التي يتعرضون لها في العسر واليسر؛ من أعظم الموارد التي يستنبط منها الداعيةُ أسلوبَ الحكمة في الدعوة تقعيدًا وتعلُّمًا وتعليمًا وتطبيقًا.

٢- من أقوى عوامل نجاح الدعوة إلى الله تعالى اهتمام الداعية بأسلوب الحكمة في دعوته في مختلف الأحوال والظروف بحسب ما تقتضيه كل حال.

٣- حين يتحلّى الداعية بأسلوب الحكمة في دعوته فإنه يجني ثمارًا عظيمةً من خلال محبّةِ المدعوين له، ورَسْمِ صورة مُشْرِقَةٍ للدعوة ومن ينتسِبُ لها.

٤- الداعية وهو يقرأ هذه المواقف العصيبة التي مَرّتْ على النبي r ، وأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، وبقيّة الصحابةِ الفضلاء y في حادثة الإفك؛ يرى أن تعاملهم معها بأسلوب الحكمة كان دائمًا ومستمرًا مهما اختلفت بهم الأحوال، ولذلك فعليه أن يُعِدّ نفسه -وهو في مجال الدعوة إلى الله- لاستخدام أسلوب الحكمة لو قَدّرَ الله U عليه موقفًا يقارب تلك المواقف العصيبة في حادثة الإفك.

" " "

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١١٧/١٧).

المبحث الثاني

الموعظة الحسنة

((الناس يحتاجون إلى الموعظة الحسنة وإلى الحكمة، فلا بد من الدعوة بهذا وهذا))[١].

و(المَوْعِظَة) في اللغة: مَصدرٌ ميميٌّ للفِعْلِ الثلاثيِّ المجرَّد (وَعَظَ)، يقال: (وَعَظَ، يَعِظُ، وَعْظًا، ومَوْعِظَةً، وعِظَةً)، فاتَّعَظَ: قَبِل المَوْعِظَة[٢]، وأصل مادته: الواو والعين والظاء؛ وهو أصل واحدٌ؛ فالوَعْظ: التخويف، والعِظَة: الاسم منه. وهو: التَّذكير بالخير ونحوه ممَّا يرقُّ له قلبُه -من ثواب وعِقاب-[٣]، وقيل: الوَعْظ: زَجْرٌ مقتَرِن بتخويف[٤]، وقيل: النُّصح والتذكير بالعواقِب[٥].

و(الحَسَنَة): ضد السَّيِّئة، و(الحُسن): ضد القُبح، و(الحَسَن): ما حَسُن من كلِّ شيء[٦].

و(المَوْعِظَة الحَسَنَة) في الاصطلاح: المَوْعِظَة المشتملة على التَّرغيب في الحقِّ، والترهيب من الباطِل[٧]، ويمكن التعبير عنها بعبارة مختصرة؛ فنقول: الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة[٨].

وقد جاء في الكتاب والسنة ما يبين أهمية الموعظة الحسنة، وأنها من أنفع أساليب

---

(١) الرد على المنطقيين ص(٤٦٨).

(٢) العين (٢/٢٢٨)، تهذيب اللغة (٣/١٤٦)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣/١١٨٣)، المحكم والمحيط الأعظم (٢/٣٣٣).

(٣) العين (٢/٢٢٨)، تهذيب اللغة (٣/١٤٦)، معجم مقاييس اللغة (٦/١٢٦)، المحكم والمحيط الأعظم (٢/٣٣٣).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن (٢/٥٢٣).

(٥) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣/١١٨٣).

(٦) انظر: المحكم والمحيط الأعظم (٣/١٩٧، ١٩٨)، القاموس المحيط ص (١٥٣٥)

(٧) مجموع الفتاوي (١٩/١٦٤). وانظر: النكت والعيون (٣/٢٢٠)، معالم التتريل (٥/٥٢).

(٨) مفتاح دار السعادة (١/٤٧٥)، وانظر: مجموع الفتاوي (١٩/١٦٤).

ووسائل الدعوة إلى الله، ومن ذلك:

١- أن الله سبحانه وصف آياته في القرآن الكريم -بما تشتمل عليه من الأمر والنهي والزواجر والتذكير- بأنها موعظة، فقال تعالى: O = < ? @ A N[١]، والمراد بالموعظة هنا: ((التذكير والتخويف الذي ذكَّرهم وخوّفهم به في آي القرآن))[٢]، وقال تعالى: R O S T U V W X Y Z [\ ] ^ _ N[٣]، ((يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: O R S T U V W X Y Z [\ ] ^ _ N أي: زاجر عن الفواحش))[٤].

٢- وإذا تأملتَ أسلوب الأنبياء -عليهم السلام- في دعوتهم، وجدتَ الموعظة الحسنة هي السّمةَ البارزة فيها، ومن ذلك: أن نوحًا u أرسله الله U ليدعو قومه نذيرًا لهم وواعظًا كما فقال تعالى: O P Q R S T U V W X Y Z [\ ] N[٥]، فقام u بوعظهم وإرشادهم على أكمل وجه حين O _ ` a b c d e f g h i j N[٦]، فكانت موعظته بليغة، ((وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأي شيء تحصل النجاة، بيّنَ جميع ذلك بيانًا شافيًا، فأخبرهم وأمرهم بزبدة ما يأمرهم به فقال: O f g h i j N وذلك بإفراده تعالى بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم حصل لهم النجاة من العذاب، والفوز بالثواب))[٧].

٣- وهي كذلك أسلوبٌ مُطَّرِدٌ في دعوة الأولياء والصالحين، ومنهم:

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (٢٧٥).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/ ٤٤).

(٣) سورة يونس، آية رقم (٥٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٧٤).

(٥) سورة نوح، آية رقم (١).

(٦) سورة نوح، الآيتان رقم (٢-٣).

(٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص(٨٨٨).

● لقمان في موعظته لابنه: O 6 7 8 9 : ; < = > ? A B C D N[١]، أي: ((يخاطبه بالمواعظ التي ترغِّبه في التوحيد، وتصدّه عن الشرك، فبدأ في وعظه بنهيه عن الشرك لأنه أهمّ من غيره))[٢].

● ومؤمن آل فرعون في موعظته لقومه: O m n o p q r s t u v w x y z { | } ~ N[٣]، فكانت موعظته ((حرصا على نصح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به، وعلم ما رد به قومه عليهم، فقال لهم: O t u v N فأمرهم باتباعهم ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة، ثم ذكر تأييدًا لما شهد به ودعا إليه، فقال: O x y z { | N أي: اتبعوا من نصحكم نصحًا يعود إليكم بالخير، وليس يريد منكم أموالكم ولا أجرا على نصحه لكم وإرشاده إياكم، فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه. بقي أن يقال: فلعله يدعو ولا يأخذ أجرة، ولكنه ليس على الحق، فدفع هذا الاحتراز بقوله: O { ~ N لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه، ولا ينهون إلا بما يشهد العقل الصحيح بقبحه))[٤].

٤- وأمر الله U نبيّه بالتّحلي بها في الدعوة إلى الله، فقال في كتابه العزيز: O v w x y z { N[٥]، ((يقول تعالى ذكره لنبيه محمد r: O v N يا محمد من أرسلك إليه ربك بالدعاء إلى طاعته O w x y N يقول: إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو الإسلام O z N يقول بوحي الله الذي يوحيه إليك وكتابه الذي يتزله عليك O { | N يقول: وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه، وذكّرهم بها في تتزيله، كالتي عدّد عليهم في هذه السورة من حججه، وذكّرهم فيها ما ذكرهم من آلائه))[٦].

---

(١) سورة لقمان، آية رقم (١٣).
(٢) انظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم النفسير (٤/ ٣٣٨).
(٣) سورة يس، الآيتان رقم (٢٠-٢١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص(٦٩٣).
(٥) سورة النحل، آية رقم (١٢٥).
(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/ ٤٠٠).

٥- كما أمره ربه بأن يتحلّى بها مع طائفة هي مِنْ ألدِّ أعداء الدين الحنيف (وهم المنافقون)، حيث قَنَعَت أنفسهم بتحكيم الطاغوت وتقديمه على تحكيم رسول الله r، وأظهروا له حُسنَ نواياهم، ومع اتصافهم بذلك قال الله U لنبيه r: O a b c d e f g h i j k l m n o p N[1]، أي: ((هؤلاء المنافقون الذين وصفت لك -يا محمد- صفتهم O c d e f g N في احتكامهم إلى الطاغوت، وتركهم الاحتكام إليك، وصدودهم عنك من النفاق والزيغ، وإن حلفوا بالله: ما أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا O h i j N يقول: فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم، ولكن عظهم بتخويفك إياهم بأسَ الله أن يحلّ بهم، وعقوبته أن تنزل بدارهم، وحذِّرهم من مكروهِ ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله، O k l m n o p N يقول: مرهم باتقاء الله والتصديق به وبرسوله ووعده ووعيده)).

٦- وكان النبي r في دعوته يسلُكُ أسلوب الموعظة الحسنة في كثير من المناسبات، ففي حديث العرباض بن سارية t[2] قال: ((وعظنا رسول الله r موعظةً، ذرفت[3] منها العيون، ووجلت[4] منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إنَّ هذه لموعظة مُوَدِّعٍ، فما تعهد إلينا؟، قال: قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالكٌ، فمن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإن عبدًا حبشيا، فإنما المؤمن كالجمل الأنِف[5]، حيثما قيد انقاد))[6].

---

(١) سورة النساء، آية رقم (٦٣).

(٢) عِرْباض بن سارية، السلمي، أبو نجيح، صحابي مشهور، من أهل الصُّفَّة، من قدماء مَن أسلموا من الصحابة. توفي سنة ٧٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤١٩)، الإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٤٨٢).

(٣) ذرفت العين، تذرِف: إذا جرى دمعها. النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ١٥٩).

(٤) الوَجَل: الفَزَع، وقد وَجَلَ يَوْجَل ويَيْجَل فهو وَجِل. المصدر السابق (٥/ ١٥٦).

(٥) الجمل الأنِف: المأنوف، وهو: الذي عقَرَ الخِشاش أنفه؛ فهو لا يمتنع على قائده للوَجَع الذي به. وقيل: الأنِف: الذَّلول. يقال: أنِفَ البعير، يأنَف، أنَفًا، فهو أنِف: إذا اشتكى أنفه من الخِشاش. المصدر السابق (١/ ٧٥).

(٦) أخرجه ابن ماجة (١/١٦) رقم (٤٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٧).

وعن أبي سعيد الخدريّ t [١] قال: ((قالت النّساء للنّبيّ r : غلبنا عليك الرّجال، فاجعل لنا يوما من نفسك. فوعدهنّ يوما لقيهنّ فيه، فوعظهنّ وأمرهنّ، فكان فيما قال لهنّ: ما منكنّ امرأة تقدّم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابا من النّار، فقالت امرأة: واثنين؟، فقال: واثنين))[٢].

وفي حادثة الإفك استعمل النبي r أسلوب الموعظة مع زوجه وحبيبته عائشة -رضي الله عنها- فقال: ((أما بعد، يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كنتِ ألممتِ بذنب؛ فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب؛ تاب الله عليه))، ففي هذا الموقف استعمال أسلوب الموعظة الحسنة، وقد اشتمل على عدد من القواعد التي تجعل هذا الأسلوب من أنفع الأساليب الدعوية وأجملها:

١- من الأدب الرفيع في إلقاءِ الموعظة: مراعاة شعور المدعوّ، والحرص على وصول المراد إلى قلبه بأجمل وأكْمَلِ أسلوب؛ لتتم الفائدة المرجوة من طرح الموعظة عليه، وهذا ظاهر في قوله r : ((كذا وكذا))؛ فإن فيه عدم التصريح بما رميت به عائشة -رضي الله عنها- من الإفك، والاقتصار على الكناية عن ذلك[٣].

٢- أنَّ الموعظة إذا كانت تُلقى على من كان معروفًا بالخير والصلاح، أو عدم الوقوع في الموبقات والكبائر، أو لم يكن له سابقة في الوقوع في ذلك الأمر الذي يُوعَظ فيه، أو لم يكن من عادته الوقوع فيه؛ فإنه ينبغي -في أثناء إلقاء الموعظة عليه- مراعاة ما يأتي:

- حُسن الظنِّ به، وعدم تجريحه بما لا يحسن أو يليق، وعدم حَمْله المحمل السيئ الذي يُسقِط ماضيه الطيّب، فالنبي r لم يَظُنَّ بزوجه -التي يعظها في هذا الموقف- سُوءًا قطّ

---

(١) سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبجر، الأنصاري، الخزرجي، أبو سعيد الخدري، صحابي مشهور، مشهور بكنيته، فقيه، من المكثرين من الصحابة. توفي سنة ٧٤هـ، وقيل غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٨)، الإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (١/٣٦) رقم (١٠١).

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٥).

-وحاشاه وحاشاها-[١]، بل إنه شهد لها بالخير لما استعذر من أهل الإفك فقال: ((من يعذرني في رجلٍ بلغني أذاهُ في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي)).

- عدم تركه دون موعظة حتى وإن كان ماضيه يشفع له أو يشهد له بالصلاح، فإن النبي ﷺ -مع علمه أو ظنه الظن المقارب للعلم ببراءة زوجه عائشة التي يعظها في هذا الموقف، وما كان عنده من القرائن التي تَشْهد ببراءتها أَكثر مما عند المؤمنين- لم يشهد ببراءتها[٢]، بل وعظها وذكّرها بالله.

٣- أن يُضمِّن الداعية موعظته بما يناسب حال المدعوّ من أعمال القلوب كالخشية من الله أو رجاء ثوابه أو التوكل عليه أو الاستعانة به ونحو ذلك، فالنبي ﷺ في موعظته لعائشة -رضي الله عنها- قال لها: ((فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله))، ((أي: بوحي يترله بذلك قرآنا أو غيره))[٣]، فضمّن موعظته حسن الظنّ به سبحانه ورجاء نصره وفرجه.

وكان لذلك أثرٌ عظيم في نفس عائشة -رضي الله عنها-، فقد فَهِمَتْ مِنْ موعظة النبي ﷺ لها أنَّ المرء إنْ كانَ بريئًا مما يُتَّهَمُ به فإنَّ ربّه سبحانه وتعالى الذي يراه في خَلوته لن يخذله حين يتوكلُ عليه ويرجو نصره ويحسن الظن به، ولذلك قالت: ((ثم تحولت فاضطجعت على فراشي وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي)).

٤- توجيه المدعو إلى ما يصلح حاله وينفعه في مخالفته التي وقعت منه، ومن ذلك أن يستَتْر على نفسه ولا يفشي وقوعه في المعصية للناس، مع ندبه للتوبة بينه وبين ربّه،، كما في قوله ﷺ: ((وإن كنتِ ألممت بذنب؛ فاستغفري الله وتوبي إليه))، فَـ((أمرها أن تستغفر الله وتتوب إليه (أي: فيما بينها وبين ربها)))[٤].

٥- تعظيم جانب الرجاء في مغفرة الذنوب لـدى المدعـو، وعـدم تقنيطه من

---

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (٢٦٣/٣).

(٢) المصدر السابق (٢٦٣/٣).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧٥/٨).

(٤) المصدر السابق (٤٧٧/٨).

رحمة الله U، كما في قوله r: ((فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب؛ تاب الله عليه)).

هذه فوائد عظيمة من موقفٍ واحدٍ استعمل فيه النبي r أسلوب الموعظة الحسنة، وفيه أيضًا فوائد ودروس أخرى، منها:

١- أنَّ المواقف الحرجة يجب أن لا تؤثر في الداعية تأثيرًا سلبيًا وهو يقدّم الموعظة للمدعو، فتأملْ كيف أنَّ النبي r في هذا الموقف البالغ في الصعوبة غايته لم تتأثر شخصيّته، بل كانت موعظته r في غاية الكمال.

٢- كانت موعظة النبي r بليغة التأثير، غزيرة الفوائد، فحَريٌّ بالدعاة الوقوف عندها، وتأملها؛ ليستفيدوا منها في واقعهم الدعوي.

٣- الموعظة الحسنة بالغة التأثير في المدعوين، فينبغي للدعاة الاعتناء بها تَعَلّمًا وتَعْليمًا.

٤- أعظم ما يقوّم الداعية إلى الله تعالى نظره في طريقة الأنبياء -عليهم السلام- في دعوتهم، ومنها الموعظة الحسنة التي كانت مُطَّردةً في دعوتهم.

٥- يُدْرِكُ الداعية إلى الله تعالى عظيمَ أهميّة وأثرِ الموعظة الحسنة من خلال موقف النبي r مع زوجته أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- حين وعظها تلك الموعظة البليغة، وكيف أنها أثّرتْ في نفس أم المؤمنين. فالداعية لا يغفل عن هذه المثل والفوائد العظيمة، فحين يقف واعظًا لمن كان يمّرُ بظرف مقارب لهذا الموقف العصيب الذي ابتليت به أم المؤمنين، فإنّه يتمثّلُ بقيمِ موعظة النبي r، فيراعي نفسيّة المبتلى، ويعَظّمُ في نفسه حسن التوكلِ على الله U، ويندبه لستر نفسه، ويرَغّبه في رحمة الله U وعظيم مغفرته.

" " "

المبحث الثالث

ضرب المثل

((اتفق العقلاء على أنَّ ضرب المثل ممَّا يعين على معرفة الكُلِّيات، وأنّه ليس الحال إذا ذكر مع المثال كالحال إذا ذُكر مُجرَّدًا عنه))[١].

و(ضَرْب المَثَل) مُرَكَّبٌ إضافيٌّ من كلمتَي: (ضَرْب)، و(المَثَل):

و(المَثَل) في اللغة: اسم مُشتَقٌّ من الفِعْلِ الثلاثيِّ المجرَّد (مَثَلَ)، وأصل مادته: الميم والثاء واللام؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على: مناظرَة الشيءِ للشيء، يقال: (هذا مِثْل هذا): نَظِيرُه، و(المَثَل): المِثْل والنظير -مثل: شَبَه وشِبْه-[٢]، و(ماثَل) الشيءَ: شابَهَه[٣]، و(المَثَل): الشيء الذي يُضرَب مَثَلاً فيُجْعَل مِثْلَه[٤]، أو: هو عبارة عن قولٍ في شيء، يُشبه قولاً في شيءٍ آخر، بينهما مشابهة؛ ليبيِّن أحدهما الآخر ويصَوِّره[٥].

و(الضَّرْب) هو: إيقاع شيءٍ على شيءٍ، و(الضَّرْب في الأرض): الذهاب فيها وضَربها بالأرجل[٦].

فَـ(ضَرْب المَثَل): ذِكره وبيانه، وإيقاعه ووضعه، وإيجاده، ووَصفه، وسَوقه، وإيضاحه[٧]، وقيل: هو نَظْم تركيبه الدال على تشبيه الحالة[٨]، وهو: تشبيه شيء بشيء في

---

(١) مجموع الفتاوى (٩/٢٣٨).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/١٨١٧)، معجم مقاييس اللغة (٥/٢٩٦)، مفردات ألفاظ القرآن (٢/٣٦٢).

(٣) المحكم والمحيط الأعظم (١٠/١٥٩).

(٤) العين (٨/٢٢٨)، تهذيب اللغة (١٥/٩٥)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٧٨).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن (٢/٣٦٢).

(٦) المصدر السابق (٢/٨).

(٧) انظر: التحرير والتنوير (١٧/٣٣٨)(٢١/٨٥)(٢٣/٧٤، ٣٩٧)(٢٨/١١٧، ٣٧٣)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١/٢٠٦).

(٨) التحرير والتنوير (١٣/٢٢٣).

حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر[١].

والمقصود من ضَرْب المَثَل: جَعْله يسير في البلاد، ويدور على ألسِنَة الناس[٢]، أو: نَصْبه للنَّاس بالشُّهرة؛ لتستدلَّ عليه خواطرهم، كما تستدلُّ على الشيء المنصوب نواظِرُهم[٣].

وأسلوب ضرب المثل من الأساليب الدعوية التي لها قدرها ومكانتها وأهميتها، ومما يبيّن ذلك:

١- أنّه من الأساليب المطّردة في القرآن الكريم، كما قال تعالى: O @ A B C D E F G H N[٤]، وفي الآية الأخرى: Oوَلَقَدْ ´ µ ¶ ¸ ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ N[٥]، حتى عدّه أهل العلم من أعظم علوم القرآن وأنفعها، ونصّوا على أن ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة، منها: التذكير والوعظ والحثّ والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس[٦]، وكل هذه الأمور هي من المعاني المتضمَّنة في الدعوة إلى الله.

٢- أنّه من الأساليب المطّردة في السنة النبوية، فقد تضمّنت أقواله r وتوجيهاته جانبًا كبيرًا من أسلوب ضرب المثل؛ مما يدل على أهميّته وقوة تأثيره في الدعوة إلى الله.

٣- أنه من أعظم وسائل الاتّعاظ والتذكُّر والوعظ والتذكير، كما قال تعالى: Oوَلَقَدْ ضَرَبْنَا © فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ N[٧]،وقال سبحانه: O) (* +

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/ ١٥٠).

(٢) انظر: جمهرة الأمثال (١/٧).

(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن ص (١٧٨).

(٤) سورة الإسراء، آية رقم (٨٩).

(٥) سورة الروم، آية رقم (٥٨).

(٦) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/٣٤٣).

(٧) سورة الزمر، آية رقم (٢٧).

, O والمعنى: ((ويمثِّل الله الأمثال للناس، ويشبّه لهم الأشباهَ N[١] - ,

- N يقول: ليتذكروا حُجَّة الله عليهم، فيعتبروا بها ويتعظوا، فيترجروا عما هم عليه من الكفر به إلى الإيمان))[٢].

٤- أن ضرب المثل من أساليب الفهم والتعليم، وفهم الأمثال من صفات أهل العلم والعقل، كما قال تعالى: O s t u v x y z { N[٣]، ((Oوَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِN: أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس، OوN لكن Oمَا يَعْقِلُهَاN بفهمها وتدبرها وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب Oإِلا الْعَالِمُونَN أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم، وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحثٌّ على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين، والسبب في ذلك: أن الأمثال التي يضربها اللّه في القرآن إنما هي للأمور الكبار والمطالب العالية والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لاعتناء اللّه بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها، وأما من لم يعقلها -مع أهميتها- فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى))[٤].

٥-أنه من وسائل التدبر والتفكّر، كما قال تعالى: O f g h i j k N[٥]، فربنا سبحانه وتعالى ((حث على تأمل مواعظ القرآن، وبين أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه

---

(١) سورة إبراهيم، آية رقم (٢٥).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/ ٦٣٥).

(٣) سورة العنكبوت، آية رقم (٤٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (٦٣١).

(٥) سورة الحشر، آية رقم (٢١).

ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي: متشققة من خشية الله. والخاشع: الذليل. والمتصدع: المتشقق. وقيل: خاشِعًا لله بما كلفه من طاعته. مُتَصَدِّعًا من خشية الله أن يعصيه فيعاقبه))[١].

وفي حادثة الإفك: اشتد الكرب بأمُّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: فأهل النفاق اختلقوا فيها الإفك وأشاعوه، وبعض الصحابة أخطؤوا فخاضوا فيه، والوحي قد انقطع نزوله من الله على نبيه شهرًا كاملاً، والنبي r أمامها يعظها ويذكّرها بالله ويطلب منها إعلان براءتها أو التوبة إلى الله، وأبواها لم يطيعاها في الإجابة عنها؛ وأمام هذه الشدائد المتتالية، وذلك الموقف العصيب؛ لم تجد من الكلمات والأساليب ما يعبّر عن مكنون فؤادها، ويصوِّر واقع حالها، إلا ضرب المثل فقالت: ((والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذْ قال O Z] | [^ _ ` a N[٢]))، و((قولها "إلا أبا يوسف" أي: إلا مثل يعقوب -عليه الصلاة والسلام-، وهو الصبر، وكأنها من شدة حزنها لم تتذكر اسم يعقوب، وإنما قالت أبا يوسف لأنه لما جاء إخوة يوسف أباهم يعقوب ومعهم قميص يوسف بدم كذب قال يعقوب: T O U V W X | Z [ | ] ^ _ ` a N))[٣]، فجاء ضرب المثل منها في هذا الموقف معبِّرًا عن فقهها ومعرفتها بكتاب الله وما فيه من أعظم الألفاظ والتراكيب والأساليب، ودالاً على أن ضرب المثل يبلغ من القوة والجزالة والأهمية واشتمال المعاني المرادة وإيصال المقصود ما تبلغه العبارات الطويلة والكلمات الكثيرة، ومبرِزًا أهمية المثل في هذا الموقف أو ما كان مثله أو نحوه، ومصوِّرًا حالها وموقفها لمن كان في ذلك المجلس أبلغ تصوير وأحسنه، فقد حوى استدلالها بهذا المثل شيئاً عظيماً من المعاني، ومنها:

١- أن يعقوب u نبي من أنبياء الله، وقد حصل له بلاء شديد، فنعم الأسوة هو لها في هذه المحنة التي أصابتها.

٢- أنه إذا كان أنبياء الله -وهم أحب الخلق إليه- يقع لهم من البلاء والكرب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٤٤).

(٢) سورة يوسف، آية رقم (١٨).

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٣٣١).

والشدة ما فيه فقد الولد وتكالب الأبناء على أبيهم؛ فكيف بغيرهم؟.

٣- أن أبناء يعقوب u تآمروا على أخيهم يوسف، واتفقوا على إخفاء فعلتهم عن أبيهم، واستدلّوا بقميص يوسف استدلالاً فيه تمويه، وهذا هو ما وقع لها في الإفك؛ فالمنافقون تآمروا عليها بالإفك والبهتان لأذية النبي r ، وأخفوا حقيقة باطنهم وأهدافهم عن المسلمين، وموّهوا باطلهم وأثاروا الشكوك بالاستدلال بمجيء عائشة إلى الجيش وهي راكبة على بعير صفوان، هذا مع التنبيه على أن المشابهة هنا إنما هي بالنسبة إلى مجرَّد الفعل، مع الاختلاف العظيم بين الطرفين؛ فإخوة يوسف مؤمنون، والمنافقون من أهل الكفر.

٤- أن الدليل الذي جاء به إخوة يوسف على صحة كلامهم (وهو قميص يوسف) لم يجعل نبي الله يعقوب u يصدقهم، وكذلك ينبغي أن لا يصدق المؤمنون ما أثير من الإفك على عائشة مهما زيّنه المنافقون واستدلوا عليه.

٥- أن يعقوب u بعد أن أصابه من الكرب ما أصابه بسبب فقده أحب أبنائه إليه صبر على قضاء الله وقدره و لم يجزع، وكذلك أم المؤمنين صبرت على ما أصابها من البلاء.

٦- أن يعقوب u واجه ما فعله أبناؤه من التآمر على ابنه يوسف بالاستعانة بالله سبحانه والالتجاء إليه، وكذلك أم المؤمنين تستعين بالله سبحانه على ما وصفها به أهل الإفك من الزور والبهتان.

لقد كان في موقف أم المؤمنين عظة وعبرة للدعاة إلى الله تعالى، ومن الدروس المستفادة منه ما يأتي:

١- ضرب المثل من أقوى الأساليب الدعويّة تأثيرًا في المدعوين؛ لأنّه يقرِّبُ الفهْمَ من خلال القياس بين صورتين، فيزيل بذلك اللبس المحتمل في نفس المدعوين، ويخاطَب به العقل والعاطفة في آنٍ واحد.

٢- من أعظم ما يفيدُ الداعية إلى الله تعالى في معرفة أفضل وأكمَلِ طرائق ضرب المثل: كثرةُ قراءته للقرآن الكريم والسنة النبوية وتدبّره فيهما.

٣- الداعية إلى الله تعالى وهو يتأمّلُ موقف أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- في ضربها للمثل، وما اشتمل عليه ذلك من المعاني العظيمة؛ يعلم أنه قد يؤثر في المدعو بالمثل ما لا يؤثر فيه بالكلام المسترسل، وهذا يحدوه إلى ضرورة استعمال هذا الأسلوب الدعوي في مختلف المواقف والأحوال.

" " "

المبحث الرابع

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها[١].

و(المَعْروف) في اللغة: اسم مَفعُول من الفِعْلِ الثلاثيِّ المجرَّد المبنيِّ للمَجهول (عُرِفَ)، يقال: (عُرِف، يُعرَف، عِرْفانًا، ومَعْرِفةً)، فهو (معروف)[٢]، وأصل مادته: العين والرَّاء والفاء؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على: السُّكون والطُّمأنينة، ومنه: (العُرْف) و(العارِفَة): المعروف؛ سُمِّي بذلك لأنَّ النفوس تسكُن إليه[٣].

و(المَعْروف) في الاصطلاح: اسم لكلِّ فِعْلٍ يُعرَف بالعَقل أو الشَّرع حُسْنه، وضِدُّه (المُنكَر)[٤].

و(المُنكَر) في اللغة: اسم مَفعُول من الفِعْلِ الثلاثيِّ المزيد المبنيِّ للمَجهول (أُنكِرَ)، يقال: (أُنكِرَ، يُنكَر، فهو مُنكَر)، وأصل مادته: النون والكاف والرَّاء؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على: خِلاف المَعْرِفَة التي يسكُن إليها القَلْب، ومنه: (نَكِر الشيء) و(أنكرَه): لم يَقبَلْه قلبُه ولم يعتَرِف به لسانُه[٥]، والإنكار: الجحود وعدم الاعتراف[٦]، و(النُّكْر) و(النُّكُر) و(النّكراء): المُنكَر، والأمر الشديد[٧].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوي (٢٨/ ١٣٤ -كتاب الحسبة).

(٢) العين (٢/١٢١)، تهذيب اللغة (٢/٣٤٤)، معجم مقاييس اللغة (٤/٢٨١)، المحكم والمحيط الأعظم (٢/١٠٨).

(٣) تهذيب اللغة (٢/٣٤٤)، معجم مقاييس اللغة (٤/٢٨١)، المحكم والمحيط الأعظم (٢/١١٠).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن (٢/٨٧). وانظر: تهذيب اللغة (٢/٣٤٤)، المحكم والمحيط الأعظم (٢/١١١)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٢١٦).

(٥) معجم مقاييس اللغة (٥/٤٧٦)، مفردات ألفاظ القرآن (٢/٤٥٣).

(٦) معجم مقاييس اللغة (٥/٤٧٦)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/١١٥).

(٧) العين (٥/٣٥٥)، معجم مقاييس اللغة (٥/٤٧٦)، المحكم والمحيط الأعظم (٦/٨٠٤)، القاموس المحيط ص (٦٢٦).

و(المُنكَر) في الاصطلاح: اسم لكلِّ فِعْلٍ يُعرَف بالعَقل أو الشَّرع قُبحُه أو نكارَته [١]، أو: هو كلُّ ما قَبَّحه الشَّرع وحَرَّمه وكَرِهه[٢]، وضِدُّه (المعروف).

وعلى هذا؛ فيمكننا تعريف (الأَمر بالمَعْروف والنَّهْي عن المُنكَر) في الاصطلاح بأن نقول: الأمر بالمعروف: الإرشاد إلى المراشد المنجية، والنهي عن المنكر: الزجر عما لا يلائم في الشريعة، وقيل: الأمر بالمعروف: الدلالة على الخير، والنهي عن المنكر: المنع عن الشر[٣].

وقد أمرنا الله سبحانه ((بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالشيء مسبوق بمعرفته، فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه الأمر به، والنهي عن المنكر مسبوق بمعرفته، فمن لا يعلمه لا يمكنه النهي عنه، وقد أوجب الله علينا فعل المعروف وترك المنكر، فإن حب الشيء وفعله وبغض ذلك وتركه لا يكون إلا بعد العلم بهما حتى يصح القصد إلى فعل المعروف وترك المنكر، فإن ذلك مسبوق بعلمه فمن لم يعلم الشيء لم يتصور منه حب له ولا بغض ولا فعل ولا ترك؛ لكن فعل الشيء والأمر به يقتضي أن يعلم علما مفصلا يمكن معه فعله والأمر به إذا أمر به مفصلا))[٤].

والأدلة في فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومكانته من الدين، وأهميته في حياة المسلمين؛ كثيرة مشهورة، منها:

١- أن الله أمر هذه الأمة أن تتصف به فقال: O f g h i j k l m n o p q r s t N[٥]، ((والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه))[٦]، ((وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (٢/٨٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/١١٥).

(٣) انظر: التعريفات ص (٥٤).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/٣٣٧).

(٥) سورة آل عمران، آية رقم (١٠٤).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٢/٩١).

الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: O f g h N))[١].

٢- وجعله سبحانه من أخص أوصاف هذه الأمة، ومن أهم أسباب حصول الخيرية لها على الأمم، فقال تعالى: O . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 N[٢]، ((فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة[٣]: بلغنا أن عمر بن الخطاب t في حجة حجها رأى من الناس سرعة فقرأ هذه الآية: O . / 0 1 2 N ثم قال: "من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها"[٤]))[٥].

٣- كما جعله من أوصاف النبي r وأسس دعوته، فقال تعالى: O D E F G H I J K L M N O P Q R S T N[٦]، ((يقول تعالى ذكره: يأمر هذا النبيُّ الأميُّ أتباعَه بالمعروف، وهو الإيمان بالله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص(١٤٢).

(٢) سورة آل عمران، آية رقم (١١٠).

(٣) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة، أبو الخطاب، السدوسي، البصري. الإمام الحافظ، المفسِّر، من أعيان التابعين. توفي سنة ١١٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٩)، تهذيب التهذيب (٨/ ٣١٥).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥/ ٦٧٢)، وعنده: "رأى من الناس رِعَةً سيئةً"؛ والمراد: لم يحسِنوا الاحتشام والكفَّ عن سُوء الأدب. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٧٤).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٢/١٠٣).

(٦) سورة الأعراف، آية رقم (١٥٧).

ولزوم طاعته فيما أمر ونهى، فذلك المعروف الذي يأمرهم به O R S T N وهو الشرك بالله، والانتهاء عمّا نهاهم الله عنه))[١].

٤- وجعله أيضًا من صفات المؤمنين الصادقين، فقال تعالى: O ! "

$ % & ' ( ) * +

, - . / 0 1 N[٢]، فَــ((هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة))[٣]، ومنها: أنهم: ((ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علمًا وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق))[٤].

٥- وجعله سبحانه من أعظم الأعمال الصالحة التي يحبها وتُبتَغى بها مرضاته، فقال تعالى: O" # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 | 3 4 5 6 7 8 9 : ; < N[٥]، فاستثنى الله U مما يتناجى به العباد طائفةً من الأعمال الصالحة، كان منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: ((O , - N وهو الإحسان والطاعة وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر. وأما عند الاقتران فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي))[٦].

٥- وأوجبه النبي r على أمته، فقال: ((من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/ ٤٩٢).
(٢) سورة التوبة، آية رقم (١١٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/٢١٩).
(٤) المصدر السابق (٤/٢١٩).
(٥) سورة النساء، آية رقم (١١٤).
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص(٢٠٢).

يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان))[١]، ((وهذا الأمرُ على الوجوب؛ لأنَّ الأمرَ بالمعروف والنَّهي عن المنكر من واجبات الإيمان، ودعائم الإسلام، بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، لكنّه على الكفاية، مَنْ قام به أجزَأَ عن غيره))[٢].

٦- وبيّن r أن القيام به من أعظم أسباب حفظ الأمة عن الشر والهلاك، فقال: ((مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استهموا على سفينةٍ فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أَيديهم نجوا ونجوا جميعًا))[٣]، ((ولو لم يذكر النبي r قوله: "ونجوا جميعا" لكانت النجاة اختصت بالآخذين فقط، وليس كذلك، بل كلهم نجوا لعدم الخرق، وهكذا إذا أقيمت الحدود وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر تحصل النجاة للكل، وإلا هلك العاصي بالمعصية وغيرهم بترك الإقامة))[٤]، ولذلك ذكر الله تعالى عمن قبلنا أنه كان من أسباب هلاكهم عدم قيامهم بهذه الشعيرة العظيمة، فقال تعالى: O L M N O P Q S T U V N[٥].

وفي حادثة الإفك:

١- اشتملت الآيات الواردة في الحادثة على ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال ((ذب المسلم عن المسلم، خصوصا من كان من أهل الفضل، وردع من يؤذيهم ولو كان منهم بسبيل))[٦]، وذلك في قوله تعالى: O B C D E F G

---

(١) أخرجه مسلم (١/٥٠) رقم (١٨٦).

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/٢٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣/١٢٨) رقم (٢٤٩٣).

(٤) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٨١).

(٥) سورة المائدة، آية (٧٩).

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٧٩).

H I N[1]، فـــ((أوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه))[2]، وفي ((عَطْف قوله U O J K L MN تشريعٌ لوجوب المبادرة بإنكار ما يسمعه المسلم من الطعن في المسلم بالقول كما ينكره بالظن، وكذلك تغيير المنكر بالقلب واللسان))[3].

٢- وبعد انجلاء الفتنة بنزول الوحي ببراءة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- ظهر تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال ((أمر رسول الله r بمنْ صَرّح بالإفك فحُدّوا ثمانين ثمانين.

ولم يحد الخبيث عبد الله بن أبيّ مع أنّه رأس أهل الإفك:

قيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ويكفيه عن الحد.

وقيل: بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه.

وقيل: الحد لا يثبت إلا بالإقرار أو ببينة، وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحدٌ، فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه، ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

وقيل: حد القذف حق الآدمي، لا يستوفى إلا بمطالبته، وإن قيل إنه حق لله فلا بد من مطالبة المقذوف، وعائشة لمْ تطالب به ابن أبيّ.

وقيل: بل ترك حده لمصلحةٍ هي أعظم من إقامته، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مرارًا، وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم عن الإسلام، فإنه كان مطاعا فيهم رئيسا عليهم، فلم تؤمن إثارة الفتنة في حده.

ولعله ترك لهذه الوجوه كلها))[4].

كما ظهرت من خلال الحادثة قاعدة عظيمة من قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) سورة النور، آية رقم (١٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٠٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/١٧٥).

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٢٦٣).

المنكر، وهي: أنه ((إذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتى يتبين له الحق، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية، وإذا تركها كان عاصيًا، فترك الأمر الواجب معصية، وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية. وهذا باب واسع، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومن هذا الباب إقرار النبي r لعبد الله بن أُبي وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من أعوان، فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزم إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم، وبنفور الناس في قصة الإفك بما خاطبهم به واعتذر منه))(١).

وكان من الدروس الدعوية العظيمة المستفادة من تلك المواقف التي ظهرت فيها أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ما يأتي:

١- ينبغي للداعية إلى الله أن يحرص على هذا الأسلوب العظيم في جميع جوانب الدعوة، كما ينبغي له أن يغرس هذه الشعيرة العظيمة في نفوس المدعوين.

٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له قواعد وضوابط وأصول لا بد للداعية من مراعاتها؛ لتكون دعوته وفق ما جاء به الكتاب والسنة، ومنها:

- أن يكون عالمًا بأن ما يأمر به قد دل الشرع على أنه معروف، وبأن ما ينهى عنه قد دل الشرع على أنه منكر، وهذا يتطلب منه الحرص على طلب العلم والرسوخ فيه ليكون أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر على بصيرة وعلم.
- أن يفقه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مراتب ودرجات وأصناف، وهي: اليد واللسان والقلب، ويعلم شروط وأحوال كل مرتبة.
- أن يفقه أن المعروف درجات، وكذلك المنكر، فيعنى عناية فائقة بالأمر بأعظم معروف وهو التوحيد وما يتصل به، وبإنكار أعظم منكر وهو الشرك وما يتصل به.
- أن يجعل تعامله مع المدعوين -في أثناء أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر- شدة ورحمة، وترغيبًا وترهيبًا، وإجمالاً وتفصيلاً، بحسب حال المعروف الذي يريد أن يأمر به، وحال المنكر الذي يريد أن ينهى عنه، فيفرّق بين الجاهل والساهي والمخطئ والعارف والمعاند والموافق والمخالف والداعية إلى الباطل والمغرور به وغير ذلك.

(١) مجموع الفتاوي (٢٨/ ١٣٠ –كتاب الحسبة).

● أن يفقه باب المصالح والمفاسد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك يتطلب منه أمرين: العلم الشرعي الصحيح المبني على الكتاب والسنة، وأخذ الخبرة عن أهل العلم الراسخين والرجوع إليه وسؤالهم.

٣- هذه المواقف التي مرّتْ بالنبي r وزوجه عائشة -رضي الله عنها- والصـــحـــابة y في حادثة الإفك؛ تَجَلّتْ فيها فوائد عظيمة في طريقة التعامل مع المعروف أو المنكر في حال الاشتباه أو التأكّدِ، أو حال الابتلاء بمواقف تدعو إلى الشكِّ والريبة، فالداعية وهو يقرأ هذه المواقف يهيئ نفسه للتعامل مع أحوالٍ تكون مثل ما كان في تلك المواقف أو قريبًا منها، وذلك بمعرفة ما ينبغي أن يسلكه من درجات ومراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تلك الأحوال.

" " "

المبحث الخامس

الترغيب والترهيب

((إنما يشتد افتقار العبد إلى العظة (وهي الترغيب والترهيب) إذا ضعفت إنابته وتذكره، وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب، ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي، والعظة يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة، ونفس الرغبة والرهبة، فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب، والمعارض المتكبر شديد الحاجة إلى المجادلة))[١].

و(التَّرْغيب) في اللغة: مَصدر الفِعْلِ الثلاثيِّ المَزيد (رغَّبَ)، يُقال: (رغّب، يرغب، ترغيبًا)، وأصل مادته: الرَّاء والغين والباء؛ وهو أصلان صحيحان يدلُّ أحدُهما على: طلبٍ لشيء، والآخر على: سَعَةٍ في شيء[٢].

فمن الأصل الأول: (رَغِب -في الشيء-، يرغَب، رَغْبَةً، ورَغْبًا، ورَغَبًا): حرص عليه وطمعَ فيه وأرادَه[٣].

ومن الأصل الثاني: الشَّيْءُ (الرَّغيب): الواسع الجَوف، يقال: (حوضٌ رغيب)، و(سقاءٌ رغيب)، و(الرَّغِيبة): العَطاء الكثير، والجمع: رغائب[٤].

وفي الاصطلاح: كلُّ ما يُشَوِّق المدعُوَّ إلى الاستجابةِ وقَبولِ الحقِّ والثَّباتِ عليه[٥].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٤٤٥/١).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٤١٥/٢)، مفردات ألفاظ القرآن (٤٠٧/١).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١٣٧/١)، معجم مقاييس اللغة (٤١٥/٢)، المحكم والمحيط الأعظم (٥١٦/٥)، المصباح المنير (٢٣١/١)، القاموس المحيط ص (١١٥)، المعجم الوسيط (٣٥٦/١).

(٤) معجم مقاييس اللغة (٤١٥/٢)، مفردات ألفاظ القرآن (٤٠٧/١).

(٥) أصول الدعوة ص (٤٢١).

و(التَّرْهيب) في اللغة: مَصدر الفِعْلِ الثلاثيِّ المَزيد (رهَّب)، يُقال: (رهَّب، يرهِّب، ترهيبًا)، وأصل مادته: الرَّاء والهاء والباء؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على: خَوْفٍ[١]، يقال: (رَهِبَ، يرهَب، رَهْبَةً، ورَهَبًا): خافَ[٢]،و(أرهبَه) و(رَهَّبَه) و(استرهَبَه): أخافَه وفزَّعَه، و(الترهُّب): التَّعبُّد[٣].

وفي الاصطلاح: كلُّ ما يُخيف ويُحَذِّر المدعُوَّ من عدمِ الاستجابةِ أو رَفْضِ الحقِّ أو عَدَمِ الثَّباتِ عليه بعد قَبولِه[٤].

والترغيب والترهيب من أعظم الأساليب الدعوية تأثيرًا ونفعًا وأهمية، ومما يدل على ذلك:

١- أن الرغبة في رحمة الله وثوابه، والرهبة من غضبه وعقابه؛ من الأعمال الصالحة التي يؤجر العبد عليها، فقد أمر الله بهما عباده، وامتدح أنبياءه وأولياءه بالاتصاف بهما، فقال تعالى: O © خَوۡفٗا وَطَمَعًاN[٥]، وقال سبحانه: O ¸ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ N[٦]، وقال تعالى:O d e f g h i j k l m n N[٧]، ففي مجرد الترغيب والترهيب دعوة للمدعو إلى أن يكون ممن يحقّق الرغبة والرهبة؛ فينال الفضل ويستحق المدح.

٢- أن الإنسان أُمِر بأن يكون ((في حالة ترقب وتخوف وتأميل لله U، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته، وإن انفرد أحدهما

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٤٤٧/٢)، مفردات ألفاظ القرآن (٤١٧/١).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١٤٠/١)، معجم مقاييس اللغة (٤٤٧/٢)، المحكم والمحيط الأعظم (٣١٠/٤)، القاموس المحيط ص (١١٨).

(٣) العين (٤٧/٤)، تهذيب اللغة (٢٩٢/٦)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١٤٠/١)، معجم مقاييس اللغة (٤٤٧/٢)، المحكم والمحيط الأعظم (٣١٠/٤).

(٤) أصول الدعوة ص (٤٢١).

(٥) سورة الأعراف، آية رقم (٥٦).

(٦) سورة الأنبياء، آية رقم (٩٠).

(٧) سورة السجدة، آية رقم (١٦).

هلك الإنسان، قال الله تعالى: O نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ N[١]))[٢]، والترغيب والترهيب فيهما إيجاد هذا التوازن في نفس المؤمن المدعوّ.

٣- أن الترغيب والترهيب من أساليب القرآن والسنة، فمن القرآن: قوله تعالى: O W X Y Z [\ ] ^ _ ` a b c N[٣]، ((فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد جمعتا أسمى وأحكم ألوان الترغيب والترهيب)) [٤]، ومـــن السنة: قـــول النبي r : ((تحاجّت النّار والجنّة، فقالت النّار: أُوثِرت بالمتكبّرين والمتجبّرين. وقالت الجنّة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء النّاس وسقطهم[٥] وعجزهم. فقال اللّه للجنّة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنّار: أنت عذابي، أعذّب بك من أشاء من عبادي))[٦].

وفي حادثة الإفك: جاء أسلوب الترغيب والترهيب في أكثر من مناسبة وموقف، ومنها:

١- رغّبُ الله U عباده المؤمنين بما قدّره من الخير العظيم بسبب هذا الإفك، فقال: O ( ) * + , - . / 0 N، فبيّن سبحانه لهم عظيم الأثر المترتب عن الإفك ((لرجحان النفع والخير على جانب الشر))[٧]، و((لأن الله يأجركم على ذلك ويظهر براءتكم))[٨].

ورهّب سبحانه تلك الفئة الخائضة في الإفك بعذابه الأليم فقال: ((O 0 1 2 3 4 N يعني: من العصبة الكاذبة O5 6 7 8 N أي: جزاء ما اجترح من الذنب على

---

(١) سورة الحجر، آية رقم (٤٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٢٧/٧).

(٣) سورة الزلزلة، الآيتان رقم (٧-٨).

(٤) التفسير الوسيط (١/ ٤٥٤٥).

(٥) أي: أراذلهم وأدوانهم. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٧٨/٢).

(٦) أخرجه مسلم (١٥١/٨) رقم (٧٣٥٢).

(٧) الجامع لأحكام القرآن (١٩٨/١٢).

(٨) معالم التنزيل (٢٢/٦).

قدر ما خاض فيه O : ; > = N قالت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: عبدالله ابن أبي بن سلول، والعذاب الأليم هو في النار في الآخرة))[١].

٢- جمع سبحانه لعباده المؤمنين بين الترغيب والترهيب في قوله: O _ ` a b c d e f g h i j k l m N[٢]:

فالترغيب: O _ ` a b c d e f N، فرغّبهم في قبوله سبحانه توبتهم وإنابتهم إليه في الدنيا، وفي عفوه عنهم لإيمانهم بالنسبة إلى الدار الآخرة[٣].

والترهيب: O g h i j k l m N، فرهّبهم مما فعلوه ومن العودة إلى فعله.

٣- ورهّبَ سبحانه وتعالى من جملةٍ من الأعمال التي وقعت من بعض المؤمنين فقال: O o p q r s t u v w x y z { | } ~ N[٤]، ((يقول: وتلقِّيكم ذلك كذلك وقولُكموه بأفواهكم، عند الله عظيم من الأمر؛ لأنكم كنتم تؤذون به رسول الله r وحليلته))[٥].

٤- ورهّب الله U عباده من قول الإفك والخوض فيه بما يتضمنه من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين، فقال: O إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ N[٦]، ((يقول تعالى ذكره: إن الذين يحبون أن يذيع الزنا في الذين صدّقوا بالله ورسوله ويظهر ذلك فيهم O لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ N يقول: لهم عذاب وجيع في الدنيا، بالحدّ الذي جعله الله حدًّا لرامي المحصَناتِ والمحصنين إذا رموهم بذلك، وفي الآخرة عذاب جهنم إن مات مصرًّا على ذلك غير تائب))[٧].

---

(١) المصدر السابق (٦/٢٣).
(٢) سورة النور، آية رقم (١٤).
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم (٦/٢٨).
(٤) سورة النور، آية رقم (١٥).
(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/ ٢١٨).
(٦) سورة النور، آية رقم (١٩).
(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/ ٢١٩).

٥- ورغّب سبحانه في فعل الخير والعفو والصفح عن المسيء، فقال: O H I J K L M N O P Q R S T U V X Y [\ ] ^ _ ` b c d N[١]، ((يقول: ألا تحبون أن يستر الله عليكم ذنوبكم بإفضالكم عليهم، فيترك عقوبتكم عليها؟ O b c N لذنوب من أطاعه واتبع أمره، O d N بهم أن يعذبهم مع اتباعهم أمره، وطاعتهم إياه على ما كان لهم من زلة وهفوة قد استغفروه منها وتابوا إليه من فعلها))[٢].

٦- ورهّبَ الله U مَنْ تُسَوّلُ له نفسه أن يتعرض لأعراض المؤمنات العفيفات البريئات بالقذف والرمي بالزنا، فقال: O f g h i j k l m n o p q r N[٣]، و((هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات - خرج مخرج الغالب- المؤمنات. فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول وهي عائشة بنت الصديق -رضي الله عنهما-. وقد أجمع العلماء، -رحمهم الله- قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن))[٤]، ومعنى الآية: ((O l m n o N يقول: أبْعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة، O p N في الآخرة O q r N وذلك عذاب جهنم))[٥].

((ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة -رضوان الله عليها-، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما ارتكب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه؛ ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مُفتنة، كل واحد منها كافٍ في بابه، ولو لم

---

(١) سورة النور، آية رقم (٢٢).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/ ٢٢٤).

(٣) سورة النور، آية رقم (٢٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/٣١).

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/ ٢٢٦).

يترل إلا هذه الآيات الثلاث: O f g h i N[١] إلى قوله: Oهُوَ ٱلۡحَقُّ © N[٢]، لكفى بها حديثًا: جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعًا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذي هم أهله حتى يعلموا عند اللّه أَنَّ اللَّهَ Oهُوَ ٱلۡحَقُّ © N، فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة))[٣].

لقد كان من الدروس الدعوية المستفادة مما سبق ذكره ما يأتي:

١- الترغيب والترهيب من الأساليب القرآنية والنبوية، فعلى الدعاة إلى الله أن تكون صلتهم بالقرآن والسنّة عظيمة لمعرفة مزايا هذا الأسلوب وفوائده وطرقه واستعمالاته، وأن يحرصوا على الاعتناء باستخدامه في المجال الدعوي.

٢- من أنفع الأساليب الدعوية وأقواها تأثيرًا في نفوس المدعوين: أسلوب الترغيب والترهيب.

٣- الداعية إلى الله تعالى يتأمل في تلك الأعمال التي ورد فيها الترغيب أو الترهيب في حادثة الإفك، فيربّي نفسه على أمرين:

أولهما- الحرص على جميع الأعمال التي ورد فيها الترغيب، والابتعاد عن كل ما ورد فيه الترهيب.

وثانيهما- أن ينظر إلى ما هو واقع في مجتمع المدعوّين من تلك الأعمال، فيستخدم فيها أسلوب الترغيب والترهيب كما جاء في القرآن الكريم.

" " "

---

(١) سورة النور، آية رقم (٢٣).

(٢) سورة النور، آية رقم (٢٥).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٤٠٥).

المبحث السادس

الخطابة

((الخطابة من أشهر شعائر الإسلام...، شرعها الله تعالى لإذكار خلقه بنعمه، وتحذير عباده من نقمه، وإعلام بريته بما أعد لمن أطاعه في دار كرامته من أنواع كرمه، وجعلها من وظائف الأمة العامة، ومن قواعد وراثة النبوة التامة، يقف المتلبس بها موقف الإبلاغ عن الله لعباده، ويقوم الناهض بفرضها مقام المؤدي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه- إلى أمته عن مراد الله ورسوله دون مراده، ويقيمها في فروض الكفايات على سنن سبله، ويستترل بها مواد الرحمة إذا ضن الغيث على الأرض بوبله))[(١)].

و(الخَطَابَة) في اللغة: مَصدر الفِعْلِ الثلاثيِّ المجرَّد (خَطَبَ)، يقال: (خَطَبَ، يخطُب، خَطابَةً، وخُطْبَةً)، وهو (خاطِبٌ، وخَطِيبٌ)[(٢)]، وأصل مادته: الخاء والطاء والباء؛ وهو أصل صحيح يدلُّ على الكلام بين اثنين، ومنه: (الخُطْبَة): الكلام المخطوب به، و(الخَطْب): الأمر يقع؛ سمِّي بذلك لما يقع فيه من التخاطُب والمراجَعَة[(٣)].

و(الخَطابَة) أو (الخُطْبَة) في الاصطلاح: الكلام المؤلَّف الذي يتضمَّن وَعْظًا وإبلاغًا، على صفة مخصوصة[(٤)]. وقيل: الكلام المنظوم المتضمِّن شرحَ خَطْبٍ عَظيمٍ[(٥)]. وقيل: كلام منثور مؤلَّف من المقدِّمات اليقينية والمقبولة والمظنونة أو إحداها؛ ترغيبًا أو ترهيبًا، أو كلاهما، مصدَّرًا بالحمد والصلاة، مع كون مخاطَبه غير معيَّن[(٦)].

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا (٧٠/١٢).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم (١٢٢/٥)، القاموس المحيط ص (١٠٣)، المعجم الوسيط (٢٤٣/١).

(٣) معجم مقاييس اللغة (١٩٨/٢)، مفردات ألفاظ القرآن (٣٠٣/١).

(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٧٦/١٩). وانظر: تهذيب الأسماء واللغات (٩٢/٣)، تحرير ألفاظ التنبيه ص (٨٤).

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف ص (٣١٨).

(٦) دستور العلماء (٦٠/٢).

والخطابة من الوسائل التي جاء الندب إليها وبيان أهميتها، ومن ذلك:

١- أن بيان الرسالة من أعظم مهمات الرسل، قال تعالى: O f g h i j k l m n N[١]، ((يقول تعالى ذكره: وما أرسلنا إلى أمة من الأمم -يا محمد- من قبلك ومن قبلِ قومك، رسولاً إلا بلسان الأمة التي أرسلناه إليها ولغتهم O m n N يقول: ليفهمهم ما أرسله الله به إليهم من أمره ونَهيه ليثبت حجة الله عليهم))[٢]، والخطابة من أعظم الوسائل التي يحصل بها البيان وأهمها.

٢- أنها من أساليب الأنبياء والرسل في التبليغ والدعوة، كما في قول النبي r: ((إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات، لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أنا آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ المسجد، وتعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن... الحديث))[٣].

٣- أنها من الأساليب المتواترة عن النبي r في مختلف المناسبات في مكة والمدينة، وكان يستخدمها كثيرًا في الأمور المهمّةِ، ومن الوقائع في ذلك:

- استخدمها r وسيلة؛ لتقرير ثوابت الدين، ومن ذلك: خطبته في حجّة الوداع، فقال: ((إنَّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا... الحديث))[٤].

- واتخذها وسيلة؛ لتصحيح الأخطاء الاعتقاديّة، ومن ذلك: خطبته عندما كسفت الشمس تزامنًا مع موت؛ ولده إبراهيم t، فقال في الشمس والقمر: ((إنهما آيتان مـــن

---

(١) سورة إبراهيم، آية رقم (٤).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/ ٥٩٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/١٤٨) رقم (٢٨٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٥٥٢).

(٤) أخرجه مسلم (٤/٣٩) رقم (٣٠٠٩).

آيات الله، لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة))[١].

- واختارها قُبيل موته لتكون الوسيلة التي يبلّغ أمته من خلالها آخر توجيهاته ويودّعهم، ومما قاله: ((إن عبدًا خيره الله بين أنْ يؤتيه مِنْ زهرة الدُّنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده))[٢].

وفي حادثة الإفك: بلغ البلاء بالنبي r ذروته، فهو يسمع القالة الخبيثة في أهله تنتشر بين المنافقين، والوحي قد انقطع عنه شهرًا كاملاً، فقام من يومه على المنبر فاستعذر ممن تكلم في أهله بالإفك، وقال -وهو على المنبر-: يا معشر المسلمين، مَن يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي))، لقد صعد المنبر ليخبر أصحابه y بأذيّة رأس النفاق له، ولزوجه الطاهرة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، ولصاحبه المفترى عليه صفوان ابن المعطل t ، فيتضّح من هذا السلوك النبوي الحكيم عِظَمَ فعالية الخطابة وتأثيرها القويّ في نفوس المدعوين.

ولقد استخدم النبي r أسلوب التلميح دون التصريح في خطبته -مع أنَّ الأمر كان في غاية الخطورة- لأن ذلك كان هو الأسلوب الأمثل في هذه الحال، كما أنّه r بيّن بفعله ما يجب أن يكون عليه الخطيب من هدوء واتزان إذا اضطرب عليه الناس في أثناء خطبته أو حدث ما يشوّشُ عليه.

وقد جعل أهل العلم من فوائد حديث الإفك: ((خطبة الإمام الناس عند نزول أمر مهم))[٣].

لقد كان من الدروس الدعويّة المستفادة من هذا الموقف:

١- الخطابة وسيلة دعويّةٌ لها أبلغ التأثير في نفوس المدعوين، وتحتاج من الداعية أقصى درجات الاهتمام في تَعلّمِ طرائق التأثير من خلالها، ولا يتأتى هذا الأمر إلا بالاطلاع

---

(١) أخرجه البخاري (٢/٤٤) رقم (١٠٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥/٧٣) رقم (٣٩٠٤) واللفظ له، ومسلم (٧/١٠٨) رقم (٦٣٢٠).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٧/١١٧).

على أساليب النبي r في خطبه.

٢- من أعظم سمات الخطيب الناجح هدوءه وحِلْمه عند اضطراب الأمر عليه أثناء خطبته.

٣- على الداعية أن يراعي ما يناسب الخطبة ويرتقي بها ويحقق فيها أعظم أسباب النجاح من حيث الأسلوب ومراعاة الحال والمدعوّين واختيار الألفاظ والأساليب وغير ذلك.

٤- الداعية إلى الله وهو يقرأ في حادثة الإفك ما فعله النبي r من اعتلاء المنبر والخطابة في الناس؛ يتخذ ذلك منهاجًا له في الأمور العظيمة التي تتطلب منه إعلان التوجيه وإيصاله للناس عن طريق هذه الوسيلة.

^ ^ ^

الخاتمة

أسدي الفضل لربي المنان، ذي الجود والكرم والإحسان، على ما أكرم من عطاء وأجزل، حين وفقني لإتمام هذا البحث فمَدَّ في الأجل. وعقب مسامرةٍ لليل، وانقطاعٍ في نهار، مع درر السلف الصالح التي أخرجوها مِنْ فهمهم الثاقب السليم لنصوص القرآن الكريم، وصحيح السنّة الشريفة، ونظرٍ بعد ذلك وتأملٍ لما أوردوه، ومِنْ ثمَّ استنباط الفوائد فيما يفيد البحث وتثريه في مجال تخصصه، مستفيدًا مِنْ ذلك -بإذن الله- في مجالي الدعوي فهمًا عميقًا لما ينبغي أنْ يكون عليه الداعية مِنْ إدراكٍ، لمعرفة كيد مناوئيه، وطرق الوقاية منهم، ومعرفة منابع تقويمه، ووسائل دعوته، وكان لزامًا في نهاية مطاف التجوال بين كتب السلف الصالح، أنْ أثير عبيرهم، وأريج فكرهم في خلاصةٍ في البحث، فأبرز نتائج مادته:

١- مادة (الإِفْك) في اللغة تدول حول: الصَّرْف، والتصرُّف، والقَلْب، والتحوُّل، والكذب مطلقًا، والافتراء والبهتان.

٢- الإِفْك في الاصطلاح يرجع معناه إلى المعنى اللُّغوي، مثلاً بمثل؛ فهو: الصَّرْف وقَلْب الشيء عن وجهه، والكَذِب، إلا أنَّ كلمة (الإِفْك) صارَت في عُرف أهل التفسير والسِّيَر مُنصَرِفةً إلى: ما أُفِكَ به وكُذِبَ وافتُري على أم المؤمنين الصِّدِّيقَة عائشة -رضي الله عنها- مما رُمِيَت به.

٣- وردت قصة الإفك في القرآن الكريم في سورة النور من قوله تعالى: O! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ N [1]، وتنتهي بالآية: O ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ ¶ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ N [2]، وعدد الآيات على ضوء ذلك: (١٦).

٤- لم يروِ حديث الإفك من أصحاب الكتب التسعة إلا: البخاري، ومسلم، وأبو داود -طرفًا منه-، والإمام أحمد. ولم يكن له ذكرٌ فيما سوى ذلك مِنْ الكتب التسعة،

---

(١) سورة النور، آية رقم (١١).

(٢) سورة النور، آية رقم (٢٦).

اللهم إلا سنن الترمذي مِنْ رواية غير الزهري؛ فقد أخرج طرفًا من الحديث عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، وأجمع رواية وأضبطها لحديث الإفك، رواية الإمام مسلم -رحمه الله تعالى-.

٥- خوض المنافقين في الإفك له أسباب دينية، تتلخص في: إسقاط الدين بإسقاط حملته، ومرض قلوب المنافقين، وتآمرهم ضد المسلمين والتعاون على معاداتهم، وأسباب دنيوية، تتلخص في البغض والحقد والحسد، والتربص والترصد للمؤمنين، وطلب الدنيا — الجاه- والافتتان بها، والفشل الذريع في الحروب الميدانية العلنيّة، والخفيّة، والتقليد المذموم لكبرائهم.

٦- للمنافقين أهداف في حادثة الإفك وهي: إيذاء النبي ﷺ في عرضه الشريف، وتشويه سمعته في نفوس أتباعه، ومحاولة ارتياب المؤمنين في عرضه الطاهر، وصد الناس، أو ردهم عن الخير الذي أتى به، والتشكيك في أخلاق الدين الحنيف، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وإيغار صدور المؤمنين، وإثارة العداوة بينهم، وإيجاد التنازع في صفوفهم، والتفريق بينهم، وزعزعة أمنهم.

٧- للمواساة آثار إيجابية عظيمة على نفس المواسى، خاصة حين تصدر من القريب، ومن له علاقة وطيدة به، ولها نتائج إيجابية منها: إرتفاع المعنوية، والثقة في الله بالنصر والبراءة، وتطييب الخاطر، والفرح والسرور بما يراه من مساندة وتأييد، وللمواساة وسائل وكيفيات منها: المواساة بالكلمة مثل: التزكية والثناء الحسن، وتطييب الخاطر، ودحض السبب، والتذكير بالماضي الحسن، والمترلة الرفيعة، وتذكير المبتلى بالغير ممن يحمل نفس الصفات الحسنة، والتمهيد في إخبار المبتلى ببلائه، والمواساة بالفعل مثل: الحزن والبكاء، وملازمة المبتلى وعدم فراقه، وزيارته حال بلائه، والمواساة بترك القول والفعل مثل: ترك التشهير به بغير حق، وترك تعنيفه دون ثبوت الأمر المفترى عليه به، وترك إعلام المبتلى قبل علمه.

٨- مِنْ أعظم سمات المجتمع المؤمن في زمن النبي ﷺ ضبط النفس وعدم الغضب والرد المنطقي، وتجلّتْ هذه الصفات في أمور منها: مشاورة الرجل بطانته فيما فيه مصلحة، الأخذ بالرأي السديد عند الاستشارة، عدم المداهنة والمداراة في حال الاستشارة في حق

المحبوب وغيره، الاتزان في طريقة السؤال، وجميل أدب العبارة، والتحري في تقصي الأخبار...وغيرها، وتحصيل هذه الصفات يكون بالإيمان والعلم، والتربية على نصوص القرآن الكريم والسنة الصحيحة، والاقتداء بالصحابة y.

٩- في حادثة الإفك كان الأثر النفسي للمبتلى على جوانب ثلاثة، جانب مَنْ تعرض للبلاء، وجانب الموقف الذي برز فيه الأثر النفسي، وجانب نوع الأثر النفسي الناتج من شِدّةِ البلاء، فالنبي r مع شدة بلائه وحزنه برزتْ عليه أعلى درجات الصبر، وتحلّى بالحلم والأناة والوقار، كذلك الأمر في زوجه وأبويها y، وكان سبب ذلك: الصبر، والاحتساب، والرضى بقضاء الله وقدره، واليقين، والثقة بالله تعالى، والرجاء فيه، وحسن الظن به، والتوكل عليه، والإيمان بنصره وفرجه، والاتّزان في النفس الذي نتج عنه الاتّزان في الأقوال والأفعال، والثقة في النفس.

١٠- التعصب المذموم يقود الداعية إلى المهالك، ويجعله يتناقض في أولويات ما يأمر به الدين الحنيف، وهذا الأمر يؤثّر عليه، وعلى دعوته.

١١- الخوض في أعراض المسلمين يهدم بناء المجتمع المؤمن، وينقض بناءه المحكم، ويشتت قلوب المؤمنين، ويحدث بينهم الشحناء والبغضاء.

١٢- المقالة السيئة تعرّض الداعية للسقوط من أعين المدعوين، وتساعد في انتشار الأحقاد بين المسلمين.

١٣- من أعظم مقومات الداعية في دعوته، الصبر على البلاء، والاحتساب في ذلك لله U.

١٤- من أبرز صفات المؤمنين المتقين، العفو والصفح عند المقدرة، لله U، وهي من أجلِّ وأعظم ما يحرص عليه الداعية في تعامله مع المدعوين.

١٥- الداعية إلى الله تعالى بأمس الحاجة إلى حسن الظنِّ بالله تعالى، خاصّة إذا اشتدّتْ به الكرب، وضاقت به السبل.

١٦- الرجاء بالله تعالى لا يتأتى غالبًا إلا مع الإيمان القوي واليقين المتجذّر في نفس الداعية بنصر الله تعالى، وهذا ما يجب أن يكون عليه الداعية إلى الله تعالى.

١٧- التواضع سمة الصالحين، وأولياء الله المتقين، وأولى الناس حرصًا عليه الدعاة

إلى الله تعالى، فيجب التحلي به.

١٨- الصدق مع الله من أعظم الأمور المنجية في وقت الأزمات، واشتداد الأمور، والدعاة إلى الله تعالى بأمس الحاجة لمثل هذا المقوم المهم، ليُحَصّلوا ولاية الله تعالى، ولتنجح دعوتهم بحب المدعوين لهم.

١٩- التثبت وعدم العجلة له ثمار يانعة، وفوائد مثمرة، فَحِرصُ الداعية عليه مِنْ أولى الأولويات، إذ به يسّلم من الزلل، ويدرك مكامن الخلل، فلا يقع فيه.

٢٠- من أخطر الأمور على الدعاة إلى الله تعالى الغضب الغير محمود، لما فيه من تشويهٍ لصورة الدعاة في أذهان المدعوين، وبالتالي سقوط دعوته.

٢١- الاستعجال وعدم التثبت خطره ليس محصورًا على مرتكبه، بل على المجتمع بأسره، خاصّةً إذا بدر من الداعية.

٢٢- نصرة القبيلة إذا لم تكن طاعة لله تعالى، فهي من أعظم الأمور هدمًا للدعوة والداعية؛ لأنها تفضي على صاحبها اتباع الهوى، وتقديم القريب ولو كان ظالمًا.

٢٣- الحكمة من أجلّ المطالب التي ينبغي للدعاة التحلي بها، وهي من سمات النبي ﷺ، والداعية مأمور بالاقتداء بالنبي ﷺ، فلذلك يجب التحلي بها في الأمور الخاصّة والعامة.

٢٤- الموعظة الحسنة لها تأثير قوي في نفوس المدعوين، وهي من وسائل دعوة النبي ﷺ، فالتحلي بها من قبل الدعاة مكسبٌ عظيم لهم ولدعوتهم.

٢٥- ضرب المثل وسيلة مؤثرة في نفس المدعو، سريعة الوصول إلى المراد، والتحلي بها فيه امتثال لأمر الله تعالى، وطريقة دعوة النبي ﷺ.

٢٦- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة دعوية لها درجات وكيفيات، إذا أحسن الداعية تعامله بها، رسم صورة مشرقة له، ولدعوته، وإذا أساء استخدامها، جنى على نفسه، ودعوته.

٢٧- الترغيب والترهيب له وقعٌ شديد في نفوس المدعوين، وله نتائج إيجابية، فيذكرهم بالتوبة من الذنوب والمعاصي، والرجوع إلى الله تعالى، وله أحوال ومناسبات يحسن

معرفتها؛ ليؤتي ثماره المرجوّه.

٢٨- الخطابة وسيلة دعويّة مهمة اعتنى بها النبي r كثيرًا في دعوته، واستخدمها في المهمات الصعبة والحساسة، مما يعني ضرورة الاهتمام بأحكامها، وفنونها؛ لأنَّ إتقانها من آكد المصالح الدعوية.

^ ^ ^

الفهارس العلميَّة

وتحتوي على:

١ - فهرس الآيات القرآنية.

٢ - فهرس الأحاديث النبوية.

٣ - فهرس الآثار.

٤ - فهرس الأعلام.

٥ - فهرس الكلمات الغريبة.

٦ - فهرس القبائل والبلدان.

٧ - فهرس المصادر والمراجع.

أولاً: فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
^] \ [Z X W V U T SO N _	١٠	البقرة	٦٦
m l k j i h g f e d c b aO N s r q p o n	١١، ١٢	البقرة	٦٦
O ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ N	٤٦	البقرة	٢٠٩
g f e d c b a ` _ ^ O N h	١٠٩	البقرة	٨٢
N) (' & % $ # " !O	١٢٠	البقرة	٨٢
O كَمَآ أَرۡسَلۡنَا © رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ´ µ ¶ ، تَعۡلَمُونَ N	١٥١	البقرة	٢٦١
8 7 6 5 4 3 2 1 0 O N < ; 9	١٥٥	البقرة	١٤٤، ١٩٣
O µ ¶ ، يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا N	٢٦٩	البقرة	٢٦٢
N A @ ? > = O	٢٧٥	البقرة	٢٦٩
N t s r q p o nO	٥٨	آل عمران	٢٦١
7 6 5 4 3 2 1 0 / . - , O N < ; : 9 8	٧٢	آل عمران	٨٤
O قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ ´ µ ¶ ، شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ N	٩٨	آل عمران	١٦٨ (حاشية)
N ? > = < ; : 9 8 7 6 5 4O	١٠٢	آل عمران	١
N D C B A O	١٠٣	آل عمران	٩١
N N M L K J I H O	١٠٣	آل عمران	٩٠، ١٦٨

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
p o n m l k j i h g f O N t s r	١٠٤	آل عمران	٢٨١، ٢٨٢
6 5 4 3 2 1 0 / . O N 9 8 7	١١٠	آل عمران	٢٨٢
N V U T S R Q P O O	١١٨	آل عمران	٦٤
N Y X WO	١١٨	آل عمران	٦٧
d c b a ` _ ^] \ [Z O N e	١١٨	آل عمران	٦٨
*) (' & % $ # " O N , +	١٣٣	آل عمران	٢٠١
N 7 6 5 4 3 O	١٣٤	آل عمران	١٢٣، ١٢٤
3 2 1 0 / . - , + *) (O N 4	١٤٦	آل عمران	١٩٤
N E D C B A ? > = O	١٥٩	آل عمران	١٤٨
N , + *) (' & % $ # " ! O	١	النساء	١
j i h g f e d c b a O N p o n m l k	٦٣	النساء	٢٧١
N b a ` _ ^] \ [Z O	٨٣	النساء	٢٤٥
N	{ z y x w v u t O	٩٤	النساء	٢٣٣، ٢٤٥
. - , + *) (' & % $ # "O N 1 0 /	١١٤	النساء	٢٨٣
N ' & % $ # " O	١٣٥	النساء	١٦٧
. - , + *) (' & % $ # " ! O N 8 7 6 5 4 3 2 1 0 /	١٤١	النساء	٧٤

N ? > = < ; : 9 8 7 6 5 4 3 2O	١٤٩	النساء	٢٠٢
N. - , +) (' & % $ # " O	٥١	المائدة	٦٦
U T S Q P O N M L O N V	٧٩	المائدة	٢٨٤
4 3 2 1 0 / . - , + O N 7 6 5	١٠	الأنعام	٨١
O وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا © فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ N	١٢٣	الأنعام	٦٩
O © خَوْفًا وَطَمَعًا N	٥٦	الأعراف	٢٨٩
N h g f e d c b a ` _ ^ O	٧٧	الأعراف	٨١
L K J I H G F E D O N T S R Q P O N M	١٥٧	الأعراف	٢٨٢
N (' & % $O	٤٦	الأنفال	١٦٩
N t s r q p o n m l kO	٤٩	الأنفال	٦٧
N - , + *)O	٦٢	الأنفال	٩٠
Oقَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ N	٣٠	التوبة	١٣
Oوَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ N	٦١	التوبة	٧٩
\ [Y X W V U T S O N ` _ ^]	٦٥	التوبة	٦٥
N e d c b a O	٧١	التوبة	٩٧
. - , + *) ('& % $# " ! O N /	٨٠	التوبة	٢٠٤
$ # " ! O N %	١١٢	التوبة	٢٨٣
N6 5 4 3 2 10 / O	١١٨	التوبة	٢١٠

O B C D E F G H I N	١١٩	التوبة	٢٢٧
O µ ¶ ¸ لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ N	٣٩	يونس	٢٤٥
O R S T U V W X Y Z [\ ] ^ _ N	٥٧	يونس	٢٦٩
O فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ © قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا N	٢٧	هود	٨٦
O ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 N	٣٨	هود	٨١
O ! " # $ % & ' N	٥٤	هود	٨١
O Z [\ ] ^ _ ` a N	١٨	يوسف	١٥٧، ١٩٨، ٢٧٨
O ; < = > ? @ A B C D N	٢١	الرعد	١٨٩
O ( ) * + , - N	٢٥	إبراهيم	٢٧٦
O نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ N	٤٩، ٥٠	الحجر	٢٩٠
O فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ N	٨٥	الحجر	٢٠٣
O وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ N	٨٨	الحجر	٢٢١
O 5 6 7 N	٩٥	الحجر	٧٩
O * + , - . / 0 N	٤٣	النحل	٧٧
O v w x y z { | N	١٢٥	النحل	٢٦٢، ٢٧٠
O J K L M N P Q R N	١١	الإسراء	٢٤١، ٢٤٧
O وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ N	٣٦	الإسراء	١٨٥
O قُلِ ٱدۡعُواْ © زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ N	٥٦، ٥٧	الإسراء	٢١٥

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
N H G F E D C B A @ O	٨٩	الإسراء	٢٧٦
N î بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ ë ê é è ç يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ كَانَ âO	١١٠	الكهف	٢٢٦
N 0 / . - , + * O	٧	الأنبياء	٧٧
O ۮ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ N	٩٠	الأنبياء	٢٨٩
N R Q P O N O	٨	المؤمنون	١٨٥
N 0 / . - + *) (& % $ # " !O	١١	النور	١، ١٥، ٢٢، ٢٩، ١٨٢، ١٩٩، ٢٣٣، ٢٩٠، ٢٩٨
L K J I H G F E D C B O N M	١٢	النور	٨٣، ٨٧، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٦، ٢١٢، ٢٤٨، ٢٨٤
N M L K J O	١٢	النور	٥٩
\ [Z Y X W V U S R Q P O O N]	١٣	النور	٢٥٠
k j i h g f e d c b a ` _ O N m l	١٤	النور	١٨٣، ٢٠٤، ٢٥٠، ٢٩١

<table>
<tr><td>z y xwvut s r q p oO
N ~ } | {</td><td>١٥</td><td>النور</td><td>٥٩، ٨٣، ٨٧، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٥، ٢١٢، ٢٥٠، ٢٩١</td></tr>
<tr><td>O وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن © بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ N</td><td>١٦</td><td>النور</td><td>١٠٦، ١٨١، ٢١٢</td></tr>
<tr><td>O يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن ´ µ ¶ ¸ كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ N</td><td>١٧</td><td>النور</td><td>٢٦، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤</td></tr>
<tr><td>O إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ N</td><td>١٩</td><td>النور</td><td>٦٠، ٨٩، ١٨٣، ١٩٠، ٢٩١</td></tr>
<tr><td>O وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ à ٱللَّهَ â رَّحِيمٞ N</td><td>٢٠</td><td>النور</td><td>٢٠٤</td></tr>
<tr><td>. - , + * (' & % $ # " O
N 1 0 /</td><td>٢١</td><td>النور</td><td>١٧٩، ١٨٣</td></tr>
<tr><td>R Q P O N M L K J I HO
NV U T S</td><td>٢٢</td><td>النور</td><td>٢٩، ٦٠، ١٣٨، ١٨٩، ٢٩٢</td></tr>
<tr><td>N ` _ ^] \ [Y X O</td><td>٢٢</td><td>النور</td><td>٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٨</td></tr>
<tr><td>o n m l k j i h g fO</td><td>٢٣</td><td>النور</td><td>٦٠، ٢٩٢،</td></tr>
</table>

N r q p			٢٩٣
O ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ N	٢٦	النور	١، ٦٥، ٢٩٨
N E D C B A @ ? > = < O	٥٥	النور	٧٦
O تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا N	٨٣	القصص	٢٢١
N | { z y x w v u t s r q O	١	العنكبوت	١٩٣
N > = O	١٧	العنكبوت	١١
N { z y x v u t s O	٤٣	العنكبوت	٢٧٧
N N M L K J O	٣٢	الروم	١٦٩
O وَلَقَدْ ´ µ ¶ ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ N	٥٨	الروم	٢٧٦
N $ # " ! O	١٢	لقمان	٢٦٢
C B A ? > = < ; : 9 8 7 6 O N D	١٣	لقمان	٢٧٠
O وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ N	١٨	لقمان	٢٢١
l k j i h g f e d O N n m	١٦	السجدة	٢٨٩
x w v u t s r q p o n m O N y	١٢	الأحزاب	٦٧
O لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ N	٢١	الأحزاب	٢، ٢١٥
N f e d c b a ` O	٥٨	الأحزاب	١٧٧
N | { z y x w v u O	٧٠	الأحزاب	١
O يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ N	٢٦	فاطر	٢١٦
N v u t s r q p o n m O	٢٠	يس	٢٧٠
O وَلَقَدْ ضَرَبْنَا © فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ N	٢٧	الزمر	٢٧٦

N ; : 9 7 6 5 4 3 O	٣٣	الزمر	٢٢٦
N g f e d c O	٣٧	الشورى	٢٠٣
N) (' & % $ # " ! O	٢٣	الزخرف	١٦٧
Oوَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ N	٢٨	الأحقاف	١١
Oفَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِN	٣٥	الأحقاف	١٩٥
Oوَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ N	٣٥	الأحقاف	٢٤٧
l k j i h g f e d c bO N q p o n m	٢٦	الفتح	٢٥٤
N 6 5 4 3 2 1 0 / O	٦	الحجرات	٢٣٣، ٢٤٥، ٢٤٦
: 9 8 7 6 5 4 2 1 0 / O N ;	١٢	الحجرات	١٧٨
N K J I H G F E O	١٣	الحجرات	١٦٥، ١٦٦
N A @ ? > = < ; :O	١٨	ق	١٧٧
N - , + * O	٩	الذاريات	١٣
Oفَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي N	٢	الحشر	١٨٨
) (' & % $ # " ! O 5 4 3 2 1 0 / . - , + * N 7 6	١٠	الحشر	١٧٠
E D C B A @ ? > = < ; : O N I H G F	١١	الحشر	٧٤
N k j i h g f O	٢١	الحشر	٢٧٧
Oهُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ N	٤	المنافقون	٧١
N k j i h g f e dO	١٤	التغابن	٢٠١

N] \ [Z Y X W V U T S R Q PO	١	نوح	٢٦٩
N j i h g f e d c b a ` _O	٢، ٣	نوح	٢٦٩
N 5 4 3 2 1 0O	١٣	نوح	٢١٤
` _ ^] \ [Z Y X W O N c b a	٧، ٨	الزلزلة	٢٩٠

" " "

ثانيًا: فهرس الأحاديث

" " "

ثالثًا: فهرس الآثار

" " "

رابعًا: فهرس الأعلام

" " "

خامسًا: فهرس الكلمات الغريبة

" " "

سادسًا: فهرس القبائل والبلدان

" " "

سابعًا: فهرس المصادر والمراجع

- الآداب الشرعية- محمد ابن مفلح المقدسي- تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيام- مؤسسة الرسالة، بيروت- ط:١- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم- أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية - تحقيق: محمد حامد الفقي- مطبعة أنصار السنة المحمدية، مصر- ط:٢- ١٣٦٩هـ.
- الإتقان في علوم القرآن- جلال الدين السيوطي- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- مكتبة دار التراث، مصر.
- أحكام القرآن – أحمد بن علي المكني بأبي بكر الرازي الجصاص- تحقيق: محمد الصادق قمحاوي- دار إحياء التراث العربي، بيروت – ط:١- ١٤٠٥هـ.
- أحكام القرآن- عماد الدين بن محمد الطبري المعروف بالكيا هرسي.
- إحياء علوم الدين- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي- دار المعرفة، بيروت.
- أدب الطلب ومنتهى الأدب- محمد بن علي الشوكاني- تحقيق: عبد الله يحيى السريحي- دار ابن حزم، بيروت- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- إرشاد الساري شرح صحيح البخاري- القسطلاني.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)- محمد بن محمد العمادي أبو السعود- دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل- محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي، بيروت، ط:٢- ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- أساس البلاغة- أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري- تحقيق: محمد باسل عيون السود- دار الكتب العلمية، بيروت- ط:١- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- الاستيعاب- يوسف بن عبدالله ابن عبدالبر- تحقيق: علي محمد البجاوي- دار الجيل، بيروت، ط:١- ١٤١٢هـ.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة- أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير- تحقيق: علي محمد عوض وعادل أحمد عبدالموجود- دار الكتب العلمية، بيروت- ط:١- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- الإشاعة- د. أحمد نوفل- دار الفرقان، عمان- ط:٢- ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- الاشتقاق- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد- تحقيق: عبد السلام محمد هارون- مكتبة الخانجي، القاهرة- ط:٣.

- الإصابة في تمييز الصحابة- أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي- تحقيق: علي محمد البجاوي- دار الجيل، بيروت- ط١- ١٤١٢هـ.
- أصول الدعوة- د. عبدالكريم زيدان- مؤسسة الرسالة، بيروت- ط:٣- ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن- محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي- إشراف: بكر بن عبدالله أبو زيد- دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
- الأعلام- خير الدين الزركلي- دار العلم للملايين، بيروت- ط:٥- ١٩٨٠م.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين- محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله بن قيم الجوزية- تحقيق: طه عبدالرءوف سعد- دار الجيل، بيروت- ١٩٧٣م.
- إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان- أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية- تحقيق: محمد عفيفي- المكتب الإسلامي، بيروت- ط:١- ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- إكمال المعلم بفوائد مسلم– أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي- تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء بالمنصورة، مصر- ط:١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف في فقه الإمام أحمد بن حنبل- علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي- دار إحياء التراث العربي، بيروت- ط:١- ١٤١٩هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)- عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي- إعداد وتقديم: محمد عبدالرحمن المرعشلي- دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
- أيسر التفاسير، أسعد حومد.
- البحر المحيط- محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي- تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض- دار الكتب العلمية، بيروت- ط:١- ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- بدائع الفوائد- أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية– تحقيق : هشام عبدالعزيز عطا وعادل عبد الحميد العدوي وأشرف أحمد- مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة- ط:١- ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- البداية والنهاية- إسماعيل بن عمر بن كثير- تحقيق: علي شيري- دار إحياء التراث العربي، بيروت- ط:١- ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز- محمد بن يعقوب الفيروزآبادى- تحقيق: محمد علي النجار.
- تاج العروس من جواهر القاموس- السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي- تحقيق: مجموعة من المحققين- وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.

• تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي- تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري- دار الكتاب العربي، بيروت- ط:١- ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

• تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري- دار الكتب العلمية، بيروت- ط:١- ١٤٠٧هـ.

• تاريخ بغداد- أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي- دار الكتب العلمية، بيروت.

• تاريخ مدينة دمشق- أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر- تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمرو غرامة العمروي- دار الفكر، بيروت، ط:١- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

• التبر المسبوك في ذيل الملوك- محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر السخاوي- مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

• تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام- ابن فرحون.

• تحرير ألفاظ التنبيه- أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي- تحقيق: عبد الغني الدقر- دار القلم، دمشق- ط:١- ١٤٠٨هـ.

• التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن عاشور- دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس- ١٩٩٧م.

• تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي- أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري- دار الكتب العلمية، بيروت.

• تذكرة الحفاظ- محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي- دراسة وتحقيق: زكريا عميرات- دار الكتب العلمية، بيروت- ط:١- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

• الترغيب والترهيب من الحديث الشريف- عبد العظيم بن عبد القوي المنذري- تحقيق: إبراهيم شمس الدين- دار الكتب العلمية، بيروت- ١٤١٧هـ.

• التسهيل لعلوم التنزيل– أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي- ضبطه وصححه وخرج أحاديثه: محمد سالم الهاشم- دار الكتب العلمية، بيروت – ط:١- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

• التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي- عبدالقادر عودة.

• التعريفات- لعلي بن محمد بن علي الجرجاني- تحقيق: إبراهيم الإبياري- دار الكتاب العربي، بيروت- ط:١- ١٤٠٥هـ.

• تفسير ابن أبي حاتم- عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي- تحقيق: أسعد محمد الطيب- المكتبة العصرية، صيدا.

• تفسير السراج المنير – محمد بن أحمد الشربيني- دار الكتب العلمية، بيروت.

• تفسير القرآن العظيم- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي- تحقيق: سامي بن محمد سلامة- دار طيبة، الرياض- ط:٢- ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

- تفسير القرآن العظيم- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي- تحقيق: سامي بن محمد سلامة- دار طيبة، الرياض- ط:٢- ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين (تفسير ابن أبي حاتم)- أبو محمد عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم- تحقيق: أسعد محمد الطيب- مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة- ط:١- ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- تفسير النسائي- أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي- حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: صبري بن عبدالخالق الشافعي وسيد بن عباس الجليمي- مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت- ط:١- ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- تفسير النسفي- أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي- تحقيق: مروان محمد الشعار- دار النفائس، بيروت- .
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم- محمد سيد طنطاوي.
- تفسير سورة النور – أبو الأعلى المودودي- دار الفكر، بيروت.
- تقريب التهذيب- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني- تحقيق: محمد عوامة- دار الرشيد، سوريا- ط:١- ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- تلخيص البيان في مجازات القرآن- الشريف الرَّضي- دار الأضواء، بيروت.
- تلخيص البيان في مجازات القرآن- الشريف الرضى- دار الأضواء، بيروت.
- تلخيص كتاب الاستغاثة (الرد على البكري)- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية- تحقيق: محمد علي عجال- مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة- ط١- ١٤١٧هـ.
- تهذيب الأسماء واللغات- محيي الدين يحيى بن شرف النووي- دار الكتب العلمية، بيروت.
- تهذيب التهذيب- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني- دار الفكر، بيروت- ط:١- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- تهذيب الكمال- أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبدالرحمن المزي- تحقيق د. بشار عواد معروف- مؤسسة الرسالة، بيروت- ط:١- ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- تهذيب اللغة- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري- تحقيق: مجموعة من المحققين- الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.
- تهذيب سنن أبي داود- ابن قيم الجوزية- مطبوع مع: مختصر سنن أبي داود للإمام المنذري ومعالم السنن للإمام الخطابي- تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي- مكتبة السنة المحمدية ومكتبة ابن تيمية بمصر.
- التوقيف على مهمات التعاريف- محمد عبد الرؤوف المناوي- تحقيق: د. محمد رضوان الداية- دار الفكر، بيروت- ط:١- ١٤١٠هـ.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان- عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي – مؤسسة الرسالة- ط١، ١٤٢٠/١٩٩٦م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري- تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر- هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة- ط:١- ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري- تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر- هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة- ط:١- ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

- جامع العلوم والحكم- أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي- دار المعرفة، بيروت- ط:١- ١٤٠٨هـ.
- الجامع لأحكام القرآن- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي- تحقيق: هشام سمير البخاري- دار عالم الكتب، الرياض- ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام r – محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية- تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط- دار العروبة، الكويت- ط:٣ - ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- جمهرة الأمثال- أبي هلال العسكري - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – عبدالمجيد قطامش- دار الفكر، - ط:٢- ١٩٨٨م.

جمهرة اللغة- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد- رمزي منير بعلبكي- دار العلم للملايين، بيروت- ط:١- ١٩٨٧م.

- الجواهر الحسان في تفسير القرآن– عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي- مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- حاشية السندي على صحيح البخاري- محمد بن عبدالهادي السندي- دار الفكر، بيروت.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني- دار الكتاب العربي، بيروت- ط٤، ١٤٠٥هـ.
- الداء والدواء- أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية- حققه: محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري- دار عالم الفوائد، مكة المكرمة- ط:١- ١٤٢٩هـ.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون- أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي- تحقيق: د. أحمد محمد الخراط- دار القلم، دمشق.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور- عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي- تحقيق: مركز هجر للبحوث- دار هجر، مصر.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور- عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي- تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي بالتعاون مع مركز هجر- دار هجر، مصر- ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- درء تعارض العقل والنقل– أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية- تحقيق: د. محمد رشاد سالم- طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- ط:٢- ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الدرر الكامنة – أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - تحقيق: محمد عبدالمعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية- ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
- دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون- القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري- تحقيق: عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص- دار الكتب العلمية، بيروت- ط:١- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- ديوان رؤبة بن العجاج- اعتنى بتصحيحه وترتيبه: وليم بن الورد البروسي- دار ابن قتيبة، الكويت.
- ديوان عروة بن أذينة. انظر: شِعْر عروة بن أذينة.
- ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد- أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي المكي الحسني الفاسي- تحقيق: كمال يوسف الحوت- دار الكتب العلمية، بيروت- ط:١- ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- الرد على المنطقيين- أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية- دار المعرفة، بيروت.
- رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية- تحقيق: عبدالله بن محمد المديفر- دار عالم الفوائد، مكة المكرمة. مطبوع ضمن (مجموع الرسائل).
- الروح- أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية– دار الكتب العلمية، بيروت- ط:١، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- أبو الفضل شهاب الدين السدي محمود الآلوسي- دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء- أبو حاتم محمد بن حبان البستي- تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد- دار الكتب العلمية، بيروت- ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- زاد المسير في علم التفسير- عبد الرحمن بن علي بن مُحَمَّد ابن الجوزي- المكتب الإسلامي، بيروت- ط:٣- ١٤٠٤هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية- تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة ببيروت ومكتبة المنار الإسلامية بالكويت- ط:٢٧- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي- أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي- تحقيق: د. محمد جبر الألفي- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت- ط:١- ١٣٩٩هـ.

- السلسلة الصحيحة- محمد ناصر الدين الألباني- مكتبة المعارف، الرياض.
- سنن ابن ماجه – أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني – تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- سنن أبي داود- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني- دار الكتاب العربي، بيروت.
- سنن أبي داود- سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني- تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد- دار الفكر ، بيروت.
- سنن الترمذي- محمد بن عيسى بن سورة الترمذي- تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين- دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سنن النسائي الكبرى- أحمد بن شعيب النسائي- تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي- أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط- قدم له: د. عبدالله بن عبد المحسن التركي- مؤسسة الرسالة بيروت- ط:١- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- سنن النسائي. انظر: المجتبى من السنن.
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية- أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية – دار المعرفة، بيروت.
- سير أعلام النبلاء- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذَهَبي- تحقيق: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة.
- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون- علي بن برهان الدين الحلبي- دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ.
- السيرة النبوية، ابن هشام- تحقيق: مصطفى السقا وعبد الحفيظ شلبي وإبراهيم الإبياري- مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب- عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي - تحقيق: عبدالقادر الأرنؤوط، محمود الأرنؤوط- دار ابن كثير، دمشق - ط:٣- ١٤٠٦هـ.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة- أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي- تحقيق: د. أحمد سعد حمدان- دار طيبة بالرياض- ١٤٠٢هـ.
- شرح السنة- الحسين بن مسعود البغوي- تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش- المكتب الإسلامي، بيروت- ط:٢- ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين r – محمد بن صالح العثيمين- مدار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦هـ.
- شرح صحيح البخاري – علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي- تحقيق: ياسر ابن ابراهيم- مكتبة الرشد، الرياض-ط:٤- ١٤٠٥هـ.

- شعب الإيمان- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي- تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول- دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١- ١٤١٠هـ.
- شِعْر ابن ميادة- جمع وتحقيق: الدكتور حنا جميل حداد- مراجعة وإشراف: قدري الحكيم- نشر: مجمع اللغة العربية، دمشق- ١٩٨٢م.
- شِعْر عروة بن أذينة (ديوان عروة)- جمع: د. يحيى الجبوري- دار القلم، الكويت- ط:٢- ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى r - القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي- مذيلاً بالحاشية المسماة: مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء للشمني- دار الفكر، بيروت- ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل - محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية- دار الكتب العلمية، بيروت- ط:٣.
- الصارم السلول على شاتم الرسول r - أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية- تحقيق : محمد عبد الله عمر الحلواني ومحمد كبير أحمد شودري- دار ابن حزم، بيروت- ط:١- ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء- أحمد بن علي القلقشندي- تحقيق: يوسف علي الطويل-دار الفكر، دمشق- ط١- ١٩٨٧م.
- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) لإسماعيل بن حماد الجوهري- تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار- دار العلم للملايين، بيروت- ط:٤- ١٩٩٠.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن لبان- محمد بن حبان البستي- تحقيق: شعيب الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة، بيروت- ط:٢- ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- صحيح أبي داود- محمد ناصر الدين الألباني- مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت- ط:١
- صحيح البخاري- محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري. المطبوع مع فتح الباري لابن حجر العسقلاني- دار المعرفة، بيروت- ١٣٧٩هـ.
- صحيح الترغيب والترهيب- محمد ناصر الدِّين الألباني- مكتبة المعارف، الرياض.
- صحيح الجامع الصغير وزياداته (الفتح الكبير)- محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي، بيروت- ط:٣- ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- صحيح سنن الترمذي- محمد ناصر الدين الألباني- مكتبة المعارف، الرياض- ط:١ للطبعة الجديدة- ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- صحيح مسلم- مسلم بن الحجاج القشيري- تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- صحيح مسلم مع شرحه المسمى إكمال إكمال المعلم- أبو عبدالله محمد بن خلفة الوشتاني الأُبي المالكي- دار الكتب العلمية، بيروت.
- ضعيف الترغيب والترهيب- محمد ناصر الدِّين الألباني- مكتبة المعارف، الرياض.
- ضعيف الجامع الصغير وزياداته (الفتح الكبير)- محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي، بيروت- ط:٣- ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- ضعيف سنن أبي داود- محمد ناصر الدين الألباني- مكتبة المعارف، الرياض- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- طبقات الحنابلة- أبو الحسين محمد بن محمد ابن أبي يعلى- تحقيق: محمد حامد الفقي- دار المعرفة، بيروت.
- طبقات الشافعية- أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة- تحقيق: د. الحافظ عبدالعليم خان- عالم الكتب، بيروت- ط:١- ١٤٠٧هـ.
- طبقات الشافعية الكبرى- تاج الدين بن علي بن عبدالكافي السبكي- تحقيق: د. محمود محمد الطناحي ود. عبدالفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع بمصر، ط:٢، ١٤١٣هـ.
- الطبقات الكبرى- محمد بن سعد، دار صادر، بيروت.
- طبقات المفسرين- أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي- تحقيق: علي محمد عمر- مكتبة وهبة، القاهرة- ط:١- ١٣٩٦هـ.
- طرح التثريب- العراقي.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين- أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية- تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر- دار ابن القيم، الدمام- ط:٢- ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين- أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية- تحقيق: إسماعيل بن غازي مرحبا- دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
- العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي- تحقيق: طلعت بن فؤاد الحلواني- الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، مصر- ط:١- ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠٢م.
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ- أحمد بن يوسف بن عبدالدائم المعروف بالسمين الحلبي- تحقيق: محمد باسل عيون السود- دار الكتب العلمية، بيروت- ط:١- ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري- بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني- ضبطه وصححه: عبدالله محمود محمد عمر- دار الكتب العلمية، بيروت- ط:١- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- عمر بن عبدالعزيز: معالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة- د. علي محمد محمد الصلابي- دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر- ط:١- ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

- عون المعبود شرح سنن أبي داود- أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي- دار الكتب العلمية، بيروت- ط:٢- ١٤١٥هـ.
- غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام- محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي، بيروت، ط:٣، ١٤٠٥هـ.
- غريب القرآن- أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني- تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران- دار قتيبة- ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- الغيبة والنميمة- أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا- دراسة وتحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا- مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت- ط:١- ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- الفائق في غريب الحديث- محمود بن عمر الزمخشري- تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم- دار المعرفة، بيروت- ط:٢.
- فتاوى السبكي- تقي الدين علي بن عبدالكافي السبكي- دار المعرفة، لبنان.
- الفتاوى الكبرى- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية- تحقيق: محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١- ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني- دار المعرفة، بيروت- ١٣٧٩هـ.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير- محمد بن علي بن محمد الشوكاني.
- الفروع- أبو عبدالله محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج- ومعه: تصحيح الفروع، للمرداوي- تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي- مؤسسة الرسالة، بيروت- ط:١- ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- فقه الإسلام شرح بلوغ المرام، عبدالقادر شيبة الحمد، مطابع الرشيد، المدينة النبوية.
- فقه السيرة- محمد الغزالي- خرج الأحاديث: محدث الديار الشامية العلامة محمد ناصر الدِّين الألباني- دار الشروق، القاهرة بمصر.
- الفوائد، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:٢، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- في ظلال القرآن – سيد قطب- دار الشروق، القاهرة - ط:٩- ١٤٠٠هـ.
- فيض الباري شرح البخاري- الكشميري- دار الكتب العلمية، بيروت.
- فيض القدير شرح الجامع الصَّغير- عبد الرءوف المناوي- المكتبة التجارية، مصر- ط:١- ١٣٥٦هـ.
- القاموس المحيط- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي- تحقيق: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي- مؤسسة الرسالة، بيروت- ط:٥- ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- القواعد الحسان في تفسير القرآن- عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

- الكبائر – محمد بن عبدالوهاب- وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية- ط:٢- ١٤٢٠هـ.
- كتاب الإيمان الأوسط- شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم ابن تيميّة- دراسة وتحقيق: د. علي بن بخيت الزهراني- دار ابن الجوزي، الدمام- ط:٣- ١٤٣٠هـ.
- كتاب الصمت وآداب اللسان- أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا- حققه وخرج أحاديثه: أبو إسحاق الحويني- دار الكتاب العربي، بيروت- ط:١:- ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- كتاب العين- أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي- تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي- دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- كتاب الفوائد الشهير بالغيلانيات- أبو بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي، تحقيق: حلمي كامل أسعد عبد الهادي، تقديم: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان- دار ابن الجوزي، الدمام.
- كتاب الكليات- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي- تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري- مؤسسة الرسالة، بيروت- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري- تحقيق: عبدالرزاق مهدي- دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- كشف الأستار عن زوائد البزار- علي بن أبي بكر الهيثمي- تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي- مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:١- ١٤٠٥هـ.
- الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)- أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري- تحقيق: أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي- دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:١- ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م.
- لباب النقول في أسباب النزول- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي- خرج أحاديثه وعلق عليه: عبدالرزاق المهدي- دار الكتاب العربي، بيروت- ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- اللباب في علوم الكتاب- أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي- تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض- دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١- ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- لسان العرب- محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري- دار صادر، بيروت- ط:١- ١٩٥٥م.
- المبدع في شرح المقنع- إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن محمد بن مفلح- دار عالم الكتب، الرياض- ط:١- ١٤٢٣هـ.
- المجتبى من السنن- أحمد بن شعيب النسائي- تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة- مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب بسوريا- ط:٢- ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- مجلة البحوث الإسلامية، الصادرة عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد- علي بن أبي بكر الهيثمي- دار الفكر، بيروت – ط١، ١٤١٢هـ.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد- نور الدِّين علي بن أبي بكر الهيثمي- دار الكتب العلمية، بيروت (مصورة عن طبعة القدسي بمصر)- ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- مجموع الفتاوي- شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية- جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد- مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- المجموع شرح المهذب- أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي- دار الفكر، بيروت.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- أبو محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي- تحقيق وتعليق: مجموعة من المحققين- طبعة قطر- ط:٢- ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- المحكم والمحيط الأعظم- أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي- تحقيق: عبدالحميد هنداوي- دار الكتب العلمية، بيروت- ٢٠٠٠م.
- المحيط في اللغة- الصاحب بن إسماعيل بن عباد- تحقيق: محمد حسن آل ياسين- مطبعة المعارف، بغداد- ط:١- ١٩٧٥ – ١٩٨١م.
- مختار الصحاح- محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي- تحقيق: محمود خاطر- مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- المخصص- أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده- تحقيق: خليل إبراهم جفال- دار إحياء التراث العربي، بيروت- ط:١- ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- مدارج السالكين- أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية- تحقيق: محمد حامد الفقي- دار الكتاب العربي، بيروت- ط:٢- ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- المدخل إلى السنن الكبرى- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي- دراسة وتحقيق: أ.د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي- مكتبة أضواء السلف، الرياض- ط:٢- ١٤٢٠هـ.
- المدخل إلى لبحث في علوم السلوكيّة- صالح بن أحمد العساف- مكتبة العبيكان، الرياض- ٢٠٠٣م.
- المستدرك على الصحيحين- محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري- دار المعرفة، بيروت (مصورة عن الطبعة الهندية).
- مسند ابن الجعد- علي بن الجعد بن عبيد أبو الحسن الجوهري– تحقيق: عامر أحمد حيدر- مؤسسة نادر، بيروت- ط:٢- ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- مسند أبي يعلى- أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي- تحقيق: حسين سليم أسد- دار المأمون للتراث، دمشق- ط:١- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني:

١- مؤسسة قرطبة بالقاهرة (مصورة عن الطبعة الميمنية).

٢- تحقيق: جماعة من الباحثين- مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:٢- ١٤٢٠ه/ ١٩٩٩م.

- مسند إسحاق بن راهويه- إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه الحنظلي- تحقيق: د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي- مكتبة الإيمان، المدينة المنورة- ط:١- ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- مسند الحميدي- أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي- تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي- دار الكتب العلمية، بيروت.
- مسند الشاميين- سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني- تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت- ط:١- ١٤٠٥ هـ /١٩٨٤م.
- مشكاة المصابيح- محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي- تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي، بيروت- ط:٣- ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير- أحمد بن محمد بن علي الفيومي- المكتبة العلمية، بيروت.
- مصنف ابن أبي شيبة- أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة- الدار السلفية بالهند.
- المعالم الأثيرة في السنة والسيرة- إعداد: محمد محمد حسن شراب- دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- ط:١، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م.
- معالم التنزيل (تفسير البغوي)- الحسين بن مسعود الفَرَّاء البغوي الشافعي- تحقيق: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة وسليمان الحرش- دار طيبة، الرياض- ط:٤- ١٤١٧ه/ ١٩٩٧م.
- معاني القرآن- أبو زكريا يحيى بن زياد الفرَّاء- عالم الكتب، بيروت- ط:٣- ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- معاني القرآن الكريم- أبو جعفر النحاس- تحقيق: محمد علي الصابوني- جامعة أم القرى، مكة المكرمة- ط:١- ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- المعجم الأوسط- سليمان بن أحمد الطبراني- تحقيق: طارق بن عوض الله وعبدالمحسن إبراهيم- دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
- معجم البلدان- أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي- دار الفكر، بيروت.
- معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزء من كتاب السيد نور الدين الجزائري- تنظيم: بيت الله بيات ومؤسسة النشر الاسلامي- مؤسسة النشر الإسلامي، قُم- ط:١- ١٤١٢هـ/ ٢٠٠٠م
- المعجم الكبير- سليمان بن أحمد الطبراني- تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي- مكتبة العلوم والحكم، الموصل بالعراق- ط:٢- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية- عاتق بن غيث البلادي- دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة- ط:١- ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- المعجم الوسيط- قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار- مطابع دار المعارف، مصر- ١٤٠٠ه/ ١٩٨٠م.
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع – أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي- تحقيق: مصطفى السقا- عالم الكتب، بيروت- ط:٣- ١٤٠٣هـ.
- معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم- أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي- تحقيق: أ.د محمد إبراهيم عبادة- مكتبة الآداب، القاهرة- ط:١- ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- معجم مقاييس اللغة- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي- تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون- دار الفكر، بيروت- ط:٢- ١٤١٨ه/ ١٩٩٨م.
- المغازي- محمد بن عمر الواقدي- تحقيق: مارسدن جونس- منشورات عالم الكتب، بيروت- ط:٣- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- المغازي- محمد بن عمر الواقدي- تحقيق: مارسدن جونس- منشورات عالم الكتب، بيروت- ط:٣- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)- محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي- دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- مفتاح دار السعادة- أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية- تحقيق: علي بن حسن بن علي بن عبدالحميد الحلبي- دار ابن عفان، الخبر- ط:١- ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- مفردات ألفاظ القرآن الكريم- أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني- تحقيق: صفوان عدان داوودي- دار القلم، دمشق- ط:٣- ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم- أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي- تحقيق: مجموعة من المحققين- دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، بيروت- ط:١- ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية- شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية- تحقيق: د. محمد رشاد سالم- مؤسسة قرطبة، مصر- ط:١- ١٤٠٦هـ.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (شرح النووي على صحيح مسلم)- أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي- دار إحياء التراث العربي، بيروت- ط:٢- ١٣٩٢هـ.
- الموسوعة الفقهية الكويتية- مطبعة دار السلاسل، الكويت- ط:٢- ١٤٠٧ه.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي- تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي- دار الكتب العلمية، بيروت- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

- النفاق والمنافقون في عهد النبي r - ابراهيم علي سالم- دار الشعب.
- النكت والعيون (تفسير الماوردي)- أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري- تحقيق: السيد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم- دار الكتب العلمية، بيروت.
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي.
- النِّهاية في غريب الحديث والأثر- أبوالسعادات المبارك بن مُحَمَّد الجزري- تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود مُحَمَّد الطناحي- المكتبة العلمية، بيروت- ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه- أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي- تحقيق: مجموعة من المحققين- طبعة مجموعة بحوث الكتاب والسنة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة الشارقة- ط:١- ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
- الوابل الصيِّب ورافع الكلم الطيب- أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية- تحقيق: عبدالرحمن بن حسن بن قائد- دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان- تحقيق: إحسان عباس- دار صادر، بيروت.

" " "

فهرس المحتويات

\- - -